بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القـــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : عبدالله قاسم عبدالله سفيان كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : الكتاب والسنة

عنوان الأطروحة : ((الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٦/ ٨/ ١٤٢٠هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ سليمان الصادق البيرة	الاسم : د/ أحمد عطاء بن عبدالجواد	الاسم : د/ وصي الله محمد عباس
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم الكتاب والسنة

الاسم : حسنين محمد فلمبان

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

جامعة أم القرى
الدراسات العليا
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٧٠٧

الكِبْرُ والمُتكبِّرون في ضوء الكتاب والسُّنّة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

١٥٩٦/٠٠

إعداد الطالب
عبد الله قاسم عبد الله سفيان

٣٧٠٧

إشراف فضيلة الدكتور
سليمان الصادق البيرة

١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسع كل شيء رحمةً وعلماً والصلاة والسلام على رسول الله الصادق عملاً وكلماً وعلى آلـــه وصحبه والمتخلقين بخلقه إلى يوم الدين وبعد :

هذا بحث مقدم لنيل درجة الماجستير – جامعة أم القرى – كلية الدعوة – قســم الكتــاب والســنة ، وعنوانـــــه :

(الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة) ويشتمل على مقدمة وثمانية فصول وخاتمه .

أما المقدمة فشملت – أهمية الموضوع – أسباب اختياره – صعوبات قابلته – منهجي فيه.

وأما الفصول فالأول في التعريفات والفرو قات ، وحوى مبحثين : ١ – تعريف الكبر لغة واصطلاحاً

٢– الفرق بين الكبر وبعض الألفاظ المرادفة أو المقاربة له والواردة في النصوص الشرعية .

والثاني في دواعي الكبر وأسبابه وحوى مبحثين ١ – دواعي الكبر ٢ – أسباب الكبر .

والثالث في أقسام الكبر – باعتبار حقيقته وباعتبار المتكبر عليه وباعتبار أحكامه وباعتبار أفراده .

والرابع في أبرز علامات الكبر .

والخامس في أحكام الكبر – كفر – كبيرة – مباح .

والسادس ذكرت فيه قصص المتكبرين ومظاهر كبرهم من خلال نصوص القرآن والسنة .

والسابع في آثار الكبر – آثاره الدنيوية – آثاره الآخر ويه .

والثامن في علاج الكبر – علاجه في القرآن والسنة – علاجه جملة وتفصيلاً .

أما الخاتمة فشملت النتائج المستفادة من البحث .

هذا باختصار ما حواه هذا البحث الذي يتناول قضية مهمة هي قضية التكبر الذي يعد من أخطر وأســوأ الأخلاق التي حرص الإسلام على تطهير أبنائه منها حتى لا تصيبهم عاقبة المتكــبرين الأليمــة في الدنيــا والآخرة .

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا البحث المتواضع وأن ينفعني وغيري به راجياً عفوه عن التقصـــير والإساءة وهو سبحانه ولي ذلك .

والحمد لله رب العالمين والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم تسليماً كثيرا

الطالب	المشرف	العميد
[توقيع]	[توقيع]	[توقيع]

المُقَدّمَة

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الحمد لله ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، الحمد لله المتصف بكل كمال ، المتفرد بنعوت الجلال والجمال ، المنزه عن كل نقص ، الكبير المتعال ، أحمده تبارك وتعالى حق حمده ، وأثني عليه الثناء كله ، وهو أهل الحمد والثناء .

وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ولاند ولاشبيه ولاقسيم ولامثيل : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشورى:١١] .

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله وصفوته من خلقه ، أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه على عينيه ، فبلغ في صفات الكمال البشري مالم يبلغه بشر قبله ولابعده ، فصلوات ربي وسلامه وبركاته عليه مانفس جرى ، وعدد ما أحاط به علم الله من ذرات الثرى ، وعلى آله وصحبه خير الورى ، وعلى التابعين لهم ، المتخلقين بأخلاقهم ، صلاة وسلاماً وبركات إلى يوم الدين .

أهمية الموضوع :

أما بعد : فإن للأخلاق في الإسلام قيمتها ومكانتها وأهميتها ، فقد رفع المولى عزوجل شأنها ، وجعل لها الحظ الأوفر من العناية والاهتمام متمثلاً ذلك في دستوره الخالد ، كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والأخلاق كما هو معلوم إما ممدوحة أو مذمومة ، ولكلٍّ أثره على حياة الأفراد والمجتمعات والأمم .

فالأخلاق الممدوحة كالتواضع واللين والعفو والحلم والجود والرحمة والإحسان....الخ ، آثارها صلاح وسعادة ، وحب وألفة ، وإخاء ومودة ، وعزة ورفعة ، وفلاح وخير يلقى بظلاله الظليل على الجميع .

والأخلاق المذمومة كالكبر والغرور والعجب والبطر والبخل والشح والبغي...الخ ، آثارها : شقاء وفساد وفرقة وتباغض واختلاف وتنافر وذل وصغار وبلاء وشر يطول الجميع .

ومن هنا فقد كان للإسلام موقفه الواضح في حرصه العظيم على غرس فضائل الأخلاق ومكارمها في نفوس أتباعه وتربيتهم عليها ، وحرصه كذلك

على تطهيرهم من كل خلق ذميم وسلوك معوج أثيم ، وقلعه من جذوره من نفوسهم ، ليعلوا ويسموا ، وليكونوا إخواناً ، بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً ، وجسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، عربهم وعجمهم ، أبيضهم وأسودهم ، قاصيهم ودانيهم ، شرقيهم وغربيهم ، غنيهم وفقيرهم ، أميرهم ومأمورهم .

وقد كانوا كذلك يوم أن نهلوا من المنهل العذب الصافي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يوم أن قالوا لأمر الله تعالى ونهيه : سمعنا وأطعنا ، فتخلقوا بما أمرهم به من الأخلاق الحميدة ، وطهروا أنفسهم مما نهاهم عنه من الأخلاق السيئة الذميمة .

وإن مما حرص الإسلام على تطهير أتباعه منه من الأخلاق الذميمة خلق التكبر والخيلاء ، فإنه من أقبح الأخلاق حتى لقد عدّه بعض علماء الأمة وأئمتها من أركان الكفر[1] ، إذ أن فيه منازعة الله تعالى صفة من صفاته التي لاتكون إلا له ، ولاتليق إلا به سبحانه وتعالى ، بل لقد عده الإمام ابن تيمية – عليه رحمة الله- شرٌّ من الشرك ، إذ المشرك يعبد الله تعالى ومعه غيره ، والمتكبر يأنف أن يكون عبداً لله[2] .

ومما يدل على عظم قبح هذا الخلق أنه كان أول ذنب مع الحسد عُصي الله تعالى به ، وذلك عندما خلق الله آدم عليه السلام وأمر ملائكته الكرام ومعهم إبليس بالسجود له ، فأطاع الملائكة أمر الله ، وتعظم إبليس ، فأبى أن يسجد قائلاً كما أخبر الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**﴾[الإسراء:٦١] ، وكما أخبر الحق سبحانه وتعالى : ﴿**قَالَ مَامَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ : أَنَا خيرٌ منه ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[الأعراف:١٢] .

إضافة إلى ذلك فإن التكبر من أعظم الأدواء والآفات التي تنخر في جسد

---

(١) انظر : الفوائد ، لابن القيم ص٢٢٩.

(٢) انظر : مدارج السالكين ٣٤٥/٢ ، كما ذكر ابن تيمية أن التكبر يولد الشرك ، فمن استكبر عن عبادة الله تعالى لابد أن يعبد غيره تحت أي صورة من صور العبادة... ، انظر : مجموع الفتاوى ١٩٥/١٠ـــ١٩٩.

الأمة ، وتقوض بنيانها المحكم ، وتفرق صفها المرصوص ، الذي أراده الله سبحانه وتعالى لها ، وذلك لأنه يقود صاحبه إلى إنكار الحق ورده وعدم قبوله ، والاستكبار عليه وعلى أصحابه حتى إنه ليبلغ الحال ببعض المتكبرين إلى محاربة الحق وقتل أهله لتكون له الكبرياء في الأرض .

كما أن التكبر يجعل صاحبه ينتقص الآخرين ويستصغرهم ويستعلي عليهم ومن ثم يغمطهم حقوقهم ، ويبغي عليهم غاية البغي .

كما أنه يقود ويؤدي إلى التخلق بأخلاق سيئة كثيرة ، كالحقد والحسد ، والبغي والبطر ، والرياء والنفاق ، والغيبة والنميمة ، والغمز واللمز والبهتان....وغيرها من مرذول الأخلاق وسيء الصفات .

وإذاً فالتكبر بهذه الصورة الشنيعة مرض فتاك وداء عضال ، يؤدي إلى انعدام الثقة والأمان والأمانة والتعاون والمحبة والمودة والألفة بين أفراد الأمة ، كما يؤدي إلى زرع الشقاق والتنافر والتناحر بينهم ، وغرس البغضاء والشحناء في نفوسهم فيحصل من وراء ذلك شر وفساد عريض يصيب المجتمع بأسره .

فكيف يمكن لمجتمع أن يثق أفراده بعضهم ببعض ، ويأمن كلٌّ جانب الآخر ، والغني فيه يطغى على الفقير ، فيظلمه بتكبره عليه وأنفته من مجالسته ومحادثته ومخالطته ، والأكل والشرب معه ، والزواج منه أو تزويجه ، ومن أداء سائر الحقوق التي له عليه ، حتى إنه ليأنف من ردّ تحية الإسلام عليه ، بل وأعظم من ذلك حين يأنف من الوقوف إلى جواره في الصلاة بين يدي رب العالمين .

ومثل ذلك يكون حال ذي الجاه والسلطان والمنصب مع عامة الناس .

ومثل ذلك يكون حال العالم ذي الشهادات والإجازات مع الجاهل ، أو مع من هو أقل منه في ذلك .

ومثله يفعل العابد الزاهد مع من يراهم أو تخيل له نفسه أنهم أقل منه عبادة وزهداً .

ومثلهم يفعل صاحب الحسب والنسب مع من هم ليسوا من فصيله وقبيله ، وليس لهم حسبه ونسبه .

ومثلهم يفعل الجميل الوضيء مع من هم أقل منه جمالاً ونضارة .

أنى لمجتمع أن يعيش في أمان ترفرف السعادة عليه ، وتسود المحبة بين

أبنائه ، والابن يتكبر على أبويه ، والأب على أبنائه ، والزوج على زوجه ، والطالب على معلمه ، والمعلم على تلامذيه ، والموظف على مراجعيه ، والمدير على من هم تحت إدارته...الخ وكل واحد من هؤلاء يأنف من أداء الحقوق والواجبات التي عليه نحو الآخرين؟!

إن هذه الصورة وغيرها من صور التكبر تبين لنا فداحة وعظم خطره على الأفراد والمجتمع والأمة ، ومن ثم فقد قلنا إنه من أعظم الآفات التي تصيب الأمة وتنخر في جسدها .

ولهذا فقد أولاه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مايستحقه من البيان والعلاج ، وذلك على النحو الذي آمل أن يوفقني الله تعالى إلى بيانه من خلال هذه الرسالة العلمية ، والتي اسميتها : « الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة » .

أسباب اختياري للموضوع :

وهي : سبب عام ، وأسباب خاصة بالموضوع .

فأما السبب العام ، فيتعلق بإتمام الدراسة في مرحلة الماجستير ، وذلك أنه وبعد أن منّ الله سبحانه وتعالى عليّ ووفقني لاجتياز السنة المنهجية لمرحلة الماجستير في قسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة بجامعة أم القرى - شرفها الله- أصبح لزاماً عليّ أن أتقدم بموضوع لرسالتي العلمية لأتم بها دراستي في هذه المرحلة ، فكان أن جالت في خاطري موضوعات شتى ظللت متردداً أبحث عن ضالتي بينها ، حتى استقر رأيي بعد استخارة الحق سبحانه وتعالى ، واستشارة بعض أساتذتي الكرام ، وبعض أهل العلم والمعرفة على أن أكتب في هذا الموضوع الأخلاقي الهام .

وقد اخترت الكتابة الموضوعية دون التحقيق ، لميلي إليها ، ولما بدا لي من تعدد فوائدها ، والتي منها :

أ - توسع مدارك الباحث وإثراء ثقافته من خلال اطلاعه على المراجع العلمية المتعددة للإحاطة بجوانب الموضوع ، وجمع مادة علمية وافية عنه .

ب - يكتسب الباحث من خلال اطلاعه على مختلف المراجع ، وقراءته لها أسلوباً جيداً مميزاً ينفعه ويفيده بإذن الله تعالى في مستقبل حياته العلمية عند إرادته كتابة بحث أو رسالة أو تأليف كتاب ، أو عند إرادته التحدث عن

موضوع علمي ما ، ونحو ذلك .

وأما الأسباب الخاصة بالموضوع فهي :

أولاً : أهمية الموضوع وخطره :

فهو موضوع تربوي أخلاقي ، يعالج قضية سلوكية لها خطرها على حياة الأفراد والمجتمعات والأمم ، على النحو الذي أشرت إليه آنفاً ، والذي يأتي تفصيله في أثناء مباحث هذه الرسالة بإذن الله تعالى وتوفيقه .

ثانياً : عدم وجود كتابة مستقلة عنه :

فبالرغم من أهمية الموضوع وخطره إلا أنني وحسب اطلاعي القليل لم أجد من كتب فيه كتابة مستقلة بذاتها ، وأعني في كتاب مستقل وعلى ضوء النصوص القرآنية والنبوية .

غير أنه لم يخل من الكتابة فيه مطلقا ، فهذا الإمام الحارث المحاسبي قد كتب فيه وبين كثيراً من جوانبه وذلك في كتابه « الرعاية لحقوق الله »(1) ، وتبعه الإمام أبوحامد الغزالي -رحمهما الله تعالى- فكتب فيه في "إحيائه"(2) كذلك موضحا [illegible] لكثير من جوانبه ، وقريبا كتب فيه الدكتور : عبد الرحمن حبنكة الميداني بشيء من التفصيل في كتابه « الأخلاق الإسلامية وأسسها »(3) .

هذه هي الكتب الثلاثة التي وجدت أنها ذكرت هذا الموضوع وتعرضت له بكثير من التفصيل ، ولذا فهي مرتكز المصادر التي رجعت إليها بعد كتاب الله تعالى ثم كتب التفسير والحديث وشروحاته ، مع حرصي أن يكون لي أسلوبي الخاص ، وبالله التوفيق .

ثالثا : صور التكبر في مجتمعاتنا :

ومما دفعني للكتابة في هذا الموضوع ، تلك الصور المتعددة من صور التكبر والتي تبدو واضحة في واقع حياتنا ، أفراداً وجماعات وأمما ، فكان لابد من التذكير بخطر التكبر وبيان آفاته التي تعود على الجميع بالشر والفساد ، ليحذره أولوا الألباب والبصائر المتوقدة المتفتحة .

رابعاً: الإفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :

نظرت في كتاب الله عزوجل وتفكرت فيه فألفيته كما ألفاه الآلاف غيري بحراً لاساحل له ، لاتنقضي عجائبه ، ولاتنفد جواهره ودرره ، على

---

(1) انظر : ص٣٧٣-٤٢٦ .

(2) انظر : ٤/١٣٤-١٧٥ .

(3) انظر : ١/٦٥٩-٧١٧ .

كثرة الغارفين منها ، فأحببت أن أنهل من معينه الصافي ، ورجوت أن أحظى بإحدى درره ، وأفوز بلؤلؤة من لآلئه ، فاستعنت بالله تعالى ، واتجهت صوب شاطئ من شواطئ ذلك البحر الهدار ، فوجدت فيما يلقيه من الدرر ويقذفه من الجواهر هدية للصائدين ، غنية عن الغوص في أعماقه بحثاً عنها ، فمددت يدي باسم الله ، لعل فيضا من فيوضات ربي يدركني ورحمة من رحماته تشملني فأحظى بإحدى تلك الدرر والجواهر ، فكانت بإذن الله تعالى هذه الدرة وهذه اللؤلؤة التي أسميتها [الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة] .

ولايخفى على ذوي النفوس المؤمنة ، أن السنة النبوية ماهي إلافيض من غيض ذلك البحر الهدار ، وعين صافية من ذلك الينبوع الرقراق ، ولهذا عرجت عليها لتكون خير معين على فهم كتاب الله تعالى وإدراك أسراره وعجائبه وحكمه .

صعوبات اعترضت الطريق :

لقد حفت بهذا البحث مصاعب كثيرة أدت إلى تأخر إتمامه ، وأهمها مايلي :

١ - تأخر موافقة قسم الكتاب والسنة على الموضوع ، حيث استغرق البحث عنه والسعي لموافقة القسم عليه فصلين دراسيين ، فقد تمت الموافقة عليه من لدن مجلس القسم في جلستة الرابعة عشرة بتاريخ ١٤١٢/١٢/٢٨هـ وهذا أمر لاشك أنه كان له دور في انقضاء فترة زمنية لابأس بها من فترة الدراسة بثلاث سنوات مع السنة المنهجية .

٢ - تغيير الإشراف من سعادة الدكتور : عبد السميع الصائغ -يحفظه الله- إلى سعادة الدكتور : سليمان الصادق -يرعاه الله- .

وتغيير الإشراف يؤدي إلى إعادة النظر فيما كتب سابقاً حتى يكون لدى المشرف الجديد فكرة وافية عنه ، ولربما كانت له بعض الآراء التي تؤدي إلى التعديل والتغيير في الكتابة السابقة .

فلايخفى إذاً دور تغيير الإشراف في حصول التوقف ببعض الوقت عن المضي قدماً حتى تتم مراجعة السابق .

٣ - قلة مراجع البحث وتوزع مفرداته في مصادر مختلفة قديمة وحديثة ، وهذا أمر أخذ مني وقتا ليس بالقصير في البحث عن مظان المصادر والمراجع والأبحاث المفصلة بالموضوع ، وقد استعنت بالله تبارك وتعالى في

الأخـذ بالأسـباب وبـذل الجهـد المسـتطاع حسـب ماتيسـر لـي مـن وقـت وإمكانيـات .

وإني مقـر سـلفاً بمـا فـي هـذا البحـث مـن نقـص وثغرات لأنـي أوقـن أن هنـاك مـن البحـوث فـي هـذا الموضـوع ، المنتشـرة فـي بـلاد المسـلمين الواسـعة ، وفـي جامعاتهـا المتعـددة ، مـالم يتيسـر لـي الاتصـال بـه ، ومـن ثـم الاطـلاع عليـه ، ولكـن حسـبي أنـي لـم أقصـر فـي الوصـول إلـى مـاأمكنني الوصـول إليـه مـن ذلـك قـدر المسـتطاع .

والله تعـالى أسـأل أن يتجـاوز عـن مـابدر مني مـن تقصير وأخطـاء فـي هـذا البحـث ، وأن يقيـل عـثراتي فيـه ، وأن يعفـو عـن زلاتـي ، ويتجـاوز عـن هفواتـي ، إنه سـميع مجيـب .

٤ - قلـة بضـاعتي وضآلـة خبرتي فـي هـذا المجـال ، وإن كنـت راغبـاً فيـه ، ميّالاً إليـه ذا اسـتعداد لابـأس بـه فـي السـير فيـه - لكـن قلـة البضاعـة وضعـف الخـبرة يمثلان عائقا ، يـؤدي إلـى بـطء السـير فـي العمـل .

٥ - عـامل نفسـي أطلعـت عليـه سـعادة الدكتوريـن الفـاضلين : عبـد السـميع الصـائغ ، وسـليمان الصـادق ، وقـد أعـاقني هـذا العـامل كثـيراً ، ولـولا فضـل اللـه تعـالى عليّ ورحمتـه بي ، ثـم تفهـم الشـيخين الفـاضلين ، ووقوفهمـا إلـى جـانبي بحسـن التوجيـه ، وصـدق النصيحـة ، لمـا كـان لهـذا البحـث مـن إتمـام ، فـالحمد للـه حمـداً يسـتحقه ، ولشـيخي الفـاضلين مـن اللـه حسـن الجـزاء ، ومنـي جميـل الشـكر وجزيلـه ، وخـالص الدعـاء .

منهجي فـي هـذا البحـث :

هـو منهـج وصفـي تحليلي ، حيـث قمـت بجمـع الآيـات القرآنيـة الـواردة فـي الكـبر ومايقابلهـا ومايرادفهـا ، وجعلـت كـل مجموعـة منهـا تحـت مبحـث خـاص بهـا ، ثـم رجعـت إلـى أقـوال المفسـرين مسـتخلصاً منهـا القـول الـذي يؤيـده الدليـل ، وكذلـك جمعـت الأحـاديث الـواردة فيـه ، وجعلـت كـل مجموعـة فـي المبحـث الخـاص بهـا ، ثـم رجعـت إلـى شـروحاتها مسـتخلصا منهـا فوائدهـا ومدلولاتهـا .

ثـم بعـد ذلـك قمـت بكتابـة المبـاحث بأسـلوبي الخـاص ، مـن خـلال مااسـتفدته مـن الآيـات والأحـاديث والمراجـع التي رجعـت إليهـا .

هذا هو منهجـي بشـكل عـام ، وهنـاك نقـاط بـارزة أودّ التنبيـه عليهـا :

أولاً : الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، قد يكون لبعضها أكثر من مدلول وفائدة ، ولهذا قد تكرر في مواضع شتى ، فلايهولنك ذلك ، فإني قد حرصت على أن لا أذكر الآية أو الحديث في موضع إلا وله من المدلول مايستدعي ذلك ، فإن حصل توفيق فمن الله وحده ، وإن حصل زلل فمني ومن الشيطان ، والله أسأل عفوه ومغفرته .

ثانياً : بالنسبة للآيات القرآنية إذا ذكرتها أذكر أسماء السور الواردة فيها ، وكذلك رقم الآية أو الآيات بعدها مباشرة ، لافي الهامش .

ثالثاً : بالنسبة للأحاديث النبوية فقد آثرت في رسالتي ماصح منها ، فإن جاءت في صحيحَيْ البخاري ومسلم فأذكرها دون الحاجة إلى الحكم عليها ، لاتفاق الأمة على صحة ماجاء فيهما ، وإن جاءت في غيرهما خرجتها من مظانها ، ثم حكمت عليها من خلال مقالة أهل العلم المشهود لهم ، بالعلم بها وبأحكامها : فإن شذ شيء عن هذه القاعدة فهو من الضعف الذي يصيب البشر ويعتريهم ، والله سبحانه وتعالى جدير بأن يغفر ويرحم ويعفو ويتكرم .

رابعاً : حاولت الاستدلال والاستشهاد بما يناسب كل مقام من مقامات البحث حسب ماتوفر لدي من المادة العلمية ، من مأثور ، أو معقول ، أو واقع مشاهد ، أو غير ذلك .

خامساً : بالنسبة لما أنقله وأذكره من كلام أهل العلم ، إن نقلته حرفيا وضعته بين قوسين صغيرين ، ثم وضعت له رقما فوق آخره ، ثم جعلت ذلك الرقم في الهامش ، وذكرت اسم الكتاب الذي نقلت منه والجزء والصفحة في حالة وجود أي من ذلك ، وإن لم أنقله حرفيا بل تصرفت فيه بيسير أو كثير أضفت في الهامش كلمة : انظر ، قبل المعلومات السابقة الذكر .

سادساً : حاولت جهدي أن يكون لي أسلوبي الخاص في الكتابة ، حيث أقرأ النصوص في المصادر المتوفرة لدي ، ثم أصيغ الموضوع بأسلوبي بعد الاستفادة الكاملة من تلك النصوص والمراجع .

محتويات البحث :

البحث عبارة عن كتاب واحد يشتمل على مقدمة ، وثمانية فصول ، وخاتمة .

فأما المقدمة فتضمنت النقاط التالية :

- أهمية الموضوع .

- أسباب اختياري له .
- الصعوبات التي واجهتني فيه .
- المنهج الذي سلكته في البحث .

وأما الفصول :

فأما الفصل الأول : فهو في التعريفات والفروقات ، وهو عبارة عن مبحثين :

تكلمت في المبحث الأول عن تعريف الكبر لغة واصطلاحاً ، وفي المبحث الثاني عن الفرق بين الكبر وبعض الألفاظ المرادفة له التي وردت في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة من غير إطالة .

والفصل الثاني : عنوانه : دواعي الكبر وأسبابه ، وهو أيضاً مبحثان :

المبحث الأول : ذكرت فيه دواعي تكبر المتكبر من مال وجاه وقوة ونسب...الخ .

والمبحث الثاني : ذكرت فيه الأسباب التي تدفع المتكبر إلى التكبر ، وهي أسباب نفسية وأسباب اجتماعية ، وأسباب سلوكية .

والفصل الثالث : عنوانه : أقسام الكبر ، وتحدثت فيه عن أقسام الكبر باعتبار حقيقته ، وأقسامه باعتبار المتكبر عليه ، وأقسامه باعتبار أحكامه ، وأقسامه باعتبار أفراده .

والفصل الرابع عنوانه : علامات الكبر ، وتحدثت فيه عن العلامات المميزة التي من خلالها يعرف المتكبر .

والفصل الخامس عنونت له بـ: أحداث تاريخية للكبر في ضوء الكتاب والسنة :

وتحدثت فيه عن المتكبرين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أو في السنة المطهرة مبيناً مظاهر كبرهم حسب ماجاء في تلك النصوص الواردة في شأنهم من قرآن أو سنة .

والفصل السادس عنوانه : أحكام الكبر ، وتحدثت فيه عن أحكام الكبر ، وهي ثلاثة : كفر ، وكبيرة ، ومباح ، على النحو الذي تجده في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

والفصل السابع عنونت له بـ : آثار الكبر ، وجعلته من مبحثين :

المبحث الأول : في آثار الكبر التي تصيب الأفراد والمجتمع .

والمبحث الثاني : في آثار الكبر الأخروية التي تصيب المتكبر جزاء تكبره .

والفصل الثامن عنونت له بـ : علاج الكبر ، وجعلته من مبحثين كذلك :

المبحث الأول : منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة وأساليبهما في عرض قضية الكبر وعلاجه ، وتحدثت فيه عن كيفية عرض القرآن الكريم والسنة النبوية لقضية الكبر والأساليب التي استخدماها في علاجه .

المبحث الثاني : علاج الكبر جملة وتفصيلاً ، وتحدثت فيه عن كيفية علاج الكبر ، لتطهير النفوس منه وحفظ المجتمع من شروره وآفاته : أولاً في علاجه جملة ، ثانياً في علاج كل صورة من صور التكبر على حدة ، كالتكبر بالعلم ، والتكبر بالمال...الخ .

وأما الخاتمة فهي في النتائج المستفادة من البحث ، وبالله التوفيق .

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

شكر وتقدير :

بعد حمد الله تعالى على توفيقه والثناء عليه بما هو أهله ، أتوجه -من باب أداء الحق لأهله- بالشكر والعرفان الجم إلى الدكتور : عبد السميع بن عبد الباري الصائغ؛ الذي أشرف على رسالتي في بدايتها مكبراً فيه تواضعه الجم ، وجهده المبذول في مساعدتي على تثبيت قدمي على أرض صلبة ، بحسن توجيهه وصدق نصحه ، فجزاه الله عني خير ماجازى معلما عن تلميذه من حسن الجزاء والثواب .

ثم أتوجه بخالص الشكر والامتنان إلى الدكتور : سليمان الصادق البيرة المشرف على هذه الرسالة حتى نهايتها مكبرا فيه دماثة خلقه ونبل صفاته ، وسداد توجيهاته وخلوص نصائحه ، وحسن تربيته ، فله من الله تعالى خير الجزاء وجزيل الثواب وعظيم الأجر ، وله مني كل شكر وتقدير وتبجيل .

ثم أتقدم بالشكر إلى جامعتنا الحبيبة جامعة أم القرى التي تحمل هذا الاسم الحبيب إلى كل مسلم ، والتي رعت كثيراً من أبناء الإسلام تعليماً وتثقيفاً وإعداداً ، ممثلة في معالي مديرها السابق الأستاذ الدكتور : راشد الراجح ، ومعالي مديرها الحالي الدكتور : سهيل قاضي ، وإلى عمادة كلية الدعوة متمثلة في كل عميد مرّ عليها ، فجزاهم الله تعالى خيراً على مايبذلون من جهد لخدمة العلم وطلابه .

وإلى قسم الكتاب والسنة ورئيسه السابق والحالي وأعضاء القسم جميعاً .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع أساتذتي الكرام الذين درسوني العلم في مراحله المختلفة ، وإلى كل من مدّ لي يد العون في سبيل إنجاز هذا البحث ، فللجميع خالص التقدير والثناء والعرفان ، وجزاهم الله تعالى عني جميعاً خير الجزاء وأجزل مثوبتهم وعظّم أجورهم ، إنه سميع مجيب .

وفي الختام أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يتقبل مني ومن كل مسلم قليل العمل وكثيره ، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا وسرائرنا وظواهرنا خالصة له وحده دون شريك ، وأن يقيل عثراتنا ، ويتجاوز عن سيئاتنا ، وأن يغفر لنا ذنوبنا صغيرها وكبيرها .

ربنا ظلمنا أنفسنا ظلما كثيراً ، ولايغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لنا مغفرة من عندك ، وارحمنا ، إنك أنت الغفور الرحيم ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ،

وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله و على آله وصحبه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه ، واقتفى أثره إلى يوم الدين .

الفصل الأول :

في التعريفات .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : تعريف الكبر لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : في الفروقات .

المبحث الأول : تعريف الكبر لغة واصطلاحاً .

أولاً : معنى الكبر لغة :

من خلال النظر في قواميس اللغة العربية عند مادة [ك ب ر] وجدت أنها تدلّ على معنيين :

أحدهما : العَظَمَةُ والعُلُوّ .

وثانيهما : التقدُّم في السِّن وفي المرتبة ، وذلك على النحو التالي :

الكِبَرُ -بكسر الكاف وفتح الباء- : نقيض الصِّغَر ، تقول : كَبِرَ الرجل كفَرِح ، يكبَر كِبَراً كعنب ، ومَكْبِر كمنزل ، فهو كبير إذا طعن في السن[1] ، وكبار بالتخفيف وبالتشديد إذا أفرط[2] ، والجمع كُبَارٌ -بالضم ثم فتح الموحدة مع تخفيفها ، وكَبَّارون -بفتح الموحدة وتشديدها- والاسم : الكَبْره -بفتح الكاف وسكون الباء[3] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وأبونا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ [القصص:٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاَهُمَا**﴾ [الإسراء:٢٣] .

وكَبُر -بالضم- ككرُم ، فهو كبير يكبُر كِبَراً[4] .

والكبير في صفة الله تعالى العظيم الجليل ، ومن أسمائه المتكبر والكبير أي : العظيم ، وذو الكبرياء ، أي : صاحب العظمة والترفع عن الانقياد ، وذلك لايستحقه غير الله تبارك وتعالى[5] ، لأنه تعالى له المحامد كلها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّموَات والأَرْضِ، وَهُوَ العَزِيْزُ الحَكِيمُ**﴾ [الجاثية:٣٧] .

والتكبير : التعظيم ، وقول المؤذن : الله أكبر ، معناه : الله كبير ، فوضع أفعل بمعنى فعيل ، وقيل : معناه : الله أكبر من كل شيء ، أي : أعظَمُ؛ وقيل :

---

(١) تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٢) انظر : الصحاح ٨٠١/٢ .

(٣) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، والصحاح ٨٠١/٢ .

(٤) انظر : لسان العرب ٤٣٣/٦ ، تاج العروس ٥١٣/٣ ، الصحاح ٨٠١/٢ .

(٥) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢ .

معناه : الله أكبر من أن يعرف كنه كبريائه وعظمته[1] .

وكبير القوم معلمهم ورئيسهم[2] ومقدمهم[3] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُم السِّحْرَ**﴾ [طه:٧١] .

ويقال : ورِثوا المجدَ كَابراً عن كَابِر ، أي : عظيماً عن عظيم ، وكبيراً عن كبير في العز والشرف[4] .

واستكبر الشيء ، وأكْبَرَهُ وكَبَّرَه[5] : رآه كبيراً وعظيماً عنده[6] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَه وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾[يوسف:٣١] .

والكِبْر : بكسر الكاف وسكون الباء : العظمة والتجبر كالكبرياء[7] ، وهو في حق الله تعالى وفي صفاته مدح ، وفي وصف غيره ذم .

والكبر كذلك : الإثم الكبير من الكبيرة كالخطء من الخطيئة[8] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفَوَاحِشَ**﴾ [الشورى:٣٧] .

والكِبر كذلك : الرفعة والشرف ، ويضم الكاف أيضاً[9] .

والكبر أيضاً : معظم الشيء ، ويضم فيه الكاف أيضاً[10] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيم**﴾ [النور:١١] .

والتكبر والاستكبار : التعظم والامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً ، ومنه قوله تعالى : ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ**﴾ [يونس:٧٥] .

وقد تكبر واستكبر وتكابر ، وقيل : تكبّر مِن الكِبْرِ وتَكابر مِن السن[11] .

---

(١) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦ ، ٤٤١ .

(٢) انظر : تهذيب اللغة ٢١١/١٠ ، لسان العرب ٤٣٩/٦ .

(٣) انظر : تاج العروس ٥١٤/٣ ، المحكم ١٣/٥.

(٤) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦ ، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٤.

(٥) انظر : لسان العرب ٤٤٠/٦.

(٦) انظر : لسان العرب ٤٣٩/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٧) انظر : لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٨) انظر : تاج العروس ٥١٤/٣ .

(٩) انظر : لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

(١٠) انظر : المصدرين السابقين .

(١١) لسان العرب ٤٤٤/٦ ، تاج العروس ٥١٤/٣ .

ومن المعاني الأخرى لمادة [ك ب ر] :

أ - الكَبَر -بفتح الكاف والباء- : نبات له شوك[1] .

ب - الكَبْر -بفتح الكاف وسكون الباء- : طبل له وجه واحد[2] .

ومجمل القول في مادة [ك ب ر] أنها تدور حول المعنيين المذكورين أولاً : العظمة والعلو ، والتقدم في السن والمرتبة .

والمعنى الأول هو المراد بحثه في هذه الرسالة التي أستمد من الله تعالى العون والتوفيق لإتمامها على وجه حسن يرضيه ، سائلاً متضرعاً إليه أن يغفر لي برحمته ماوقع فيها من الزلل . وأن يعفو بمنّه عما اعتراها من كثير التقصير والخلل .

وخلاصة القول : إن موضوع رسالتي هذه هو : الكبر ، الذي يعني العظمة والعلو ، أي : إظهار عظم الشأن ، والذي هو في حق الله صفة مدح ، وفي حق عباده صفة ذم ، إلا في مواطن يأتي بيانها .

ثانياً : معنى الكبر في الاصطلاح :

يذكر الغزالي أن الكبر إما باطن وإما ظاهر ، فالباطن هو : خُلُقٌ في النفس ، وهو أصل الكبر ، والظاهر هو : ثمرة ذلك الخُلُق النفسي ، تظهر في أعمال الجوارح ؛ ولذا فإن اسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وبه أولى ؛ ولهذا يقال عن الإنسان : إذا لم يظهر أثر الكبر على جوارحه : في نفسه كبر ، فإذا ظهر أثر الكبر على جوارحه قيل عنه : تكبر أو متكبر[3] .

وقد فسّر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر جامعاً بين باطنه وظاهره ، فقال : « **الكِبْرُ : بَطَرُ الحَقِّ ، وغَمْطُ النَّاس** »[4] .

« **بطر الحق** » معناه : أن يجعل الحق باطلاً ، ويقال : أن يتكبر عن الحق

---

(١) انظر : المحكم ٥/١٣.

(٢) انظر : المحكم ٥/١٤ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٤ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١/٩٣.

فلايقبله[1] ، قال الإمام النووي[2] -رحمه الله- : « وأما بَطَر الحق فهو : دفعه وإنكاره ترفُّعاً وتجبراً »[3] .

وفي رواية « **سفه الحق** »[4] ، والمعنى : أنه لِتَكبُّرِه يرى الحق سَفَهاً وجهلاً فيردّه ولايقبله[5] .

و « **غمط الناس** » ، وفي رواية : « **غمص الناس** »[6] كلاهما بمعنى واحد ، أي : ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاصهم حتى لايراهم شيئاً[7] .

إذاً فقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **الكِبْرُ : بَطَرُ الحَقِّ ، وغَمْطُ النَّاس** » قد فسر الكبر بشقيه : باطنه وظاهره ، « ووجه الاستدلال على ذلك :

---

(١) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .

(٢) الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام محي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف النووي ، الشافعي ، ولد بنوى من قرى حوران سنة إحدى وثلاثين وستمائة ؛ نشأ على حب العلم والاجتهاد فيه حتى ذكر أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشائخه شرحاً وتصحيحاً ، سمع وحفظ الكثير من العلوم والكتب . واعتنى بالتصنيف فجمع شيئاً كثيراً ، منها ماأكمله ، ومنها مالم يكمله ، ومن ذلك : شرح مسلم ، الروضة ، رياض الصالحين ، المنهاج شرح المهذب ، الأذكار... ، برع في مختلف فنون العلم ، وباشر التدريس في مدارس عدة ، زاهد ورع عابد ، توفي حيث ولد سنة ست وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى .
انظر : البداية والنهاية ١٣/٢٩٤ .

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٩٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٠ عن عبد الله بن عمرو ، وفي رواية عن ابن مسعود : "**ولكن الكبر من سفه الحق وازدرى الناس**" ١/٣٩٩ وفي وراية عن أبي ريحانة وفيه : "**إنما الكبر من سفه الحق ، وغمص الناس بعينيه**" ٤/١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥١ .

(٥) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .

(٦) غمط ، غمص ، كلاهما بفتح المعجمه وإسكان الميم ، والأولى بالطاء المهملة ، والثانية : بالصاد المهملة ، والفعل منهما بفتح الميم وبكسرها كضرب وسمع . انظر : شرح النووي على مسلم ٢/٩٠ ، والقاموس المحيط ٨٠٦ ، ٨٧٨ ، ورواية غمص ، بالصاد المهملة ، هي عند الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٤/٣٦١ .

(٧) انظر : شرح السنة ١٣/١٦٥ - ١٦٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١/٢٠٣ .

أن دفع الحق وردّه مع العلم به فيه انحراف في الدين ، وهو من أعمال الباطن ؛ واحتقار الناس وانتقاصهم وإهانتهم بالقول والفعل فيه ابتعاد عن الأخلاق والآداب السلوكية ، وهي من أعمال الظاهر»[1] ، وبهذا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر الكبر باطنه وظاهر ، والله تعالى أعلم .

وهذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسلم للكبر قد أشارت إليه الآية الكريمة من سورة الأحقاف وهي قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾ [الأحقاف:١١] ، فالآية الكريمة تُبيِّن موقف الكافرين من الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقد جحدوه وسفّهوه ولم يقبلوه ، وسخروا ممن قَبِله واستنقصوهم وسَفَّهُوهم ، فقالوا : لو كان ماجاء محمد من القرآن والبينات حقا وخيراً لكنا نحن أحق بالسبق إليه من هؤلاء المستضعفين ، قالوا ذلك احتقاراً واستصغاراً لمن آمن ، وذلك عندما اعتقدوا في أنفسهم أن لهم عند الله وجاهة ، وله بهم عناية[2] ، ثم إنهم يقولون عن القرآن حين لم يؤمنوا ولم يهتدوا به : « **هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** » ، أي : كذب مأثور عن الأقدمين[3] ومأخوذ منهم ، فقولهم هذا وردّهم الحق وتسفيهه وأهله هو عين مافسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلق الكبر .

وليست هذه الآية الكريمة هي الوحيدة التي تشير إلى هذا المعنى ، بل إنك ستلاحظ من خلال النصوص القرآنية الواردة في شأن التكبر -كما سيأتي- أنها تؤكد على إبراز هاتين العلامتين البارزتين في صفات وسلوكيات المتكبرين (بطر الحق وغمط الناس) ؛ لأن الغالب على كل متكبر أن يتلبس بهما .

ولا عجب أن يكون هذان الخلقان هما الأبرز والأظهر في أخلاق المتكبرين ، وأن تُعنى النصوص الشرعية ببيانهما فإنهما أساس كل باطل وأصل كل انحراف واعوجاج ، ومنهما تنشأ وتتولد سائر الأخلاق والصفات

---

(١) الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ١/٩٣.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٦٨.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٤/١٦٨.

السيئة المرذولة ؛ ولهذا كان الكبر حجاباً من الجنة وطريقاً إلى النار ، كما سيأتي بيانه بإذن ومشيئة الحق سبحانه وتعالى .

تعريف العلماء للكبر :

ماسأذكره هنا من أقوال أهل العلم في بيان الكبر كله يدور حول ماتضمنته النصوص القرآنية من الإشارة إلى معنى الكبر ، وذلك بذكرها المعلمين البارزين في سلوك المتكبرين الذين بينهما الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « **الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاس** » .

فتعتبر تلك الأقوال مستنبطة ومستقاة من هذا القول النبوي الكريم .

التعاريف :

١ - عرفه الإمام أبوهلال العسكري[١] بأنه : « إظهار عظم الشأن »[٢] .

٢ - وعرفه الإمام الراغب[٣] بأنه : « الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره »[٤] .

٣ - وعرفه الإمام الغزالي أبوحامد[٥] بأنه : « الاسترواح والركون إلى

---

(١) الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ؛ وصف بالعلم والفقه ؛ وغلب عليه الأدب والشعر ؛ من مؤلفاته : « التلخيص » في اللغة ، « الصناعتين » صناعتي النظم والنثر ؛ « ديوان المعاني » وغيرها . ذكر أنه توفي عام ٣٩٥هـ .
انظر : الأعلام ، للزركلي ١٩٦/٢ ؛ الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص٥٥ .

(٢) الفروق اللُّغوية ٢٠٤.

(٣) العلامة المحقق الماهر ، أبوالقاسم ، الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني ، من أذكياء المتكلمين ، من تصانيفه « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، « محاضرات الأدباء » ، « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » ، اختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة ٤٠٢ ، وقيل : ٥٥٢ .
انظر : سير أعلام النبلاء ١٢٠/١٨ مع الهوامش رقم ١ ، ٢ ، ١٢١/١٨ .

(٤) المفردات في ألفاظ القرآن ٤٢٢.

(٥) حجة الإسلام الإمام البحر محمد بن محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط ، برع في الفقه والكلام والجدل ، ولي تدريس النظامية ببغداد . من تصانيفه : « المستصفى » في الأصول ، « الوجيز » ، « تهافت الفلاسفة » .
<=

رؤية النفس فوق المتكبر عليه»[1] .

وعرّفه غير هؤلاء بأنه : العزةُ التي يترتب عليها آثار تضر بالأفراد والمجتمع»[2] .

حول التعاريف :

مما سبق يتبين لنا مايلي :

أولاً : أن الأصل في الكبر هو : خلق النفس ، وهو حركة نفسية وهزة قلبية تثمر أعمالاً في السلوك الظاهر تسمى تكبراً ، ومعنى أن الكبر حركة نفسية ، أي : أن النفس عند رؤيتها لذاتها بعين الاستعظام يحدث لديها حركة وهزة واعتداد ، ثم ركون إلى هذه الرؤية ، فإذا ركنت إليها كبرت وانتفخت وتعظمت وتعززت[3] ، فإذا حصل لها ذلك ردّت الحق وسفّهته ، واحتقرت الناس وصغّرتهم ؛ وهذا ماتترجمه أقوال وأعمال الجوارح ، فكما نعلم أن الإنسان نفس وعقل وجسم ، فالنفس والعقل متبوعان ، والجسم تابع لهما ، والنفس أمارة بالسوء ، والعقل موجِّه وقائدٌ وكابح ، فإذا ما غفل العقل وركن إلى النفس وأسلم لها القياد قادته إلى مالايحمد عقباه ، وإذا ما ظل متيقّظاً منتبهاً لكل حركة منها ، هذّبها ووجّهها وكبح جماحها ، وعندئذ يسلم من غوائلها .

ولما كان العقل بهذه المنزلة ، وكان محل الإدراك والفهم والتميز ، جعله الله مناط التكليف ، فإذا فقد العقل فلاتكليف ، وإن كانت النفس موجودة ، ومن هنا امتدح الله تعالى أصحاب العقول السليمة ، وبيّن أنهم هم الذين يفهمون آياته ويعقلونها ، ويتدبّرون ويتفكرون فيها[4] ، فقال تعالى : ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم:٢١] ، وقال تعالى : ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ**

=

ولد عام ٤٥٠هـ ، وتوفي عام٥٠٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٩/٣٢٢ــ٣٤٦ ، الأعلام للزركلي٧/٢٢ .

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٤٤.

(٢) الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ١/٩٣ .

(٣) انظر:إحياء علوم الدين ٤/١٤٤ ، ١٥٠.

(٤) مستفاد من توجيهات الدكتور سليمان الصادق .

أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَايَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وخلاصة القول أن الجسم ماهو إلا منفِّذٌ لرغبات النفس وأوامر العقل، ليس له غير ذلك، فالنفس تريد التعظُّم وترغب في الاستعلاء، والعقل إما أن يُهَذِّبَها ويكبح جماحها فتقف عند حدّها ولاتطلب ما ليس لها، وإما أن يتركها أو يغفل عنها ويهمل تهذيبها، فتتمادى في طغيانها وانتفاخها حتى يظهر أثر ذلك على الجسم تكبُّراً وغَطرسة وانتفاشاً بغير حق.

ومما يدل على أن الكبر أصله في القلب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٦]، وفي معناها يقول ابن عباس[1] رضي الله عنهما: مايحملهم على تكذيبك إلا مافي صدورهم من الكبر والعظمة[2].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [الفرقان:٢١].

فالآيتان الكريمتان فيهما: أن سبب مايحصل من المشركين من المجادلة في آيات الله تعالى وعدم الإيمان بها، وعدم تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بها وطلبهم لتصديقه أن تنزل عليهم الملائكة تخبرهم بصدقه أو يرون ربهم تبارك وتعالى جهرة يخبرهم بذلك، سبب هذا الفعل والقول القبيح هو ماوقر في صدورهم ونفوسهم من الكبر والعتو الكبير.

---

(١) ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب، ترجمان القرآن وحبر الأمة، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصحّ، عُدّ من المكثرين لرواية الحديث، كان في العلم أمة وحده، له في كل يوم درس في فن من فنونه، الحديث والفقه والتأويل والحساب والعربية، ولي البصرة لعلي رضي الله عنه ثم فارقها، توفي بالطائف سنة ثمانية وستين من الهجرة، رضي الله عنه وأرضاه.
انظر ترجمته في أسد الغابة ١٩٣/٣، والإصابة ٩٠/٤، والحديث والمحدثون، لأبي زهو ص١٣٩.

(٢) ذكره الخازن في تفسيره ٩٨/٦.

ومما يدل كذلك على أن الكبر أصله في القلب قوله الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥] ، على قراءة التنوين[1] في (قلب) على أن التكبر صفة للقلب .

« وإنما وصف القلب بالتجبر والتكبر ؛ لأنه منبعهما »[2] .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « **لايَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** »[3] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « **مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَو اخْتَالَ فِي مشيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ** »[4] .

وقد قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي لأُحِبُّ الجَمَالَ ، حتَّى لأُحِبّه في شِرَاكِ نَعْلي ، وعَلاَقَةِ سِوْطِي ، فهل تخشى عليَّ الكبر؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟** » قال : عارفاً للحق ، مُطمئنا

---

(١) قراءة أبي عمرو وابن ذكوان . انظر : النشر في القراءات العشر ٣٦٥/٢ .

(٢) انظر : السراج المنير ٤١٣/٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه عن ابن مسعود ، وفي رواية « لايدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » ٩٣/١ ، وأخرجه غيره من أهل السنن بألفاظ متقاربة .
انظر : سنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ ، وسنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٣٦٠/٤ ، ٣٦١ ، وسنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب في الإيمان ٣٥/١ ، كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ٥٥٧/٢ ، مسند الإمام أحمد ٣٩٩/١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر رض الله عنهما ١١٨/٢ ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » ٩٨/١ ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ونسبه لأحمد والأدب المفرد ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ، وقال : رواه الطبراني في الكبير واللفظ له ورواته محتج بهم في الصحيح والحاكم بنحوه ، وقال : « صحيح على شرط مسلم » . انظر : الترغيب ٥٦٩/٣ ، قلت : قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، وقال الذهبي : على شرط مسلم .
انظر : المستدرك ، كتاب الإيمان ٦٠/١ .

إليـه ، فقـال النبـي صلـى الله عليـه وسـلم : « **لَيـسَ الكِبْرُ هُنَـالك ، وَلَكِنَّ الكِـبْرَ أَنْ تغمـط النَّـاسَ ، وَتبطـر الحـق** »[1] .

فمـن هـذه الأحـاديث وأمثالهـا يسـتفاد أن الأصـل فـي الكـبر هـو : خُلُـق النفـس ، فلايُتصـور أن يظهـر الكـبر علـى الجـوارح دون أن يكـون فـي النفـس منـه شيء ، ولكـن قـد يحصـل العكـس ، أي : قـد يتعـظّم الإنسـان في نفسـه ولايظهـر أثـر ذلـك علـى جوارحـه ، وذلـك حيـن يجـاهد نفسـه فلايوافـق هواهـا ، ويغالبهـا فلايحقق لهـا رغبتهـا وشـهوتها تلـك؛ وليـس كـل أحـد يسـتطيع ذلـك ، فـالأمر شـاق وعصيـب يحتـاج إلـى قـوة إيمـان وصـدق عزيمـة وعظيـم صـبر ، والموفـق مـن ثبتـه الله تعالى وأمده بعـونه ونجـاه من غوائـل نفسـه وسـلمه من شـرورها .

وقـد لاتكـون المجـاهدة والمغالبـة هـي السـبب فـي عـدم ظهـور أثـر الكبر علـى الجـوارح ، إذ رُبمـا يجبـن الـذي فـي نفسـه كـبر عـن إبـراز كـبره لأجـل وجوده في بيئة لاتمكنـه مـن ذلـك بـأي وسـيلة مـن الوسـائل .

ثانياً : عنـاصر الكـبر ثلاثـة :

عناصر الكـبر ثلاثـة :

١ - مُتَكَـبِّرٌ -بكسـر البـاء ، وهـو المتخلـق بخُلـق الكـبر .

٢ - ومتكبَّرٌ عليه ، وهـو مـن وقـع عليـه أثـر الكـبر .

٣ - ومُتَكَـبَّرٌ بـه ، وهـو السـبب الداعـي للكِـبْرِ ، مـن : عِلـم ، أوعمـل ، أوجـاه ، أومـال ، أوحسَـب ، أونسـب ، أوقـوة ، أوجمـال ، كمـا سـيأتي تفصيلـه في موضعه بـإذن الله تعـالى .

هـذا هـو الأصـل في خُلُق الكـبر ، وقـد تَشُـذُّ حالـة مـن حالاتـه فيفتقـد فيهـا أحـد عنـاصر الكـبر المذكـورة ، كـأن يفتقـد السـبب الداعـي لـه مثـلاً ، ومثـال ذلـك ماجـاء فـي صحيـح مسـلم[2] عـن أبـي هريـرة[3] رضـي الله عنـه أن رسـول الله صلـى

---

(١) الحديـث فـي مصنـف الصنعـاني ، قـال : أخبرنـا عبدالـرزاق عـن معمـر عـن قتـادة أن رجـلاً قـال للنبـي صلـى الله عليـه وسـلم ، وذكـر الحديـث . انظـر : المصنـف ٢٦٨/١١ . والحديث ضعيف .

(٢) الإمـام الحـافظ الثبـت الحجـة الصـادق أبوالحسـين مسـلم بـن الحجـاج بـن مسـلم القشـيري النيسـابوري ، ولـد سـنة أربـع ومـائتين ، سـمع بمكـة والكوفـة والعـراق ومصـر ، شيوخه وتلامذتـه كثير ، مجمـع علـى جلالتـه وإمامتـه وعلـو مرتبتـه وحذقـه فـي صنعـة الحديـث ، ورع عـابد ، مـن تصانيفـه : الصحيـح ، الكتـاب المسـند الكبـير علـى أسـماء <=

الله عليه وسلم قال : « **ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ** »[1] ، وفي حديث آخر عند النسائي[2] : « **ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ وَالإِمَامُ الْكَذَّابُ** »[3] ، وفي حديث آخر عند النسائي كذلك : « **أربعة يبغضهم الله : البيّاعُ الحلاّف ، والفقير المُختال ،**

الرجال ، العلل ، أوهام المحدثين ، وسواها . توفي في رجب سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور عن بضع وخمسين سنة .

انظر : سير أعلام النبلاء ١٢/٥٥٧ .

(٣) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثر الصحابة رواية لحديثه ، الإمام الفقيه المجتهد ، الحافظ ، عبدالرحمن بن صخر الدوسي -على الأرجح- حدث عن أُبي وأبي بكر وعمر وعائشة وأسامة رضي الله عنهم وغيرهم ، وحدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين ، أسلم عام خيبر سنة سبع ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمه أن يحببهما إلى المؤمنين ويحببهم إليهما . استعمله عمر رضي الله عنه على البحرين فما عرف عنه إلا التواضع ، وتذكر حاله الأولى رضي الله عنه وأرضاه . توفي عام سبع وخمسين ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع . والله أعلم .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢/٥٧٨ .

(١) صحيح مسلم في ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم إسبال الإزار ١/١٠٣.

(٢) الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام ناقد الحديث أبوعبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي ، ولد بنسا عام٢١٥هـ ، وطلب العلم في صغره ، سمع من خلق كثير ، كان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف . جال في طلب العلم في خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور ، رحل إليه الحفاظ ، شافعي المذهب ، ورع متحرّي مجتهد في العبادة ، شهم ، يقيم السنن المأثورة ويحترز عن مجالس السلطان والانبساط في الأكل . توفي بفلسطين لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاث مائة ، من تصانيفه السنن ومسند علي والضعفاء وغير ذلك .

انظر : سير أعلام النبلاء ١٤/١٢٥ .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٥/٨٦.

والشيخ الزاني ، والإمام الجائر»[1] .

إنك حين تبحث عن السبب الداعي للكبر هاهنا لن تجده ، فالمتكبر في هذه الحالة فقير معدم ، وذو عيال لايملك من حطام الدنيا مايُطغيه ، فبمَ يتكبر؟ فهو إذاً متكلف للكبر ، وذلك يدلّ على طغيان نفسي عظيم ، لذا كان الكبر عظيما ، وهو ممن فقد أسبابه أعظم وأشنع .

قال الإمام النووي -عليه رحمة الله- عند شرح حديث مسلم : « وأما تخصيصه صلى الله عليه وسلم : الشيخ الزاني ، والملك الكذاب ، والعائل المستكبر ، بالوعيد المذكور ، فقال القاضي عياض[2] : سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده ، وإن كان لايعذر أحد بذنب ، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة ولادواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى ، وقصد معصيته لالحاجه غيرها ، فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول مامر عليه من الزمان ، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء ، واختلال دواعيه لذلك عنده مايُريحه من دواعي الحلال في هذا ، ويخلي سرّه منه ، فكيف بالزنا الحرام ، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة ، وغلبة الشهوة ، لضعف العقل وصغر السن ، وكذلك الإمام لايخشى من أحد من رعيته ، ولايحتاج إلى مداهنته ومصانعته ،

---

(١) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٨٦/٥.

(٢) هو : أبوالفضل بن موسى بن عمرو بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي ، ولد سنة ٤٧٦ ، إمام الحديث في وقته ، وأعرف الناس بعلومه ، وبالنحو واللغة ، وكلام العرب ، وأنسابهم وأيامهم .

ولي قضاء سبته ثم غرناطة ، له من التصانيف البديعة الشيء الكثير ، منها : الشفا في شرف المصطفى ، والإكمال في شرح صحيح مسلم ، ومشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث ، وغيرها .

توفي ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة ، ودفن بمراكش سنة ٥٠٤هـ .

انظر : سير أعلام النبلاء ٢١٦/٢٠ ـــ ٢١٨ .

فإن الإنسان إنما يُداهن ويُصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته ، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة ، وهو غني عن الكذب مطلقا؛ وكذلك العائل الفقير قد عدم المال ، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء : الثروة في الدنيا[1] ، لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه ، فإذا لم يكن عنده أسبابها ، فلماذا يستكبر ويحتقر غيره؟ ، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني ، والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق الله تعالى[2] ، والله أعلم».ا.هـ[3] .

وقد يوجد المتكبِّر ، والمتكبَّر به ، ولكن يفقد المتكبَّر عليه ، وذلك عندما يبقى الكبر خلقا باطنيا لايظهر أثره على سلوك صاحبه الظاهري ، بمعنى أنه قد يستعظم نفسه ، ولايحتقر غيره أو يزدريه ، وحينئذ يقال عنه : في نفسه كبر ، ولايقال : متكبر ، لأن التكبر إظهار عِظم الشأن[4] ، وذلك يستدعي متكبراً عليه ، والله أعلم .

ثالثاً :

أ - لابد في تصوير حقيقة الكبر من وجود متكبَّر عليه ، إذ لايوصف الإنسان أو يُتَصَوَّر أن يتكبر إلا مع وجود غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفة من الصفات[5] التي لاتكون صفات كمال على الإطلاق -كما يظن المتكبر- بل لابد من اقترانها بالتقوى ، وبدونها لاوزن لها عند الله تعالى ، بل تظل قيماً أرضية هابطة لايلتفت إليها المؤمن ولايلقي لها بالاً .

ب - ولايكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه بعين الاستعظام ، ليوصف بأنه متكبر ، فإنه مع ذلك قد يرى أن غيره أعظم منه ، أو قد يراه مساوياً له ، فلايتكبر عليه[6] .

---

(١) الثروة ليست سبباً وحيداً في الخيلاء والتكبر ، وإنما هناك أسباب أخرى ستعرفها في مكانها إن شاء الله تعالى .

(٢) وهذا غاية الطغيان .

(٣) شرح النووي على مسلم ١٧/٢.

(٤) انظر : الفروق اللغوية ١٠٤.

(٥) انظر : الإحياء ١٤٤/٤ .

(٦) انظر : الإحياء ١٤٤/٤.

إذاً متى يوصف الإنسان بأنه متكبِّر؟

قال الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- : ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل خُلق الكِبر؛ فهذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسببه ، فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هو : خُلق الكِبر ، فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز ، فالكبر عبارة عن : الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضاً عزة وتعظما.*

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما : الكبر بتلك العظمة عند قوله تعالى : ﴿ **إِنْ فِي صُدُورِهِم إِلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ** ﴾ [غافر:٥٦] كما سبق ذكر ذلك .

وما من شك أن تلك النفخة التي ينتفخها المتكبر هي من الشيطان الرجيم ، والتي كانت سببا في استكباره عن أمر الله له بالسجود لآدم عليه السلام ، وقال : أنا خير منه ، فلُعن إلى يوم الدين .

إن الشيطان ينفخ في نفس الإنسان ليعظمها له ، ويصغر الناس في عينيه ، ومن ثم يدخله في الكبر ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه[1] ، قيل : نفثه الشِّعر ، ونفخه الكبر ، وهمزه الموتة[2] .

وتلك النفخة الشيطانية هي التي خشيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ذلك الرجل الذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح ، فقال له : أخشى أن

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب مايستفتح به الصلاة من الدعاء ١/١٧٦ ، عن جبير بن مطعم ، وسنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري ، كتاب الصلاة ، باب مايقول عند افتتاح الصلاة ، وسنن ابن ماجة ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب الاستعاذة في الصلاة ١/٢٦٥ عن جبير ، وعنه كذلك أخرجه الإمام أحمد ، كما أخرجه عن ابن مسعود ، وأبي أمامة الباهلي ، وفيه "وشركه" بدل "ونفثه" . المسند ٥/٢٥٣ ، والحديث في صحيح ابن حبان عن جبير .

(٢) أي الجنون ، وإنما سماه همزا ، لأنه جعله من النخس والغمز ، وكل شيء دفعته فقد غمزته . انظر : غريب الحديث ، لأبي عبيد ٣/٧ .

* انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٤.

تنتفخ حتى تبلغ الثريا(١) ، أي : أخشى أن ينفخ الشيطان في نفسك حين ترى الناس وقد التفوا حولك يطلبون ماعندك فتستعظمها حتى تبلغ من الكبر درجة عالية .

فالكِبر إذاً نفخة شيطانية تطمس البصيرة ، وتحجب عنها نور المعرفة ، فلاتميز بين الحق والباطل ، فينبغي الحذر منها كل الحذر ، والبعد عنها غاية البعد ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر:٦] ، وينبغي التمسك بخلق التواضع ، خلق عباد الله المتقين من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، ومن اهتدى بهديهم من الصالحين الربانيين ، ففي ذلك عزّ وسعادة في الدنيا والدين .

رابعاً : يترتب على الكبر أمران هما أبرز مظاهره في السلوك وأصل كل بلية من بلاياه :

الأمر الأول الذي يترتب عليه هو : ردّ الحق ، مع العلم به ، سواء أكان هذا الحق من حقوق الله جل جلاله ، أومن حقوق عباده ، كما قال تعالى عن المكذبين بآياته : ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُوّاً ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل:١٤] ، فلايرد الحق ويدفعه ويراه باطلا إلا متكبر عظمت نفسه عنده فانتفش وانتفخ حتى رأى أنه أعلى من الحق ، وأرفع من الإذعان له ، كما هوالحال من إبليس -لعنه الله- الذي رأى أنه أعلى من آدم عليه السلام وأفضل ، فأبى أمر الحق سبحانه وتعالى بالسجود وقال باستعلاء وتعظم : ﴿**أنا خيرٌ منه**﴾ [ص:٧٦]، وكما هو الحال من جنود إبليس وحزبه الملأ المستكبرين من كل أمة من الأمم الذين لم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به رسل الله تعالى من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ، وقادهم كبرهم إلى دفعه ورده وتسفيهه ، بل ومحاربته ومقاتلة أهله ومناصبتهم العداء ، وذلك غير خاف يلخصه ويبينه قول الله تعالى : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾[سبأ:٣٤] ، وقوله تعالى : ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا**

(١) انظر : الإحياء ٤/١٥٠.

آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الزخرف:٢٣،٢٥] .

وكما هو حال كثير من المتناظرين في مسائل العلم والدين الذين لايهمهم إظهار الحق وإحقاقه بقدر مايهمهم إظهار أنفسهم، فتراهم لايقبلون الحق، بل يسفهونه، ويدفعون في وجهه بعد أن تبين لهم أنه الحق، وفي المقابل يصرون على باطلهم، وينصرونه استعلاءً وتعظماً به، وإن تيقنوا أنه باطل، يخشون أن ينقص رجوعهم إلى الحق من مكانتهم وأقدارهم، وخابوا وخسروا، فمتى كان الرجوع إلى الحق وترك الباطل منقصة ؟! بل هو العلو بذاته والرفعة والعزة بعينها ولكن القوم قد أعمى الكبر بصائرهم، وران على أفئدتهم فهم لايفقهون .

أما الأمر الثاني الذي يترتب على الكبر فهو : احتقار الناس، وازدراؤهم، والانتقاص من أقدارهم، وإهانتهم بالقول والفعل، فلا يفعل ذلك ولايصدر إلا ممن قد عشعش الكبر في نفسه فهو يرى أنه خير ممن احتقره وازدراه.

ألا ترى أنّ قائد المتكبرين وقدوتهم إبليس الرجيم، رأى أنه أكرم من آدم عليه السلام وأفضل، فقال معظماً نفسه مفتخراً بأصل خلقته محتقراً آدم عليه السلام وما خلق منه : ﴿قَالَ : أَنَا خَيرٌ منه، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[ص:٧٦]، وقال مشيراً باحتقار إلى آدم عليه السلام: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[الإسراء:٦١]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيّ﴾[الإسراء:٦٢] .

ثم ألا ترى إلى ورثة إبليس في كبره وتعاليه على مر الزمن يغمزون المؤمنين ويسخرون منهم ويحقرونهم مستعلين متطاولين عليهم؟!

هاهم الملأ المستكبرون من قوم نوح عليه السلام يسخرون من المؤمنين ويحقرونهم ويقولون له : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء:١١١]، ويقولون أيضاً: ﴿مَا نَرَاكَ إلاّ بَشَراً مِثْلَنَا، وَمَانَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ، وَمَانَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧] .

وهاهم قوم صالح يحذون حذو أسلافهم قوم نوح فيسخر المتكبرون منهم بالمؤمنين من المستضعفين، ويؤثرون الكفر أنفَةً أن يتساووْا بالإيمان مع

المستضعفين، يظهر ذلك جليا في الحوار الذي دار بين المستكبرين والمستضعفين وسجله القرآن الكريم عليهم، قال تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُون. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [الأعراف:٧٥،٧٦]، أليست هذه مقولة تنفث كِبراً وغُروراً؟ بلى.

وهاهم كفار قريش أَنِفُوا من الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوا حوله الضعفاء وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم عنه ليجلسوا هم إليه[1]، وقالوا بكل كبر وغطرسة على المؤمنين وبكل حقرية لهم: ﴿**لَوْ كَانَ خَيراً مَاسَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ [الأحقاف:١١]، قالوا ذلك بظنهم الكاذب وزعمهم الباطل أنهم هم أولى بالسبق إلى الخيرات والفضائل وأحق بها، لأنهم السادة العظماء أولوا الجاه والثراء، وذووا الحسب والنسب والوجاهة، فإذا سبق إليها غيرهم من الضعفاء فليس هي خيرات ولافضائل، وهم الذين يقولون كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾ [الأنعام:٥٣]، وما قالوا ذلك إلا استكباراً وتعظماً عليهم وحقرية لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام:٥٣]، أي: هو سبحانه وتعالى أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم،

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لايجترؤن علينا...الحديث.

انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٤/١٨٧٨. والحديث عند ابن ماجه بلفظ: قال: نزلت هذه الآية فينا ستة: فيَّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال. قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لانرضى أن نكون أتباعاً لهم، فاطردهم عنك، قال: فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ماشاء الله أن يدخل، فأنزل الله عزوجل: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ**﴾[الأنعام:٥٢].

انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء ٢/٥٤٥.

فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم[1]، وذلك أن ميزانه العدل الذي يزن به عباده ويفضل به بعضهم على بعض عنده تبارك وتعالى لايكون بالحَسَب والنسب والوجاهة والسيادة ولاباللون والجنس، إنما يكون بالتقوى لابغيرها، وفي الحديث: «**إن الله لاينظر إلى صوركم، وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن احتقار الناس والهزء بهم وإهانتهم وانتقاص أقدارهم هو ميراث إبليس اللعين يتوارثه المتكبرون على شاكلته في كل زمان، ولعل حال متكبري زماننا خير شاهد على ذلك، فانظر إليهم تراهم كذلك.

انظر إلى متكبر بعلمه، تراه في غاية الحقرية لغيره من طلبة العلم، أو من العامة، وانظر إلى متكبر بماله، تراه في غاية الاسترذال للفقراء والمساكين، وانظر إلى متكبر بجنسه أو بلونه، تراه ينبز غيره بأجناسهم وألوانهم حقرية واستنقاصاً لهم، وانظر إلى متكبر بجاهه وسلطانه، تراه لايقيم لغيره من الناس وزناً ولايرى لهم قدراً.

انظر إلى كل متكبر بأي صورة من صور الكبر، تراه دائم الغمز واللمز والسخرية بغيره، لأنه لايراهم شيئاً، ويرى ويحسب نفسه شيئاً.

انظر إلى كل ذلك واستعذ بالله أن تكون منهم أو أن يلحقك أذاهم أو يؤذيك نتنهم، وكن باستعاذتك مؤتمراً بأمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قال له: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [غافر:٥٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١٤٠/٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ١٩٨٧/٤.

المبحث الثاني : في الفروقات .

بالنظر إلى معاني ألفاظ ورد ذكرها في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة تبين أن بينها وبين لفظة الكبر ترادف أو تقارب ، فكان من المناسب والمهم أن تُبحث تلك الألفاظ بشكل موجز يتبين من خلاله صلتها بالكبر وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما إن وجدت .

وتلك الألفاظ المشار إليها والمقصودة بهذا المبحث هي :

الاستكبار ، الاستنكاف ، الأشر ، الأنفة ، البذخ ، البطر ، البغي ، التبختر ، التجبر ، التطاول ، التكبر ، التمطي ، الحميّة ، الخيلاء ، الزهو ، الصَّعر ، الطغيان ، العُتُوّ ، العُجْب ، العدوان ، العزة ، العظمة ، العُلُو ، الفخر ، الفرح ، المدح .

وبإذن الله تعالى سأذكر هذه الألفاظ مرتبة أبجدياً إلا مابدا لي مناسبة ذكره في مقام يقتضي تقديمه أو تأخيره ، فإن وفقت في مَنْحَاي فذلك محض فضل الله تعالى وتوفيقه ، وإن أخطأت فتلك هي طبيعة البشر الضعفاء الخطائين ، والله تعالى هو المرجو أن يغفر ويستر .

الاستكبار والاستنكاف والتكبر والكبر :

تدلّ هذه الألفاظ جميعها على معنى التعظّم والاستعلاء ، غير أن لفظة الكبر تبدو أقرب إلى وصف حركة النفس ، أي : الكبر الباطن ، بينما لفظة التكبر هي أقرب إلى الخُلُق الظاهر على الجوارح ، وهو أثر الكبر الباطن[1] .

وقد عرّف أبوهلال العَسكري الكبرَ بأنه : إظهار عظم الشأن ، والتكبر بأنه : إظهار الكبر[2] .

أما الاستكبار فهي لفظة تدلّ على الطلب ، أي : يطلب الإنسان أن يكون كبيراً ، وهذا الطلب قد يكون بوسائل محسوسة كالجدّ في طلب العلوم ، أو التعلق بالمظاهر الدنيوية من المال والجاه والحسَب وغيرها ، وقد يكون بوسائل غير محسوسة كالرياء والعُجب والحسد والنفاق...وغيرها .

وذكر أن الاستكبار هو : شدة الكبر ، وأن السين والتاء فيه للعد

(١) انظر : مبحث تعريف الكبر في الاصطلاح ، وكلام الغزالي في ذلك .

(٢) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٤ .

والحسبان ، فمعنى : استكبر : عد نفسه كبيراً ، أي : عظيماً ، وماهو به . أو تكون السين والتاء فيه للمبالغة . فمعنى : استكبر : اتصف بالكبر[1] .

والاستنكاف كالاستكبار يدل على الطلب ، غير أن في الاستنكاف معنى الأنفة ، وقد يكون الاستكبار طلب من غير أنفة[2] ، فالاستنكاف أشد من الاستكبار ، وهو : التكبر والامتناع بأنفة[3] .

ويذكر الإمام الأصفهاني أن هذه الألفاظ تتقارب معانيها ، ثم يفصِّل ويقول : « فالكبر هو الحالة التي يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره »[4] .

وهذا ما أشرتُ إليه آنفاً من أن لفظة الكبر تخصّ ما في النفس منه خاصة عند اجتماعها مع لفظة التكبر ولفظة الاستكبار ، أما عند الافتراق فكل واحدة تدل على الأخرى .

ثم ذكر الأصفهاني أن الاستكبار يكون على وجهين :

أحدهما : تحرّي الإنسان وطلبه أن يصير كبيراً ، وهذا أمر محمود متى كان على مايجب ، وفي المكان الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب[5] .

أقول : وهذا هو الطلب بالوسائل المحسوسة ، ومعناه : أن الإنسان قد يسعى ويجتهد ويعمل ويثابر لينال منزلة عالية ومكانة مرموقة في مجتمعه وبين أقرانه ، وهو أمر لاشيء فيه ، بل هو من باب التنافس الشريف المحمود الذي يعود على المجتمع والأمة بالخير والنماء شريطة أن يسعى لنيل تلك المكانة العالية من وجهها الصحيح ، وبالوسائل الصحيحة ، وبالطرق المستقيمة ،

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ١/القسم الثاني ص٤٢٤ ، ٨/١١١.

(٢) انظر : الفروق اللغوية ص٢٠٦.

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٦/٥٩.

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢١.

(٥) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص٤٢١ .

ليكون أهلاً لها بحق ، لا أن يسعى لنيلها بالأساليب والطرق الملتوية بغية الوصول إلى شيء لايستحقه وليس له بأهل ، ثم بعد ذلك عليه أن يحذر غاية الحذر حين يتبوأ تلك المنزلة الرفيعة من أن تؤدّي به إلى خُلُق الكبر المذموم ، الذي نتيجته بطر الحق وغمط الناس ، فتلك هي بداية النهاية وبداية السقوط إلى أسفل دركات الذل والمهانة .

قال الأصفهاني : والثاني : -أي : الوجه الثاني للاستكبار- أن يتشبع فيظهر من نفسه ماليس له ، وهذا هو المذموم[1] .

وهذا الذي ذكر الأصفهاني يأتي على صورتين :

الأولى : أن يتكلف الكبر تكلُّفاً ، فيُبدي من نفسه وينسب لها مكانة هو أدرى أنه ليس من أهلها -أي : بمعنى أوضح : يتكبر حين يفقد دواعي التكبر .

الثانية : أن يرى نفسه أكبر من غيره بما ملك من زينة الدنيا ، كالجاه ، والمال ، والولد ، والقوة ، والحسب ، والجمال وغيرها ، أي : يتكبر بهذه الأمور ظناً منه أنه بها يعلو ويسمو .

وكأمثلة على الصورة الأولى نذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إيَّاكُم والغُلُوَّ والزَّهْو ، فإنّ بني إسرائيل قد غلا كثير منهم ، حتى كانت المرأة القصيرة تتخذ خفين من خشب ، تَحْشُوهما ثم تولج فيهما رجليها ، ثم تَعْمَد إلى جنب المرأة الطويلة فتمشي معها ، فإذا هي قد ساوت بها أو كانت أطول منها** »[2] .

ومن هذه الصورة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أربعة يبغضهم الله : البيّاعُ الحلاّف ، والفقير المُختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر** »[3] .

ومنها حديث : « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** »[4] .

---

(١) انظر : المصدر السابق .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ٣٢٢/٧ (ح٧٠٩٤) .

(٣) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب الفقير المختال ٨٦/٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار
<=

قوله : المتشبع ، أي : المتزين بما ليس عنده أو بأكثر مما عنده ، يتكثر بذلك عند الناس ، ويتزين بالباطل ، كالمرأة تكون للرجل ولها ضرة فتتشبع بما تدعي من الحظوة عند زوجها[1] ، تريد بذلك غيظ صاحبتها وإدخال الأذى عليها ، وكذلك هذا في الرجال أيضاً.

وأما قوله : « **كلابس ثوبي زور** » ، فإنه الرجل يلبس الثياب تشبه ثياب أهل الزهد في الدنيا ، يريد بذلك الناس ، أي : يريد أن يظهر لهم أنه متصف بتلك الصفة وليس كذلك ، ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه من ذلك ، فهذه ثياب زور ورياء[2] .

قال النووي : "وقيل : هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له ، وقيل : هو من يلبس قميصاً واحداً ، ويصل بكميه كمين أخرين ، فيظهر أن عليه قميصين ، وحُكِيَ[3] : أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب ، والعرب تكني بالثوب عن حالة لابسه ، ومعناه : أنه كالكاذب القائل مالم يكن ، وقولاً آخر : أن المراد الرجل الذي تطلب منه شهادة زور فيلبس ثوبين يتجمل بهما فلا ترد شهادته لحسن هيئته ، والله أعلم"[4] .

وخلاصة هذه الأقوال : أنه المتكلف ماليس له مع علمه أنه متكلف له .

=

الضرة ٧/ ٧٠ ، عن أسماء رضي الله عنها ، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس ، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره ، والمتشبع بما لم يعط ٣/ ١٦٨١ ، عن عائشة رضي الله عنها.

(١) وهذا في صريح الحديث السابق الذي نصه : عن أسماء أن امرأة قالت يارسول الله ، إن لي ضرة ، فهل عليّ جناح إن تشبعتُ من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور** » رواية البخاري ٧/ ٧٠ .

(٢) انظر : غريب الحديث ٢/ ٢٥٢ ــ ٢٥٣.

(٣) نسب النووي هذا القول إلى الخطابي حَمْد بن خطاب البستي أبي سليمان ، الفقيه الحافظ الأديب ، صاحب التصانيف الحسنة ، مثل : معالم السنن ، أعلام الحديث ، المتوفى سنة٣٨٨هـ .

انظر : الأنساب ٢/ ٣٨٠ ، الرسالة المستطرفة ص٤٤ .

(٤) شرح النووي على مسلم ١٤/ ١١١.

أما الصورة الثانية وهي : رؤية النفس أكبر من الغير بسبب مال أو جاه أو علم...الخ ، فمن الأمثلة عليها : الملأ المستكبرون من أقوام الرسل المتعالون بأموالهم وأولادهم وسلطانهم وأحسابهم وأنسابهم...من لدن نوح عليه السلام إلى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وكأفرادٍ يذكر في هذه الصورة رأس المتكبرين إبليس عليه لعنة الله تعالى وأتباعه نمرود وفرعون وقارون وصاحب الجنتين وأبوجهل والوليد بن المغيرة[1]...،وغيرهم ممن غرّهم الجاه والمال والقوة والحسب...الخ ، فاستطالوا بها واستكبروا وكانوا قوماً مجرمين قديماً وحديثاً .

ثم يذكر الراغب الأصفهاني أن التكبر كذلك يكون على وجهين : محمود ، ومذموم .

أما المحمود فهو في حق من وصف به لكون أفعاله الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره[2] ، وعلى هذا وصف الله جل جلاله نفسه بالتكبر والكبرياء ، فقال تعالى : ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الحشر:٢٣] ، وقال تعالى : ﴿**وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعِزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الجاثية:٢٣] .

فالتكبر المحمود هو في حق الله تبارك وتعالى لأن محاسنه عزوجل لاأول لها ولاآخر ، فني الأولون ويفنى الآخرون إنسهم وجنهم وملكهم عاجزين عن حصرها وإدراكها ، فسبحان الله ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، هو الأول فلاقبله شيء ، وهو الآخر فلابعده شيء ، وهو الظاهر فلافوقه شيء ، وهو الباطن فلادونه شيء ، له المحامد كلها عزشأنه وجل ثناؤه .

وأما التكبر المذموم فيذكر الإمام الأصفهاني أنه في حق من كان متكلفا لذلك متشبعاً ، وذلك في وصف عامة الناس[3] ، وهذا ما جاء ذمه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ**

---

(١) يأتي الحديث عنهم في مبحث خاص .

(٢) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢ .

(٣) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٤٢٢.

تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان: ١٨] ، وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **لاَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** »(١) .

إذاً فالتكبر المذموم هو في حق العباد ، لأنهم أهل كل ضعف وعجز وفقر ، وإن كان لأحدهم شيءٍ من المحاسن فمن الله تعالى ، لا مِن نفسه ، فالفضل كله لله ، والأمر كله بيده ، ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [فاطر: ٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، من حديث ابن مسعود ٩٣/١ ، وأخرجه أبوداود في سننه في كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤، وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ٣٥/١ ، وفي كتاب الزهد باب البراءة من الكبر ٥٥٧/٢ ، وأخرجه أحمد ٣٩٩/١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١.

الأنَفَة والحَمِيَّة والكبر :

١ - الأنفة :

في اللغة : أنف منه -كفرح- يأنف أنَفاً وأَنَفَةً -محركتين ، بمعنى : حَمِيَ ، وقيل : استنكف[١] .

وأنف من الشيء إذا كرهه وشَرُفَت نفسُه عنه ، وأَنِف الطعام وغيره : كرهه[٢] .

وأصل الأنف الجارحة ، ثم يسمى به طرف الشيء وأشرفه ، فيقال : أنف الجبل وأنف اللحية ، ونسبت الحمية والغضب والعزة والذلة إلى الأنف ، فقيل : شمخ فلان بأنفه للمتكبر ، وتَرِب أنفه للذليل ، وأنف فلان من كذا بمعنى : استنكف ، وقيل : الأنفة : الحمية[٣] .

وفي الحديث : فَحمي من ذلك أنَفاً[٤] -بفتح النون- أراد : أخذته الحمِيّة من الغيرة والغضب . وقيل : هو أنْفاً -بسكون النون- للعضو ، أي : اشتد غيظه وغضبه ، وهذا من أحسن الكنايات ؛ لأن المغتاظ يَرِمُ أنْفُه

---

(١) انظر : لسان العرب ، باب الفاء ، فصل الهمزة ٢٥٨/١٠ ، القاموس المحيط ص١٠٢٥.

(٢) انظر : لسان العرب ، باب الفاء ، فصل الهمزة ٢٥٨/١٠ ، النهاية في غريب الحديث ٧٦/١.

(٣) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٢٨.

(٤) أخرج البخاري أن معقل بن يسار رضي الله عنه كانت أخته تحت رجل ، فطلقها ثم خلى عنها وهو يقدر عليها ، حتى انقضت عدتها ، ثم خطبها ، فحمي معقل من ذلك أنفاً ، فقال : خلّى عنها وهو يقدر عليها ثم يخطبها؟! فحال بينه وبينها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنّ** ﴾ [البقرة:٢٣٢] ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ، فترك الحمية واستقاد لأمر الله .

انظر : صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، باب وبعولتهن أحق بردهن ١١٣/٧ ، وأطراف الحديث في كتاب النكاح ، باب من قال : لانكاح إلا بولي ٣٠/٧ ، وفي كتاب التفسير باب ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنّ** ﴾ [البقرة:٢٣٢] ٣٥١/٦ .

ويحْمَـرُّ[1] .

وعلى ضوء هذا فالأنفة هي الحَمِيَّة وكراهة الشيء واستشراف النفس عنه .

أقول : فالأنفة على ضوء هذا المعنى لها جانبان يمدح أحدهما ويذم الآخر .

فـالممدوح : كراهـة الأمـر السـيء المذمـوم واستشـراف النفـس عنـه ترفعـاً عن مواطـن الذلـة والصغـار .

والمذمـوم : كراهـة الأمـر الحق الحسـن والاسـتنكاف عنـه تكـبراً وتعظمـاً ، وهـذا مـاوصف بضـده رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم ، ففـي الحديـث أنـه صلـى اللـه عليـه وسـلم كـان لايـأنف أن يمشـي مـع الأرملـة والمسـكين فيقضـي لـه الحاجـة[2] . وهـذا مـن تواضعـه صلـى اللـه عليـه وسـلم وعـدم تعظمـه ، فـإن المتعظـم يـأنف مـن فعـل ذلـك ، يـأنف أن يخـالط الضعفـة والمسـاكين وأن يمشـي أو يـأكل معهم أو يخدمهـم بقضـاء حاجـة لهـم... ، لأنـه يـرى نفسـه أرفـع مـن أن يفعـل ذلـك استحقاراً لهـم وتعظمـاً عليهـم .

فالأنفة على هـذا الوجـه رديـف الكبر واللـه أعلـم .

٢ - الحَمِيَّـــة :

فعيلـة ، وهـي : الأنفـة ، يقـال : حميـت عـن كـذا حميَّـة ومحميَّـه -بالتشـديد- إذا أنفـت منـه ، وداخلـك عـار أن تفعلـه[3] ، وفـلان ذوحميـة ، أي : ذو أنفـة وغضـب[4] .

وقـد فسـرت الحميـة كذلـك بالجبريـة[5] ، والغضـب ، والغـيرة[6] .

وورد ذكـر الحمية في آية من كتاب اللـه تعـالى هـي قولـه سـبحانه وتعـالى: ﴿ **إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [الفتح:٢٦] ، وهـي : آيـة تخـبر

(١) انظـر : النهايـة فـي غريـب الحديـث ٧٦/١.

(٢) أخرجـه النسـائي عـن عبدالله بـن أبي أوفـى رضـي اللـه عنـه ، فـي كتـاب الجمعـة ، بـاب مايسـتحب مـن تقصـير الخطبـة ١٠٩/٣.

(٣) انظـر : الجـامع لأحكــام القـرآن ١٩٠/١٦/٨.

(٤) انظـر : فتـح القديـر ٥٤/٥.

(٥) انظـر : زاد المسـير فـي علـم التفسـير ٤٤١/٧.

(٦) انظـر : معجـم مفـردات ألفـاظ القـرآن ص١٣٢ ، النهايـة فـي غريـب الحديـث ٤٤٧/١ ، فتـح القديـر ٥٤/٥.

عن السبب الذي جعل أهل مكة يمنعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين من دخولها ، وهو الحمية التي جعلوها راسخة ثابتة في قلوبهم[1] ، وذكر أن حميتهم تلك أنهم قالوا : قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ويدخلون علينا في منازلنا فتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا على رغم أنفنا ، واللات والعزى لايدخلونها علينا .

وقيل : حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم .

وقيل : حميتهم : عصبيتهم لآلهتم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها[2] .

وفي الحديث الذي مرّ قريباً « فحمى من ذلك أنفاً » ، أراد أنه أخذته الحمية من الغيرة والغضب .

ومما سبق نلحظ أن كل واحدة فسرت بالأخرى فهماً بمعنى[3] .

وصلتها بالكبر كما ذكرت آنفاً عن ذكر الأنفة ، وأضيف أنه يمكن عدهما من مظاهر الكبر وآثاره على السلوك ؛ فإن المتكبر يشتد غضبه لأتفه سبب ، بل يغضب ويحمر أنفه في مواطن لاوجه للغضب فيها إلا التعظم والخيلاء ، كأن يُوجَّه إلى صواب أخطأ طريقه ، أو يُنبه إلى خطإٍ وقع فيه ، فيغضب أن يوجهه إلى الصواب أو ينبهه على الخطأ من يرى نفسه خيراً منه وأرفع .

والمتكبر يأنف ويكره الأمر الحسن إذا كان من غيره خشية أن ينال به ذلك الغير ذكراً وثناءاً ، يريد هو لتعظمه أن لايكون لسواه وإن لم يكن يستحقه ، بل هو حَقّاً لايستحقه ، حيث طلبه بالكبر والخيلاء ، وليس بذلك يطلب المجد والذكر وحسن الثناء ، بل بضده من التواضع خلق الرسل والأتقياء .

---

(١) انظر : فتح القدير ٥/٥٤.

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٨/١٦/١٩٠ ، فتح القدير ٥/٥٤.

(٣) ولذا ذكرتهما معا.

البذخ والكبر :

قال في القاموس المحيط : « البَذَخُ -محركة[1]- : التكبر ، بذخ كفرح ، وتبذخ : تكبر وعلا »[2] .

وقال في النهاية : « البَذَخُ -بالتحريك- : الفخر والتطاول . والباذِخُ : العالي ، ويجمع على : بُذَّخ »[3] .

وذكر الإمام النووي -رحمه الله تعالى- عند شرحه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخيل الذي فيه : « وأما الذي عليه وزر ، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورياء الناس فذلك الذي هي عليه وزر » . أن البذخ بمعنى : الأشر والبطر ، بعد ذكره أن الأشر هو : المرح واللجاج ، والبطر هو : الطغيان عند الحق[4] .

ومن خلال ماذكر فإن البذخ لايبعد عن الكبر ، بل كما مر آنفاً قد فسر البذخ بأنه التكبر .

كما فسر أنه الفخر والتطاول ، وهما من أبرز مظاهر التكبر ، وكذا المرح والبطر .

والفخر والتطاول والأشر والبطر والمرح مما سيأتي بيانه في هذا المبحث بإذن الله تعالى .

---

(١) بالفتح في الباء والذال المعجمة . انظر : شرح النووي على مسلم ٦٩/٧.

(٢) انظر : القاموس المحيط ص٣١٨.

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث .

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ٦٩/٧ ، ٧٠.

البَغْيُ والكِبر :

البغي في اللغة هو التعدّي والاستطالة[1] ، وأصله مجاوزة الحد ، فكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغيٌ ، يقال : بغى الرجل علينا ، أي : عدل عن الحق واستطال[2]؛وبغى الجرح ، تجاوز الحد في فساده ، وبغت المرأة إذا فجرت لتجاوزها إلى ماليس لها؛ وبغت السماء ، تجاوزت في المطر حد الحاجة؛ وبغى ، تكبر لتجاوزه منزلته؛ ويستعمل ذلك في أي أمر كان[3] .

ويقال : بغى في مشيته بغياً ، أي : اختال وأسرع ، والبغي اختيال ومرح في الفرس ، ومنه قولهم : بغى الفرس ، إذا مرح واختال في عدوه[4] .

وفي الاصطلاح عرفه الراغب الأصفهاني بأنه : طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى ، تجاوزه أولم يتجاوزه؛ فتارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية ، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ**﴾[النحل:١١٥] ، أي : غير طالب ماليس له طلبه ، ولامتجاوز لما رسم له[5] .

والبغي بمعنى مجاوزة الحد ، يحمد ويذم .

فالمحمود في الخير وهو : تجاوز العدل إلى الإحسان ، والفرض إلى التطوع .

والمذموم في الشر وهو : تجاوز الحق إلى الباطل أو إلى الشُّبَه[6] ، وهذا ماجاء ذمه والتحذير منه ، والوعيد عليه في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[الشورى:٤٢] ، وقال

---

(١) انظر : تهذيب الأسماء واللغات ٣١/٢ .

(٢) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨ ، المحكم والمحيط الأعظم ٢٠/٦.

(٣) انظر : بصائر ذوي التمييز ٢٦٢/٢.

(٤) انظر : لسان العرب ٨٤/١٨.

(٥) انظر : معجم مفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٥٩.

(٦) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٥٨.

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنْ ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع مايدّخر له في الآخرة من: البغي وقطيعة الرحم»[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا، وَلاَيَبغي بعضُكُم عَلَى بَعْض»[٢]، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: «كلُّ مَخْمومِ القلب، صَدوق اللسان»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟، قال: «هو التقي النقي، لاإثم فيه ولابغي، ولاغلّ ولاحسد»[٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله عزوجل يتدلّى في جوف الليل فيغفر إلا ماكان من الشرك والبغي»[٤].

ويأتي البغي في القرآن الكريم والسنة المطهرة وفي لغة العرب على المعاني الآتية:

١ - مطلق الظلم والفساد، يقال: فلان يبغي على الناس، إذا ظلمهم وطلب أذاهم، والفئة الباغية هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي ٢٧٦/٤، والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب ٥٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح ٦٦٤/٤، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب البغي ٥٦٦/٢، وأحمد في مسنده ٣٦/٥، وهو من حديث أبي بكر نفيع بن الحرث رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب البغي ٥٦٧/٢، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال البوصيري: انفرد به ابن ماجه عن الكتب التسعة، وفي إسناده سنان بن سعد، وقد اختلف فيه وفي اسمه.

انظر: هامش سنن ابن ماجه الذي هو كفاية الحاجة في تحقيق سنن ابن ماجه، والزوائد من مصباح الزجاجة ٥٦٧/٢ برقم ٤٢١٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الورع والتقوى ٥٦٧/٢، وقال البوصيري: انفرد به عن الكتب التسعة، قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات. انظر: كفاية الحاجة... ٥٦٧/٢ برقم ٤١٢٦، هامش سنن ابن ماجه.

(٤) أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة ٣٨٥/٤.

العادل[1].

ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل:٩٠]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن عمار رضي الله عنه: «**وَيْحَ**[2] **عَمَّار**[3]**! تقتله الفئة الباغية**»[4].

٢ – **المعصية والذنب**، ومنه قوله تعالى: ﴿**ذلك جزيناهم ببغيهم**﴾ [الأنعام:١٤٦]، أي: عاقبناهم بذنبهم[5]، وقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون**﴾ [يونس:٢٣].

٣ – **الحسد**، يقال: بغى على أخيه بغياً، حسده، جاء في اللسان: والبغي أصله الحسد، ثم سمي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود جهده إرادة زوال نعمة الله عنه[6].

وعلى هذا المعنى ورد قول الله تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن**

---

(١) انظر: لسان العرب ١٨/٨٤.

(٢) كلمة رحمة. انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٧١٣

(٣) أبواليقظان، عمار بن يسار بن عامر المذحجي، حليف بني مخزوم، من السابقين الأولين إلى الإسلام، عذب في الله هو وأمه وأبوه عذاباً شديداً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر عليهم وهم يعذبون في رمضاء مكة فيقول: «صبراً آل ياسر موعدم الجنة». أمه سمية، أول شهيدة في الإسلام، هاجر إلى المدينة، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً وأُحداً والخندق وبيعة الرضوان. وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام، شهد قتال مسيلمة، واستعمله عمر رضي الله عنه على الكوفة، صحب علياً رضي الله عنه وشهد معه الجمل وصفين وقتل يوم صفين سنة سبع وثلاثين وعمره أربع وتسعون سنة، وقيل: ثلاث وتسعون، وقيل: إحدى وتسعون رضي الله عنه وأرضاه.

انظر: أسد الغابة ٣/٤٣ـ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد ١/٢٥٣، وهو من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) انظر: وجوه القرآن ١٣٥.

(٦) انظر: لسان العرب ١٨/٨٤.

يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧]، وقد فسر البغي هاهنا بالحسد والكراهية والمنافسة والعناد والمشاقة[١].

٤ - **الكبر والتطاول وطلب الاستعلاء بالظلم**، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقد فسر البغي هاهنا بالاستطالة على الناس[٢].

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، وَلاَ يَبْغِ بَعضُكُم عَلَى بَعْضٍ»[٣].

وعند ذكر قصة قارون يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦]، أي: تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم[٤].

٥ - **الطغيان**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [٢٧:الشورى]، أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً[٥].

٦ - **الطلب**، وهو إما طلب لشيء محمود، أو طلبٌ لشيءٍ مذمومٍ، فمتى كان الأول كان الابتغاء محموداً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللّهِ﴾ [المزمل:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/١٢٩، ٤/١١٨، فتح القدير ١/١١٣، ٤/٥٣٠، ٥/٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٨/١٦٦.

(٣) سبق تخريجه قريباً ص٤٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٢٠/١٠٦.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٤/١٢٤.

عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ [الإسراء:٢٨]، ومتى كان الثاني كان الابتغاء مذموماً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧].

ومن المعاني الأخرى للبغي، **الزنى**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ﴾ [النور:٣٣].

والسرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿غير باغ ولاعاد﴾ [النحل:٩٠].

والكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف:٦٥].

ومعظم الأمر (١).

وبالنظر إلى هذه المعاني التي ورد عليها البغي يتبين لنا وجه الصلة والارتباط الوثيق بينه وبين الكبر، فالبغي مطلق الظلم والفساد، والكبر صورة من صور ذلك الظلم والفساد، فما يتكبر إلا ظالم لنفسه وللحق وللخَلْق، وأيُّ فساد بعد هذا الفساد؟!

والبغي: المعصية والذنب، والكبر من أعظم المعاصي وأكبر الذنوب.

والبغي: الحسد، والحسد سبب من أسباب الكبر، كما أنه نتيجة من نتائجه، أما كونه سبباً من أسباب الكبر، فليس ذلك على الدوام، بل في بعض صوره وحالاته كما في قصة أبينا آدم عليه السلام مع إبليس عليه اللعنة إذ كان حسده لآدم عليه السلام سبباً من أسباب تكبره عليه واستنكافه عن السجود له، كذلك كان حسد أهل الكتاب للنبي صلى الله عليه وسلم من أسباب استكبارهم عن الإيمان به واتّباعه بعد ماعرفوه واستيقنوا صدقه فيما جاء به، وكذلك فعل مشركوا هذه الأمة وفي مقدمتهم فرعونها أبوجهل -عليه لعنة الله- الذي حسد بني هاشم على مبعث محمد صلى الله عليه وسلم منهم رسولاً للعالمين(٢)، فاستكبر عن الإيمان وأصرّ على الكفر والطغيان حتى أخزاه الله تعالى وأهلكه يوم بدر ويوم القيامة يرد إلى أشد العذاب.

---

(١) انظر لمراجعة هذه الوجوه، وجوه القرآن ١٣٥،١٣٦، وبصائر ذوي التمييز ٢٦٢/٢، ولسان العرب ٨٤/١٨، والمحكم المحيط الأعظم ٢٠/٦،٢١.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣١٥/١ـــ٣١٦.

وأما كون الحسد نتيجة من نتائج الكبر فهذا ظاهر بين فالكبر يقود إلى مساوئ الأخلاق وأقبح الخصال، ومنها الحسد الذي أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1].

ومن معاني البغي: التعدي والتطاول وطلب الاستعلاء بالظلم وهذا هو عين الكبر، فماالكبر الاّ تعدٍ واستطالة وطلب للاستعلاء بغير حق، وذلك هو الظلم المبين.

ومن معانيه: الطغيان وهو: مجاوزة الحد وفي الكبر تجاوز للقدر والمكانة إلى قدر لايستحقه ومكانة ليست له.

وأخيراً نخلص إلى القول بأن البغي أعم من الكبر، وأن الكبر من معاني البغي وسبب موصل إليه، والجامع بينهما تجاوز الحد، غير أن االكبر يشمل المحسوس والمعقول، والغالب على البغي في المحسوس.

ويستدل على كون البغي أعم من الكبر وكون الكبر سبباً موصلاً إليه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا، حَتَّى لاَيَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَيَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[2]، فالحديث في مفهومه يدل على النهي عن الكبر الذي بسببه يكون الفخر والبغي.

وحديث آخر في هذا المقام هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «سيصيب أمتي داء الأمم، فقالوا: يارسول الله! وماداء الأمم؟ قال: الأشر والبطر، والتكاثر والتناجش[3] في الدنيا، والتباغض والتحاسد حتى يكون

---

(١) في حديث أخرجه أبوداود عن أبي هريرة مرفوعاً: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، أو قال «العشب» ٢٧٦/٤.

وأخرجه ابن ماجه من حديث أنس قال البوصيري: انفرد به ابن ماجه عن الكتب التسعة، وفي إسناده عيسى بن عيسى، وقد أشار في الزوائد إلى ضعفه.

انظر: سنن ابن ماجه ٥٦٦/٢ وهامشه: كفاية الحاجة برقم٢١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار رضي الله عنه، كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢١٩٩/٤.

(٣) التناجش: من النَّجْش وهو أن يمدح السلعة لينفقها ويروجها، أو يزيد في ثمنها وهو لايريد شراءها ليقع غيره فيها. والأصل فيه تنفير الوحش من مكان إلى مكان.

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢١/٥.

<=

البغي »[1].

ففي هذا الحديث الشريف دلالة على أن البغي يكون نتيجة مايصيب الأمة من داء الأشر والبطر -وهما من دلائل الكبر- والتكاثر والتناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد ؛ فكل هذه أدواء خطيرة تؤدى إلى أن يبغي الناس بعضهم على بعض .

=

قال ابن رجب رحمه الله ويحتمل أن يفسر التناجش المنهي عنه في الحديث بما هو أعم من ذلك ، فأصل النجش في اللغة : إثارة الشيء بالمكر والحيلة ، والمخادعة : إرادة إيصال الأذى إلى المسلم إما بطريق الاحتيال وإما اجتلاب نفعه بذلك ، ويلزم وصول الضرر إليه ودخوله عليه ، وعلى هذا التقدير يدخل في التناجش المنهي عنه جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه...» انظر : جامع العلوم والحكم ص٣٥٥/٣٥٦ .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب البر والصلة ١٦٨/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

التبختر والكبر :

التَّبَخْتُر : من بختر ، والبخترة والتبختر : « مشيةُ المتكبر المعجب بنفسه »[1] . وقيل : حَسَنُ المشي والجِسْم ، يقال : بختر وتبختر ، وفلان يمشي البختَرِيَّة ، ويتبختر في مشيته ، ورجل بَخْتَري : صاحب تبختر ، والبختري من الإبل : الذي يتبختر أي : يختال[2] .

ومن هنا يتبين لنا أن الكبر أعم من التبختر ؛ إذ يكون في الظاهر كما يكون في الباطن ، كما يتبين لنا أن التبختر ماهو إلا مظهر من مظاهر الكبر ، إذ هو مشية خاصة يمشيها المتكبر أبرز ملامحها تباعد الخطى وبروز الصدر ومد اليدين والنظر المتكرر إلى النفس ومحاسن الجسم .

ولم ترد كلمة يتبختر في القرآن الكريم ، وقد وردت في الحديث الشريف في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » ، وفي رواية : « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَيْنِ...** » بنحوه ، وفي رواية : « **إِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ...** »[3] بنحوه .

فالعلاقة إذاً بين الكبر والتبختر هو كون التبختر من مظاهر الكبر في سلوك المتكبر ، أي : التبختر علامة وصفة للمتكبر تدل على كبره واستعلائه . والله أعلم .

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١/٧٦.

(٢) انظر : لسان العرب ٥/١١١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ٣/١٦٥٤ ، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه .

التجبر والكبر :

التجبر : من جَبَر ، وجَبَر من معانيها أمران هما :

أ - القهر والإكراه ، فتقول : جبره على الأمر وأجبره ، أي : قهره وأكرهه عليه[1] .

ب - الإصلاح والصلة ، تقول : « جبر العظم والفقير جبراً »[2] ، أي : أصلح المنكسر من العظم حين ربطه ليلتئم[3] ، ووصل الفقير وأصلح من شأنه حين أحسن إليه ، فأغناه بعد فقر .

وعلى هذا فالجبار يأتي في صفة الله كمايأتي في وصف العباد كما تبين ذلك من خلال النصوص القرآنية والنبوية ، وتبين أنه إذا كان في :

أ - صفة الله تعالى ، فيأتي على هذه المعاني :

١ - العالي فوق خلقه الذي لاينال ، فهو سبحانه وتعالى « العلي على كل شيء »[4] ، « له علو الذات فإنه فوق المخلوقات ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾[طه:٤] ، أي : علا وارتفع ، وله سبحانه علو القدر ، وهو علو صفاته وعظمتها ، فلا يماثله مخلوق ، وله سبحانه وتعالى علو القهر ، فإنه الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم فنواصيهم بيده ، وماشاء كان لايمانعه فيه ممانع ، ومالم يشأ لم يكن ، فلو اجتمع الخلق على إيجاد مالم يشأه الله لم يقدروا ، ولو اجتمعوا على منع ماحكمت به مشيئته لم يمنعوه ، وذلك لكمال اقتداره ، ونفوذ مشيئته ، وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه »[5] .

٢ - القاهر خلقه على ماأراد من أمر ونهي على ماتقتضيه حكمته تبارك وتعالى ، فإنه سبحانه وتعالى ذو الجبروت ، القهار لكل شيء الذي دان

---

(١) انظر : لسان العرب ١٨٢/٥ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ١٧٩/١ ، القاموس المحيط ٤٦٠ .

(٢) القاموس المحيط ٤٦٠.

(٣) انظر : الكليات ١٧٣/٢ .

(٤) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ١٣١.

(٥) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ٧٩،٨٠.

وخضع له كل شيء[1] .

٣ - المتكبر عن كل سوء ونقص وعن مماثلة أحد ، وعن أن يكون له كفؤٌ أو ضدٌّ أو سَمِيٌّ في خصائصه وحقوقه[2] .

٤ - الذي يجبر الناس بفائض نعمه[3] ، « فهو سبحانه وتعالى الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله ، فيجبر الكسير ، ويغني الفقير ، وييسر على المعسر كل عسير ، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر ويعوضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها ، ويجبر جبراً خاصاً قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله ، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية ، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب ، وإذا دعا الداعي فقال : اللهم اجبرني ، فإنه يريد هذا المعنى الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع المكاره عنه »[4] .

ب - وأما في صفة العباد فيأتي التجبر على هذه المعاني :

١ - المتكبر المتعالي عن قبول الحق[5] ، أو عن عبادة الله تعالى[6] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر:٣٥] ، جبار يعني : متعظم عن اتباع الحق[7] ، وقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ **وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً** ﴾ [مريم:٣٢] ، والمعنى أي : مستكبراً على الله فيما أمرني به ، ونهاني عنه شقياً ، ولكن ذللني لطاعته ، وجعلني متواضعاً[8] .

وسمي المتكبر جباراً ؛ لأنه يجبر نقيصته بادّعاء منزلة من التعالي

---

(١) انظر : شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣١.

(٢) انظر : شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣١ .

(٣) انظر : المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٨٦.

(٤) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ص ١٣٠.

(٥) انظر : لسان العرب ٥/١٨٣ ، والكليات ٢/١٧٣.

(٦) انظر : لسان العرب ٥/١٨٣ ، والأشباه والنظائر ١٧٠.

(٧) انظر : تفسير الطبري ٢٤/٦٤.

(٨) انظر : تفسير الطبري ١٦/٨٢.

لايستحقها[1] .

٢ - القَتَّالُ في غير حق[2] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**إِن تُرِيدُ إِلاّ أَن تَكُونَ جَبّاراً فِي الأَرْضِ**﴾ [القصص:١٩] ، أي : قتّالاً في غير حق[3] ، وكان من فعل الجبابرة قتل النفوس ظلما بغير حق[4] .

٣ - العاتي المتمرد ، وقد يضمّن معنى المتسلط القاهر[5] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبّارٍ**﴾ [ق:٤٥] .

٤ - العظيم الخلق[6] ، القوي الطويل[7] ، ومنه قوله تعالى : ﴿**قَالُوا يَامُوسَى إِنّ فِيهَا قَوْماً جَبّارِينَ**﴾ [المائدة:٢٢] .

٥ - الشقي الذي يقتل على الغضب ، وقد ذكر هذا المعنى عند بيان قول عيسى عليه السلام : ﴿**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً**﴾ [مريم:٣٢][8] .

وكما جاء الجبار في صفة الله تعالى ، ووصف الإنسان بأنه جبار ، كذلك وصف القلب بأنه جبار ، فقد قال الله تعالى : ﴿**كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ**﴾ [غافر:٣٥] ، وذلك على قراءة التنوين في[9] « قلب » وفي « متكبر جبار » على أنهما وصفان للقلب .

والقلب الجبار هو : الذي لاتدخله الرحمة ، أو هو : ذو الكبر لايقبل موعظة[10] .

هذا بالنسبة لمعاني التجبر والتي دارت عليها أقوال أئمة التفسير عند

---

(١) انظر: المفردات في ألفاظ القرآن الكريم ٨٦.

(٢) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥.

(٣) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥.

(٤) انظر : تفسير الطبري ٥٠/٢٠.

(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم ١٧٩/١.

(٦) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، قرة الأعين النواظر ٢٣٣ .

(٧) انظر : الأشباه والنظائر ، للبلخي ١٧٠.

(٨) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٦/٣ ، وهو قول سفيان الثوري رحمه الله تعالى.

(٩) سبق تخريج القراءة.

(١٠) انظر : لسان العرب ١٨٣/٥ ، وقد مر بك في المبحث الأول أن أصل الكبر في القلب.

تفسيرهم لآيات التجبر الواردة في كتاب الله تعالى، وكذلك أقوال أئمة اللغة عند مادة [ج ب ر] .

أما بالنسبة للفرق بين الكبر والتجبر، فقد جاء في «الفروق» لأبي هلال العسكري قوله : «الفرق بين الكبر والجبرية والجبروت، أن الجبرية أبلغ من الكبر، وكذلك الجبروت، ويدل على هذا فخامة لفظها، وفخامة اللفظ تدل على فخامة المعنى، فيما يجرى هذا المجرى...، وتَجَبَّرَ، أبلغ من تَكَبَّرَ، وقال بعض العلماء : تجبر الرجل، إذا تعظم بالقهر، وهذا يؤيد ماقلناه : من أنه أبلغ من تكبر، لأن التكبر لايتضمن معنى القهر...»[1] .

وذكر صاحب وجوه القرآن : أنه إذا اجتمع وصف المتكبر مع الجبار، كان الجبار بمعنى : القتال[2] .

بعد هذا ومما سبق نستطيع أن نتبين وجه الصلة بين الكبر والتجبر، وكذلك وجه الاختلاف، فنخلص إلى القول بأن : الكبر معنى من معاني التجبر، كما أنه سبب من أسبابه، وفي هذه الحالة نقول : إن كل متجبر هو متكبر، وليس العكس، بمعنى : أن المتكبر قد لايكون متجبراً بينما لابد أن يكون المتجبر متكبراً، فلايُتصوَّر، متجبر إلا وهو متكبر، أي : لايفعل أفعال الجبارين من التعالى على الحق والحيد عنه، وعدم قبوله أو الإذعان له، ومن القتل بغير حق، ومن القهر والإكراه والتسلط، إلا متكبر لايرى فوقه أحداً، بل يرى أنه أعلى من الحق، فهو يفعل ذلك استعظاماً لنفسه واستصغاراً لمن سواه .

أما المتواضع الذي لايرفع نفسه فوق الآخرين ولايحقرهم فبعيدة عنه أفعال الجبارين .

إذاً فالتكبر درجة قبل التجبر، والتجبر أبلغ من التكبر، وكلاهما من مساوئ الأخلاق التي حرص الإسلام على تطهير أتباعه منها لسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة، وبالمقابل حرص على غرس مايقابلها من مكارم الأخلاق في نفوسهم لعواقبها الحميدة في الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٤ ، ٢٠٥.

(٢) انظر : رسالة ماجستير بعنوان : وجوه القرآن ص١٦٦.

ولعل تقديم لفظ «متكبر» على لفظ «متجبر» في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥]، ولم يجمع بينهما في وصف الإنسان إلا في هذا الموضع، لعل ذلك يوحي بهذا المعنى الذي ذكرناه من أن التكبر أولاً ثم التجبر فيكون بذلك التكبر سبباً للتجبر.

لطائف من الآيات الواردة في التجبر:

١ - ورد في لفظ «الجبار» معرفا بالألف واللام مرة واحدة في وصف الله تعالى ليدل على أن التجبر بحق لايكون إلا لله تعالى، الذي له كل صفات العزة والقوة والعظمة والكبرياء.

٢ - ورد لفظ «جبار» بدون الألف واللام مفرداً، سبع مرات، وكلها في وصف البشر، وفي تنكيره دلالة على نكارته من المخلوق الضعيف الذي لايملك من صفات العزة والقوة... مايجعل التجبر فيه تجبر بحق.

٣ - ورد لفظ «جبارين» بلفظ الجمع مرتين، كذلك في وصف البشر، وهو مُنكَّرٌ كسابقه.

٤ - ورد لفظ «جبار» مرة واحدة في وصف القلب، على قراءة التنوين في قلب ومايليها[1].

---

(١) سبق تخريج القراءة.ص٢٣.

التطاول ، الاستطالة والكبر :

التطاول والاستطالة بمعنى العلو والترفع على الناس ، يقال : تطاول واستطال على الناس ، إذا هو رفع رأسه ورأى أن له عليهم فضلاً في القدر والشأن ، يقال : طال عليه واستطال وتطاول إذا علاه وترفع عليه[1] .

وتطاول إذا أظهر الطُّول أو الطَّوْل[2] ، فالطُّول بضم الطاء ، هو التعظم ورفع النفس ، والطَّول بفتح الطاء هو : الفضل والعلو على الأعداء[3] .

ويقال : تطول عليه إذا امتن ، وإنه ليتطول على الناس بفضله وخيره[4] .

ففرق إذاً بين التطول والتطاول ، فالتطول يوضع موضع المحاسن ، فهو ممدوح ، والتطاول مذموم ؛ لأنه يوضع موضع التكبر . وقد جاء في الحديث « **إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا الِاسْتِطَالَةَ فِي عِرضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ** »[5] ، والاستطالة في عرض المسلم ، أي : استحقاره والترفع عليه والوقيعة فيه[6] .

أقول : ومن خلال ماسبق تبين لنا أن التطاول والاستطالة بمعنى التكبر ، غير أن لفظة التطاول أو الاستطالة هي أخص بالكبر الظاهر الذي يعبر عنه بالتكبر ، أي : إظهار كبر النفس وتعظمها ، فالتطاول يحكي مظهراً من مظاهر الكبر ، وهو محاولة المتكبر أن يطول فوق الجميع ، فهو يتطاول برفع رأسه ومدّ قامته ومشيه على أطراف أصابعه لعل وعسى أن تتحقق بغيته ، ولعل في قول الحق سبحانه في معرض النهي عن التكبر والهزء بالمتكبرين : ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ**

---

(١) انظر : لسان العرب ٤٣٨/١٢ فصل الطاء حرف اللام طول .

(٢) انظر : القاموس المحيط ٣١٢ ، مفردات ألفاظ القرآن ٣٢٧.

(٣) انظر : لسان العرب ٤٤٠/١٣.

(٤) المصدر السابق .

(٥) أخرجه أبوداود من حديث سعيد بن زيد مرفوعاً ، في كتاب الأدب ، باب في الغيبة ، كما أخرج نحوه عن أبي هريرة مرفوعاً ، انظر : السنن ٢٦٩/٤ ، وحديث أبي هريرة ، قال المنذري : رواه البزار بإسنادين أحدهما قوي . انظر : الترغيب والترهيب ٥٠٤/٣.

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٥/٣.

طُولاً﴾ [الإسراء:٣٧]، لعل في هذه الآية الكريمة إشارة إلى هذا المعنى من أن نفس المتكبر المريضة تتمنى لو أن جسمه في ضخامة أعلى الجبال طولاً ؛ لأنه بذلك يمكن له أن يلقي نظرة الإزدراء الحقيقية على عباد الله تعالى أجمعهم، بدلاً من إلقائها على بعضهم، فهو يريد أن يحس بعليائه على الجميع، فإذا كان كأعلى الجبال طولاً تحقق له ذلك[1].

والحقيقة أن هذا وهم وخيال لاحقيقة له، فمهما تطاول المتكبر فلن يعدو قدره «بل سيظل مشدودا إلى هذه الأرض التي منها خلق وإليها يعود، ولن يستطيع أن يتجاوز الطول الذي أوجده الله عليه مهما تمدد وتطاول»[2].

ثم إن التطاول والتكبر ليس طريق الرفعة والمجد، بل طريق الذلة والضعة عند الله تعالى الذي يمقت المتكبرين ويخزيهم لمنازعتهم له صفته وعند العباد الذين يبغضونهم ولايكرمون لديهم مقابلة لتعاليهم عليهم وأنفتهم منهم.

(١) انظر: تلأملات في سورة الإسراء ١٦٨.

(٢) انظر: تأملات في سورة الفرقان ١٥٦.

التمطي أو المطيمطاء والكبر :

المط والمطو في اللغة : المد ، تقول : مطا الشيء مطواً : مده ، ومطا بالقوم : مد بهم ، أو مطوتُ بالقوم مطواً إذ مددت بهم في السير ، وتمطى الرجل : تمدد ، ويقال : التمطي مأخوذ من المطِيطَة وهو الماء الخاثر في أسفل الحوض ؛ لأنه يَتمطْمَطُ أي : يتمدد ، وكل شيء مددته فقد مطوته ، وتمطى النهار : امتد وطال ، وقيل : كل ماامتد وطال فقد تمطى(١) .

فالتمطي والمطيمطاء إذاً : الخيلاء والتبختر ومد اليدين في المشي ، ومنه الحديث : « إذا مشت أمتي المطيمطاء... »(٢) ، فهي مشية فيها تبختر ومد اليدين(٣) .

وقد ورد التمطي في كتاب الله تعالى مرة واحدة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ثُمّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطّى﴾[القيامة:٣٣] ، (يتمطى) : جملة حالية من فاعل ذهب ، وقد يجوز أن يكون بمعنى شرع في التمطي ، وتمطى فيه قولان : الأول : أنه من المطا وهو الظهر ، ومعناه : يتبختر أي : يمد مطاه ويلويه تبختراً في مشيته . الثاني : أن اصله يتمطمط من تمطمط ، أي : تمدد ، ومعناه : أنه يتمدد في مشيته تبختراً ، ومن لازم التبختر ذلك فهو يقرب من المعنى الأول ، ويفارقه في مادته ؛ إذ مادة المطا : [م ط] ، ومادة الثاني : [م ط ط](٤) .

ومما قيل آنفاً نخلص إلى القول : بأن لفظة التمطي تدل على مظهر من مظاهر الكبر ، فالمتكبر إذا مشى تبختر مادّاً يديه وظهره، فالتمطي علامة يعرف بها المتكبر . والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر : لسان العرب ٢٠/١٥٣ ، ١٥٤.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الفتن ، باب ٧٤ ، وقال : هذا حديث غريب ، وقد رواه أبومعاوية عن يحيى بن سعيد الأنصاري.
انظر : ٤/٥٢٦ ، ونص الحديث : « إذا مشت أمتي بالمطيمطاء وخدمتها أبناء الملوك ، أبناء فارس والروم سُلّط شرارها على خيارها » .

(٣) انظر : لسان العرب ٢٠/١٥٣.

(٤) انظر : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين ، للدقائق الخفية ٤/٤٥٠.

الخيلاء والكبر :

الخيلاء بضم الخاء وكسرها : الكبر والعجب ، وكذا المَخِيلَةُ ، والاختيال : التكبر ، يقال : خالَ الرجلُ يخول خولاً وخالاً واختال يختال اختيالاً : إذا تكبر ، وهو ذو مخيلة أو ذو خال ، أي : ذو كبر ، وهو مختال ، أي : متكبر[١] .

قال الراغب : الخيلاء : التكبر عن تَخَيُّل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه[٢] .

وجاء في معجم ألفاظ القرآن : والخيلاء : الكبر والظن في النفس بغرور وازدها ، يقال : اختال يختال اختيالاً فهو مختال : تبختر في المشي كبراً وزهواً بفضيلة تراءت له في نفسه ، ثم استعمل في كل كبر وزهو في المشي أو غيره[٣] .

فإذاً ، المتكبر إنما يختال بصورة يتخيلها لفضيلة غائبة عنه ولاوجود لها على الحقيقة في نفسه ، بل هي ظنٌّ وخيال ، وذلك مثل من يحسب السراب ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً[٤] .

وبالعودة إلى كتاب الله تعالى نجد أن الخيلاء قد ذكرت في ثلاثة مواضع منه ، وكلها بلفظ « مختال » وجميعها في معرض الذم وفيها ترهيب للمختال بتوكيد نفي محبة الله تعالى له ، وهي قول الله تعالى : ﴿**وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**﴾[النساء:٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[لقمان:١٨] ، وقوله تعالى : ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا**

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٨٩ ، ٩٤ ، شرح النووي على مسلم١٤/٦١.

(٢) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٦٤.

(٣) انظر : معجم ألفاظ القرآن ١/٣٩٠.

(٤) انظر في معنى الخيال والتخييل والتخيل : مفردات ألفاظ القرآن ١٦٤.

فَـاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُـواْ بِمَـآ آتَـاكُمْ وَاللّـهُ لاَ يُحِـبّ كُـلّ مُخْتَـالٍ فَخُـور ﴾ [الحديـد:٢٣] .

فأما الآية الأولـى ففيهـا الأمـر بعبـادة اللـه تعـالى وحـده وعـدم الإشـراك بـه جـل جلالـه ، ثـم الأمـر بالإحسـان إلـى الوالديـن وذي القرابـة واليتـامى والمسـاكين والجيران : (الجـار ذي القربى) ، وهـو الجـار ذي القرابـة والرحـم ، أو هـو الجـار لـذي القرابـة والرحـم[1] ، (والجـار الجنـب) الـذي ليـس لـه قرابـة ولارحـم أو هـو الجـار غير المسـلم أو هـذا وذاك[2] ، (والصـاحب بـالجنب) وهـو كمـا قيـل رفيـق الرجـل فـي سـفره ، وقيـل : امـرأة الرجـل التـي تكـون معـه إلـى جنبـه ، وقيـل : هـو الـذي يـلزمك ويصحبـك رجـاء نفعـك ولايمنـع أن تكـون الوصيـة بهـم جميعـاً ، فكلهـم بجنب الـذي هـو معـه وقريـب منـه وللصـاحب علـى المصحـوب حـق ولاشـك[3] ، (وابـن السـبيل) وهـو كمـا ذكـر المسـافر الـذي يجتـاز مـاراً ، وقيـل : هـو الضيـف ، (ومـاملكت أيمـانكم) المـراد بهـم : الأرقـاء[4].

ولأن الخيـلاء والفخـر خلقـان سـيئان يحمـلان صاحبهمـا علـى الأنفـة ممـاندب اللـه تعـالى إليـه فـي هـذه الآيـة الكريمـة[5] ، أي : يحملانـه علـى الأنفـة مـن ذوي قرابتـه وجيرانـه وأصحابـه ، ومـن المسـاكين والممـاليك فلايحسـن عشـرتهم ولايلتفـت إليهـم ، بـل يتكـبر عـن إكرامهـم[6] والإحسـان إليهـم وأداء حقوقهـم ، فـإن اللـه تعـالى خصهمـا بـالذكر مُحذِّرا منهمـا ناهيـاً عنهمـا بأسـلوب فيـه تنفـير منهمـا وتقبيـح لهمـا ﴿ إِنّ اللّـهَ لاَ يُحِـبّ مَـن كَـانَ مُخْتَـالاً فَخُـوراً ﴾ ، وأيـم اللـه ماحال مـن لايحبـه اللـه الجليـل بـل يبغضـه؟ ماحالـه فـي الدنيـا والآخـرة؟! فمـن كـان يرجـو لقـاء اللـه ويبغـي رضـاءه فليجتنـب هـاتين الخلتيـن وغيرهمـا مـن خـلال السـوء .

وأمـا الآيـة الثانيـة ففيهـا النهـي عـن إمالـة الخـدّ عـن النـاس تكـبراً عليهـم وعـن

---

(١) انظـر : تفسـير الطـبري ٥/٧٨.

(٢) انظـر : تفسـير الطـبري ٥/٧٨.

(٣) انظـر : تفسـير الطبري ٥/٨٠ـــ٨٢.

(٤) انظـر : تفسـير الطـبري ٥/٨٣.

(٥) انظـر : فتـح القديـر ١/٤٦٥.

(٦) انظـر : تفسـير الكشـاف ، للزمخشري١/٢٦٨ ، معـاني القـرآن وإعرابـه للزجـاج٢/٥١.

المشي على الأرض تبختراً وخيلاء؛ لأن من يفعل ذلك لايحبه الله ومن لايحبه الله خسر الدنيا والآخرة.

وأما الآية الثالثة ففيها النهي عن الفرح فرح الأشر والبطر، ثم ختمت بما ختمت به الآيتان السابقتان ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد:٢٣]، ببيان أن محبة الله تعالى لاينالها المختال الفخور.

وفي السنة المطهرة ورد ذكر الخيلاء في معرض الذم والتحذير في عدة أحاديث، منها: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ وَالإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ**»(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**أَرْبَعَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْبَيَّاعُ الْحَلاَّفُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالشَّيْخُ الزَّانِي وَالإِمَامُ الْجَائِرُ**»(٣).

فأما الحديث الأول ففيه وعيد شديد لمن يجر ثوبه ويطيله زيادة على الحد الشرعي وهو الكعبان بالنسبة للرجل وزيادة شبراً وذراع بالنسبة للمرأة، فمن أطال ثوبه زيادة على هذا الحد الشرعي على سبيل التكبر والخيلاء، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾[الأعراف:٣٢]، و«من جر إزاره من غير خيلاء»، و«من جر ثوبه من الخيلاء» ٢٦٤/٧ــ٢٦٦، وأخرجه مسلم في صحيحه ١٦٥١/٣ــ١٦٥٣ كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء، والحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاي ومسلم عن أبي هريرة بعدة روايات واختلاف في بعض الألفاظ. انظر: صحيح البخاري كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٥٧٥/٤، وكتاب المناقب، باب ١٦/٥، وكتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن ٣٠١/٦، وانظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ٧٣٢٧٢/١. والحديث في المسند عن أبي هريرة وكذلك عن أبي سعيد الخدري. انظر: ٣٧٠/٢، ٣١٩، ٣٧٣، ٤١٨، ٤٢٦، ٤٥٧، ٤٨٠، ٤٨٤، ٥٠٦، ٩٦/٣.

(٣) سبق تخريجه.

الله عزوجل لاينظر إليه نظر رحمة ومحبة[1].

وأما الحديث الثاني ففيه -أن للإنسان أن يتمتع بطيبات الأكل والشرب واللباس مما أباحه الله عزوجل لعباده ورزقهم إياه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٢]، فللإنسان أن يتمتع بذلك مجتنباً فيه الإسراف وهو مجاوزة الحد والخيلاء وهي التكبر، وكذلك يجتنب هاتين الخلتين في صدقته، فهذا الحديث كما جاء في فتح الباري -جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذْ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال .والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب وتضر بالآخرة، حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس[2].

والحديث الثالث يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أن الفخر والخيلاء من صفات الفدادين، والفدّادون الصواب فيها تشديد الدال جمع فداد وهو من الفديد، وهو الصوت الشديد، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك.

وقوله «أهل الوبر» بفتح الواو والموحدة، أي: ليسوا من أهل المدر؛ لأن العرب تعبر عن أهل الحضر بأهل المدر، وعن أهل البادية بأهل الوبر[3].

وقوله: «والسكينة في أهل الغنم»، أي: أن أهل الغنم من صفاتهم الطمأنينة والسكون والوقار والتواضع[4]، وذلك على خلاف ماذكره من صفة الفدادين[5]، وإنما خص أهل الغنم بذلك؛ لأنهم غالباً دون أهل الإبل في

---

(١) انظر: فتح الباري ٣١٧/١٠.

(٢) انظر: فتح الباري ٣١١/١٠، وهذا الكلام ذكره عن الموفق عبداللطيف البغدادي.

(٣) انظر: فتح الباري ٤٣٤/٦.

(٤) انظر: فتح الباري ٤٣٤/٦.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم ٣٤/٢.

التوسع والكثرة وهما من سبب الفخر والخيلاء[1].

وقوله : «الإيمان يمان، والحكمة يمانية» فيه مدح لأهل اليمن على نحو ماذكره أهل العلم من كلام طويل ليس هنا مكانه[2].

وأما الحديث الرابع فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أربعة أصناف يبغضهم الله جل جلاله ولايحبهم بسبب مااقترفوه من الآثام التي بينها الحديث الشريف، أما الأول فبياع كثير الحلف لترويج مبيعه، وأما الثاني ففقير مختال متكبر، وأما الثالث فشيخ شيبة زان، وأما الرابع فحاكم ظالم، فهذه الآثام محرمة على سائر الناس، ولكنها في حق هؤلاء الأربعة أشد تحريماً لفقدهم دواعيها[3].

ومن خلال ماسبق نخلص إلى أن الخيلاءوالكبر هما بمعنى مترادفان، وإن وجد فرق دقيق فهو كون الخيلاء تبدو من خلال سلوك المتكبر الظاهر، أي : أنها صفة وعلامة للمتكبر. والكبر يشمل الظاهر والباطن. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر : فتح الباري ٤٣٤/٦.

(٢) انظر : مثلاً : شرح النووي على مسلم ٣٢/١، ٣٣. وفتح الباري ٦٦٠/٦.

(٣) على نحو ماسبق بيانه في المبحث الأول من هذا الفصل.

الزهو والكبر :

الزهو من (زها) وهو الكبر والتيه والفخر والعظمة ، يقال : رجل مَزْهُوٌّ بنفسه ، أي : معجب ، وبفلان زَهْوٌ ، أي : كِبر ، وقد زُهِيَ كعُنِيَ ، وكدعاء قليله ، وأزهى وزهاه الكبر[1] ، وزهي فلان فهو مزهوٌّ إذا أعجب بنفسه وتكبر[2] .

هذا ماذكره أهل اللغة في معنى الزهو ، ومنه نفهم أنه في معنى الكبر ، لكن هناك فرق لطيف بين اللفظتين ذكره الإمام العسكري في الفروق ، فقال : « الفرق بين الكبر والزهو أن الكبر : إظهار عظم الشأن ، وهو فينا خاصة : رفع النفس فوق الاستحقاق .

والزهو على مايقتضيه الاستعمال : رفع شيء إياها من مال أو جاه وماأشبه ذلك ، ألا ترى أنه يقال : زها الرجل وهو مزهو ، كأن شيئاً زهاه ، أي : رفع قدره عنده ، وهو من قولك : زهت الريحُ الشيء إذا رفعته ، والزهو : التزيد في الكلام »[3] .

أقول : كلام الإمام العسكري -رحمه الله- يفيد أن الكبر والزهو كلاهما يعنيان : رفع النفس فوق ماتستحقه ، لكن الزهو يعني : رفع النفس لالذاتها ، بل يرفعها داع من الدواعي التي يزهو بها المتكبرون كالعلم والعمل والجاه والنسب والقوة والجمال... ، أي : حين كان له نصيب من هذه الأمور ارتفع قدره عنده فزها بها ، أما الكبر فهو في النفس أصلاً ، وهو رؤية النفس فوق الآخرين ، ثم يظهر على السلوك في صورتين : بطر الحق ، وغمط الناس ، ومن هنا نفهم من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الشَّيْخُ الزَّانِي وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ وَالإِمَامُ الْكَذَّابُ** » أنه خص الفقير المزهو بالوعيد ؛ لأنه تكبر ومامعه من المال مايرفع قدره عنده ، فليس شيئاً زهاه إذاً بل هو متكلف للكبر ، فاستحق أن يخص بالوعيد ، وإن

---

(١) انظر : القاموس المحيط ١٦٦٨ ، باب الواو والياء ، فصل الزاي.

(٢) انظر : لسان العرب ١٩/٨٠.

(٣) انظر : الفروق اللغوية ٢٠٥.

كان كل متكبر له من هذا الوعيد نصيب ، فإن التكبر شنيع من الغني والفقير ومن كل أحد .

ولم ترد لفظة الزهو في القرآن الكريم ، ولكنها وردت في الحديث النبوي ومن ذلك هذا الحديث الآنف الذكر ، ومنه حديث عائشة(١) رضي الله عنها في درع لها تأنف جاريتها من لبسه « فإنها تُزهى أن تلبسه في البيت »(٢) ، أي : تترفع عنه ولاترضاه(٣) ، أنفة وتكبراً ، يقال : زُهي يزهى إذا دخله الزهو وهو الكبر(٤) .

---

(١) الصديقة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشهر نسائه وأحبهن إليه بعد خديجة رضي الله عنهن أجمعين . تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث سنوات وقيل بأربع وقيل بخمس ، وعمرها ست وقيل سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ، كانت رضي الله عنها من أفقه الناس وأعلمهم بالطب والشعر وأكثرهم رواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفيت سنة سبع وقيل ثمان وخمسين ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، ودفنت بالبقيع كما أمرت رضي الله عنها وأرضاها.
انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥/٥٠٠ــ٥٠٤ .

(٢) أخرج هذا الحديث البخاري فقال : حدثنا أبونعيم ، قال : حدثنا عبدالواحد بن أيمن ، قال : حدثني أبي ، قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قِطْرٍ ثمن خمسة دراهم ، فقالت : ارفع بصرك إلى جاريتي ، انظر إليها فإنها تُزْهى أن تلبسه في البيت ، وقد كان لي منهن درع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كانت امرأة تُقَيَّنُ بالمدينة إلا أرسلت إليَّ تستعيره .
انظر : صحيح البخاري كتاب الهبة ، باب الاستعارة للعروس عندالبناء ٣/٣٣٠ ، ٣٣١ . والدرع : قميص المرأة ، والقطر -بكسر القاف وسكون المهملة بعدها راءٌ : ثياب من غليظ القطن وغيره ، وقيل : من القطن خاصة . وحكى في ضبط القطر غير هذا ، انظر : فتح الباري شرح البخاري ٥/٣٠٢ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٣٢٣.

(٤) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٥/٣٠٣.

الصَّعَر والكبر :

الصَّعَر محركة : ميل في الوجه ، وقيل : الميل في الخدّ خاصة ، أو هو ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين .

وصعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره : أماله من الكبر ، والتصعير : إمالة الخد عن الناس تهاوناً من كبر كأنه معرض[1] .

« واصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رءوسها حتى تلفت أعناقها عن رءوسها ، فيشبه به المتكبر على الناس »[2] .

ورد ذكر الصعر في القرآن في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان:١٨] .

ومعنى لاتصعر خدك للناس : لاتعرض بوجهك عمن كلمته أو كلمك من الناس استحقاراً منك له واستكباراً عليه ، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليه ولاتعرض .

وقيل : إنما نهاه عن أن يفعل ذلك لمن بينه وبينه صعر لاعلى وجه التكبر ، قال مجاهد : الرجل يكون بينه وبين أخيه الحنة[3] ، فيراه فيعرض عنه[4] .

وقيل : معناه : التشديق في الكلام[5] ، « والصواب القول الأول »[6] .

فالصعر إذاً هو أحد الألفاظ التي تدل على صفة من صفات المتكبر ومظهر من مظاهر كبره ، إذ المتكبر يميل خده أو عنقه ويعرض بوجهه عمن يخاطبه تعالياً عليه واستصغارا له ، فوجه صلته بالكبر هو هذا .

---

(١) انظر : لسان العرب ٣/٣٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٢١/٧٤.

(٣) أي : الخصومة.

(٤) انظر : تفسير الطبري ٢١/٧٥.

(٥) انظر : تفسير الطبري ٢١/٧٥ ، تفسير ابن كثير ٣/٤٥٥ . وهو قول مروي عن إبراهيم النخعي رحمه الله .

(٦) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٥.

الطغيان والكبر :

الطغيان في اللغة : مجاوزة الحدّ والقَدْر ، يقال : طغى ، يطغى ، طغيا ، ويطغو طغياناً ، أي : جاوز القدر وارتفع وعلا في الكفر ، وكل مجاوز حدّ العصيان طاغ؛ وطغى يطغى مثله ، وأطغاه المال ، أي : جعله طاغياً ، وطغى الماء والبحر : ارتفع وعلا على كل شيء فاخترقه[1] .

والطاغية : الجبار العنيد والأحمق المستكبر؛ وقيل : الذي لايبالي ما أتى يأكل الناس ويقهرهم لايثنيه تحرج ولافرق[2] .

بعد ماسبق يمكننا أن نعرف الطغيان بأنه : مجاوزة الحد في العصيان .

ويأتي الطغيان في القرآن الكريم وفي السنة على أوجه[3]، وهي كما يلي:

١ – **الضلال** ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [البقرة:١٥] .

٢ – **العصيان** ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**﴾ [طه:٨١] .

٣ – **الظلم** ، ومنه قوله تعالى : ﴿**أَلاّ تَطْغَواْ فِي الْمِيزَانِ**﴾ [الرحمن:٨] .

٤ – **التكبر**[4] ، ومنه قول الله تعالى : ﴿**كَلاّ إِنّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى . أَن رّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق:٧،٨] .

٥ – **الارتفاع والكثرة وتجاوز المحل** ، ومنه قوله تعالى : ﴿**إِنّا لَمّا طَغَا الْمَآءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**﴾ [الحاقة:١١] .

ومن خلال هذه المعاني للطغيان نستطيع أن نتبين وجه الصلة بينه وبين الكبر ، فالطغيان مجاوزة الحد والقدر ، وفي التكبر تجاوز لقدر ومكانة المتكبر إلى قدر لايستحقه ومكانة ليس لها بأهل .

والطغيان : العصيان ، وفي الكبر عصيان مبين لله رب العالمين ، إذ نهى سبحانه وتعالى عن التكبر ، وأمر بالتواضع فخالف المتكبر وعصى ربه ، بل ونازعه صفته التي لاتليق إلا به سبحانه وتعالى .

---

(١) لسان العرب ٢٣١/١٩.

(٢) لسان العرب ٢٣١/١٩.

(٣) انظر : نزهة الأعين النواظر ص ٤١٣،٤١٤ ، وجوه القرآن ص ٣٥٠ .

(٤) وجوه القرآن ص ٣٥٠ .

والطغيان: الظلم، والتكبر: ظلم عظيم، إذ يظلم المتكبر نفسه بتعرضه لسخط الله تعالى وغضبه، ويظلمها بكسبه بغض عباد الله ومقتهم له، كما أنه يظلم الحق بالاعتداء عليه ورده وتسفيهه، ويظلم الخلق باحتقارهم ورؤية نفسه فوقهم وغمطهم حقوقهم.

والطغيان: الارتفاع، وتجاوز المحل، والمتكبر يرتفع ويتعالى وينتفش حتى يطغى ويتجاوز قدره.

ومن معاني الطغيان: الضلال، وفي التكبر: ضلالٌ مبين، وتنكب عن طريق المهتدين، وبعد عن صفات المتقين.

وكما ورد ذم الكبر في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ورد كذلك ذم الطغيان والطغاة، ومن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾ [طه:٨١]، وقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ [العلق:٦،٨]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً. لِّلطَّاغِينَ مَآباً. لاَبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً. لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً. إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً. جَزَآءً وِفَاقاً. إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً. وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً. وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً. فَذُوقُواْ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً**﴾ [النبأ:٢١،٣٠]، ومن ذلك حديث: «**بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى**»(١).

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم والسنة النبوية من النصوص الذامة للطغيان والمبينة عاقبته تحذيراً منه وتنفيراً وترهيباً وتخويفاً.

وخلاصة القول في وجه الصلة بين الكبر والطغيان هو: أن الكبر درجة قبل الطغيان، والطغيان أعم منه، كما أنه من أعلى درجاته كما هو الحال في البغي والبطر. والله أعلم.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي عن أسماء بنت عميس الخثعمية قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بئس العبد تخيل واختال...» كتاب القيامة باب ١٧ وقال الترمذي: هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي. انظر: سنن الترمذي ٦٣٢/٤، قال العراقي: ورواه الحاكم في المستدرك وصححه، ورواه البيهقي في الشعب من حديث نعيم ابن عمار وضعفه. انظر: إحياء علوم الدين هامش ٤ص ١٣٦ مجلد٤.

العتو والكبر :

جاء في لسان العرب : عتا يعتو عُتُوّا وعِتِيّاً : استكبر وجاوز الحد ، والعتا : العصيان ، والعاتي : الجبار ، والعاتي : الشديد الدخول في الفساد ، المتمرد الذي لايقبل موعظة ، وتعتّى فلان : لم يطع ، وفي الحديث : « **بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى** »[1] . العتو : التجبر والتكبر[2] .

وعرّف الإمام الراغب العتوّ بأنه : النُّبوُّ عن الطاعة[3] ، أي : الخروج عن الطاعة إلى المعصية .

وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى التمرد والعصيان والاستكبار ، فقال تعالى عن قوم ثمود : ﴿**فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأعراف:٧٧] ، عتوا : تكبروا وتجبروا عن اتباع أمرالله تعالى واستعلوا عن الحق[4] ، وقال تعالى : ﴿**فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ [الأعراف:١٦٦] ، عتوا : تمردوا فيما نهوا عنه[5] ، وقال تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْاْ عُتُوّاً كَبِيراً**﴾ [الفرقان:٢١] ، عتوا عتواً كبيراً ، أي : تجاوزوا في الاستكبار بقيلهم ذلك حدّه[6] ، وقال تعالى : ﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـنِ عِتِيّاً**﴾ [مريم:٦٩] ، أي : عتوا وتمردا وعصياً وكفراً[7] ، وقال تعالى : ﴿**أَمَّنْ هَـذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**﴾ [الملك:٢١] ، أي : استمروا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار[8] ، وقال تعالى : ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر : لسان العرب ٢٧/١٥ ، ٢٨ ، باب الواو والياء ، فصل العين المهملة.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣.

(٤) تفسير الطبري ٢٣٢/٨.

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٠٠/١٩.

(٦) انظر : تفسير الطبري ١/١٩.

(٧) انظر : تفسير الطبري ١٠٧/١٦.

(٨) انظر : تفسير الطبري ٩/٢٩.

رَبِّهَا﴾ [الطلاق:٨] ، أي : تركته ولم تقبله[1] .

والخلاصة في معنى العتو أنه : التمرد وتجاوز الحد في العصيان والاستكبار ، كما تبين ذلك آنفاً من خلال بيان أهل اللغة والتفسير له .

وعلى ضوء هذا يظهر أن العتو أبلغ من الكبر وتظهر العلاقة بينهما من وجهين :

الوجه الأول : أن الكبر سبب مفضٍ إلى العتو ، فإن العتو سلوك منحرف ، والكبر يفضي إلى كل سلوك من هذا النوع ، فلايتمرد متمرد على كل ماهو حق ، ويتجاوز حده في العصيان إلا وهو يعتقد في نفسه عظمة تمنعه من الإذعان للحق ، وتقف حائلاً بينه وبين الكف عن كل قبيح من القول والسلوك .

الوجه الثاني : أن العتو يعتبر من الكبر الظاهر ، بحيث إذا ظهر العصيان والتمرد في سلوك المتكبر قيل عنه : عات ، فالعتو أمر ظاهر ملموس محسوس شأنه شأن التكبر .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٥٠/٢٨.

العجب والكبر :

العُجب في اللغة يدلّ على شدة السرور بالشيء المعجب به ، حتى لايعادله شيء عند صاحبه ، يقال : فلان معجَبٌ بنفسه إذا كان مسروراً بخصالها[1] ، مزهوا بما يكون منها حسناً أوقبيحاً[2] .

وفي الاصطلاح : « إعجاب المرء بنفسه هو : ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله ، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم »[3] .

وذكر الإمام الغزالي أن العُجب هو : استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعم[4] .

إذاً العجب يكون بالنفس وخصالها ، من حيث جمال الصورة وحُسن الصوت ، وعظم الخلقة ، وتمام القوة وكمال العقل .

كما يكون العجب بالمال ، وبالحَسَب ، وبكثرة الولد والعشيرة والأصحاب والأتباع والخدم .

وهذا كله من قبل العجب بالأمور الدنيوية ، حيث يركن الإنسان إلى هذه الأمور ويغتر بها ، ويفرح أشدّ الفرح ، ويستعظم نفسه لأجلها ، وينسى كونها نعم من الله تعالى يجب عليه أن يحافظ عليها ويستزيد منها ، وذلك بشكر المنعم المتفضل بها ومعرفة حقه سبحانه وتعالى فيها .

أما مايعجب به الإنسان من قِبل الدين ، فإنه يعجب بعلمه وعمله ، كما يعجب برأيه صواباً كان أم خطئاً[5] .

أما إعجابه بعلمه وعمله ورأيه الصواب ، فمن حيث استكثاره لعمله وعبادته وطاعته واستعظامه لعلمه ومعرفته واطلاعه وثقافته ، واستحسانه لرأيه وإضافة كل ذلك إلى نفسه حامداً لها عليه ، ناسياً نعمة ربه جل شأنه ومنته وتفضله عليه وإكرامه له .

---

(١) انظر : الفروق اللغوية ص٢٠٦،٢٠٧ .

(٢) انظر : لسان العرب ٧١/٢ فصل العين حرف الباء ، مادة عجب .

(٣) فتح الباري ٢٦١/١٠.

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ١٧٨/٤.

(٥) الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٨.

وأما إعجابه بالرأي الخطأ يكون منه ، فإن ذلك اتباع لهوى النفس ، وذلك غاية الخذلان ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[القصص:٥٠] .

وبالعجب بالرأي الخطأ هلك عامة الكفار وأهل البدع من أهل الإسلام ، وكذلك أهل الخطأ في الفتيا ، حيث يعتقدون صحة قولهم وصواب رأيهم ، فيستحسنونه بغير علم وضح لهم ولادليل تبين لهم ، فاسترشدوا به ، ولكنهم تأولوا أو قاسوا على غير قياس ، فأعجبوا بتأولهم وقياسهم وظنوا أنه الحق المبين ، والحق في غير ماذهبوا إليه ، ولكن غفلتهم وجهلهم سبب عجبهم(١) ، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[فاطر:٨] .

وبعد فإن بين العُجب والكبر صلة وقرابة كما أن بينهما اختلافا وافتراقا ، أما الصلة التي بينهما فمن وجهين :

الوجه الأول : أن الكبر والعجب كلاهما خلقٌ سيئٌ ، وصفةٌ قبيحةٌ ، وداءٌ مهلكٌ ، وكل من المعجب والمتكبر سقيمان ، يمقتهما الله تبارك وتعالى ويبغضهما عباده .

ولقد ورد ذم العجب والكبر في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم في كثير من النصوص .

أما الكبر فموضوع هذه الدراسة ، ومن المؤمل أن يوجد فيها ومن خلال مباحثها من أدلة الكتاب والسنة في ذمِّه ماالمرجو فيها السداد والتوفيق من الله تعالى .

وأما العجب فنكتفي ببعض الأدلة من الكتاب والسنة الواردة في ذمِّه وذلك من باب التذكير والتنبيه .

١ - قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾[التوبة:٢٥] .

---

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص٣٤٧،٣٤٨.

في غزوة حُنين[1] بلغ جيش المسلمين اثني عشر ألف مقاتل ، وهو عدد لم يبلغه جيش المسلمين في أي غزوة سابقة ، فلما رأى المسلمون كثرة عددهم أُعجبوا به حتى قال قائلهم : لن نُهزم اليوم من قلة[2] .

وتلك لحظة من لحظات ضعف النفوس البشرية حين تنسى مصدر النصر وسببه الحق ، اعترت بعضهم ، فكان هذا الدرس الإلهي لهم ليعلموا أن النصر من عند الله تعالى وبتأييده وتقديره ، ولادخل للعدَد والعُدَد فيه قلة وكثرة ، ولهذا ما أجْدَت كثرتهم عنهم شيئاً إذ بغتهم العدو ، فولوا مدبرين لايلوون على شيء ، وما ثبت إلارسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أصحابه ، ثم أنزل الله تعالى نصره وتأييده لرسوله وللمؤمنين بعد أن بلغ بهم الحال كما وصف الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة:٢٥] .

قال ابن كثير في تفسيره : « قال ابن جريج[3] عن مجاهد : هذه أول آية نزلت من براءة يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لابعددهم ولابعُددهم ، ونبّههم على أن النصر من عنده قلّ

---

(١) واد بين مكة والطائف ، وكانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، تفسير ابن كثير ٣٥٧/٢.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل عن الربيع أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾.

(٣) الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم : أبوخالد وأبوالوليد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج القرشي الأموي المكي ، مولى أمية بن خالد ، صاحب التصانيف ، وأول من دوَّن العلم بمكة ، حدث عن عطاء بن أبي رباح فأكثر وجود ، وعن ابن أبي مليكة ونافع مولى ابن عمر...الخ ، وحدث عنه : ثور بن يزيد الأوزاعي والليث والسفيانان...الخ ، مازال يطلب العلم حتى كبر وشاخ ، كان من أوعية العلم ، ومن أصدق الخلق لهجة وأحسنهم صلاة ، وكان يرى المتعة فتزوج بستين امرأة وقيل بتسعين . مولده سنة ثمانين ووفاته سنة خمسين ومائة للهجرة .
انظر : سير أعلام النبلاء ٣٢٥/٦ــ٣٣٦ .

الجمع أو كثُر، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده وإن قلّ الجمع، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين»[1].

٢ - وهذه أيضاً أمثلة من كتاب الله تعالى لأصناف من المعجبين ركنوا إلى ما أُعجبوا به من قوة ومال وسلطان وحسب وعلم وعمل، فقادهم ذلك العُجب إلى الاستكبار والتعالى، بل وفي أحيان كثيرة إلى البغي والطغيان، وكان أن وكلهم الله تعالى إلى ماركنوا إليه وأعجبوا به، فضلّوا عن سواء السبيل، ونالوا من الله تعالى الجزاء الأوفى، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

أ - أعجب صاحب الجنتين بما أُوتي من المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وافتخر بذلك على صاحبه الفقير وقال له: ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾[الكهف:٣٤]، ودخل جنته وقد أخذت زخرفها، وطاب ظلها، وعذب ماؤها، وأينعت ثمارها، وأصبحت بهجة للناظرين، فأخذ به العجب كل مأخذ، ونطق بلسان الجاهل بربه وبنفسه وبحقيقة الحياة الدنيا؛ المتكبر المتعالي بما أوتي قائلاً: ﴿**مَآ أَظُنّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً**﴾[الكهف:٣٥]، وتمادى في تعاليه وتعاظمه حتى أنكر وجحد اليوم الآخر، فقال: ﴿**وَمَآ أَظُنّ السّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رّدِدتّ إِلَىٰ رَبّي لأجِدَنّ خَيْراً مّنْهَا مُنْقَلَباً**﴾[الكهف:٣٦]، إنه يقول: إن الساعة لن تقوم ولن يكون هناك بعث ونشور، وعلى سبيل الفرض لو كان هناك رجعة إلى الله لكان حالي خيراً مما أنا عليه الآن، هكذا سوّلت له نفسه المستعلية وخيل له كبره وتغطرسه البغيض فكان من الكافرين.

ولأن قدرة الله لاحدود لها، ولأنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ولأنه جل وعلا هو المعطي وهو المانع، كان لابد أن ينال ذلك الجاحد جزاء تكبره وكفره، فما هي إلا لحظات معدودة وإذا بكل ذلك النعيم يصبح هشيماً تذروه الرياح، وإذا بذلك المغرور الجاهل ينتبه من غفلته

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٥٦،٣٥٧.

فيضرب كفاً بكف ندماً وحسرة، ولكن: لات ساعة مندم[1].

إن القادر الحكيم قد أمر، و﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[يس:٨٢]، وقال تعالى: ﴿**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً**﴾[الكهف:٤٢،٤٣]، والحقيقة التي لاجدال فيها هي: ﴿**هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾[الكهف:٤٤]، فلامال ولابنون ولاجاه ولاسلطان ولاغير ذلك نافع صاحبه أو مغن عنه شيئاً مالم يكن الإيمان بالله هو القائد والمنطلق.

ب – ومنّ الله تبارك وتعالى على قارون بالمال الكثير حتى إن مفاتحه يعجز عن حملها الجماعة الأقوياء، لكن قارون نسي أن ذلك نعمة وتفضل من الله تعالى، وأعجب بما أوتي، فبغى وطغى واستكبر وتعالى، وقال مستعظماً لنفسه: ﴿**إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾[القصص:٧٨]، يقول إنه ما أوتي ذلك المال الكثير إلا لمحبة الله تعالى له وعلمه أنه أهل لذلك مستحق له[2]، وكذب فيما زعم وادّعى، ولهذا ردّ الله جل جلاله عليه زعمه بقوله تذكيراً وترهيباً ووعيداً: ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً**﴾[القصص:٨٧]، إن الدنيا يعطيها الله تعالى لمن أحب ولمن لم يحب، لكن الإيمان والتقوى لايعطيه إلا لمن يحب، لهذا فكم هم أولئك الذين مُتِّعوا بالكثير من زينة الحياة الدنيا أهلكهم الله بكفرهم وعدم شكرهم، وما أغنت عنهم دنياهم شيئاً.

ونال قارون مانال غيره من المستكبرين وحق عليه العذاب وجُعل عبرة لكل معتبر: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾[القصص:٨١].

ج – وأعجب قوم عاد بقوتهم وبطشهم وقالوا: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾[فصلت:١٥]، ناسين قوة الله القوي المتين، ولهذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا**

(١) مثل يضرب لمن يندم على الشيء يفعله بعد فوات الأوان.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤١٠.

﴿يَجْحَـدُونَ﴾ [فصلت:١٥] .

ولما كانت قوتهم هي سبب استكبارهم وغرورهم ، أرسل الله عليهم من خلقه وجنوده ريحاً جعلهم ﴿صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] ، فما أغنت عنهم قوتهم ومانفعهم بطشهم .

د - وقد يعجب المؤمن بقوته أيضاً ويتكل عليها ، فيبتليه الله تبارك وتعالى رحمة منه سبحانه وتعالى ليتذكر فيعود إلى الحق ، ومن ذلك ما ذُكر عن سليمان عليه السلام أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، تحمل كل واحدة فارساً يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فحرم ماأراد من الولد(١) .

هـ كما قد يعجب المؤمن بعمله وطاعته ، وقد كان طلحة بن عبيدالله(٢)

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الجهاد ، باب من طلب الولد للجهاد ٤١٧/٤ ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠] ، ٦٢٥/٤ ، وفي كتاب النكاح باب قول الرجل : لأطوفن الليلة على نسائي ٧٧/٧ ، وفي كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي كتاب كفارات الأيمان ، باب الاستثناء في اليمين ٥٤٨/٨ ، وفي كتاب التوحيد باب في المشيئة والإرادة ٨٠٩/٨ ، وأخرجه مسلم في كتاب الأيمان ١٢٧٥/٣ .

أقول : والحديث وإن كان فيه دلالة على قوة نبي الله سليمان عليه السلام وقدرته الكبيرة على إتيان النساء -وتلك من خصائص الأنبياء- إلا أن قوله هذا هو من باب تمني الخير إلا أن شيئاً عرض له فنسي أن يقول : إن شاء الله مع اليقين بأنه عليه السلام لم يغفل عن التفويض إلى الله تعالى بقلبه ، أما العجب الذي أشار إليه الحارث المحاسبي في « الرعاية » ٣٦٠ والذي ذكرته هاهنا فيقينا ليس هو العجب الذي عرفناه بأنه الركون إلى النعمة مع نسيان إضافتها للمنعم سبحانه وتعالى ، فمن عرف حال الأنبياء وأدبهم مع الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم أعظم من أن يعجبوا بشيء هذا العجب الذميم .

انظر : شرح الحديث في فتح الباري ٥٧١/٦ ، ٧٤٢/١١ ، ٧٤٣

(٢) هو : طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو ، القرشي التيمي المكي ، أبومحمد ، أحد العشرة المشهود بهم بالجنة ، ممن سبق إلى الإسلام وأوذي في الله ، غاب عن
<=

صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه عمله العظيم يوم أُحد، إذ فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه حتى قال عمر رضي الله عنه: مازال يعرف في طلحة نأو[1] منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن طلحة رضي الله عنه لم ينقل عنه أنه احتقر مسلماً بسبب هذا[2].

وبكل تأكيد فإن عجب طلحة ماكان إلا اعتزازاً وفرحاً بماقام به من عمل صالح عظيم يوم أحد، يوم أن فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وجاهد دونه أعظم الجهاد رضي الله عنه وأرضاه.

وليت الواحد منا له مثل هذه الأعمال الصالحة الجليلة أو قريباً منها يعتز بها ويرجو عظيم ثوابها عند الله تعالى كما كان حال طلحة رضي الله عنه، ولكن هيهات أن تساوى حصاة جبلاً، إنما نرجو رحمة ربنا ومغفرته فرحمته وسعت كل شيء وهو سبحانه وتعالى أهل التقوى وأهل المغفرة.

ونحن إذا أعجب الواحد منا فإنما يعجب بزينة من زينة الحياة الدنيا وبقيمة من قيمها الرخيصة، ثم يكون منه التكبر والخيلاء، نسأل الله تعالى عفوه ورحمته.

ومن أدلة السنة النبوية على ذم العجب وأهله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[3].

وقوله صلى الله عليه وسلم: « **لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ**

=

بدر، وشهد أُحداً وأبلى فيها بلاء عظيماً، جواد فياض بالخير، قتل في سنة ست وثلاثين يوم الجمل مع علي رضي الله عنه، وهو ابن ثنتين وستين سنة أو نحوها رضي الله عنه.

انظر: سير أعلام النبلاء ٢٣/١، اسد الغابة ٥٩/٣.

(١) أي: عجب.

(٢) انظر: الرعاية لحقوق الله ص٣٩٢.

(٣) حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء ٢٦٦/٧، وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة ١٦٥٣/٣، ١٦٥٤. واللفظ للبخاري.

فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ»[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » .

وقال ابن مسعود[3] رضي الله تعالى عنه : « الهلاك في اثنتين : القنوط ، والعجب »[4] .

فهذه الأحاديث وغيرها دالة على ذم العجب وأهله ، ودالة على أنه داء خطير له عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة ، فإن الإنسان إذا أُعجب نسي ذنوبه ، وإن ذكر شيئاً منها استصغره واستقله ، وما نسيه من ذنوبه لم ير أنه ينبغي أن يتوب منها ، وما استصغره لم يَخَفْ منه ، فيبقى في كلا الحالتين مقيم على ذنوبه فيهلك .

كما أن الإنسان إذا أعجب زكى نفسه ، فإذا زكاها لم يتهمها بالتقصير ، ولم تعظم عليه مخالفتها لأمر ربها ، ومع هذا يظن أنها ناجية[5]، وقد قال الله تعالى : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢] .

وإنما ذم العجب في كتاب الله وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لأنه -إضافة لما سبق- يدعو إلى أخلاق مذمومة شتى ، ومنها الكبر ،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ، من حديث إياس بن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه ٣٦٢/٤ ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الإمام الحبر فقيه الأمة أبوعبدالرحمن عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ، المكي ، المهاجري ، البدري ، حليف بني زهرة ، من السابقين الأولين ، هاجر الهجرتين ، روى وحوى علماً كثيراً ، أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أشبه الصحابة بهدي الرسول صلى الله عليه وسلم وسمته ، مناقبه جمة كثيرة . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه وأرضاه .

انظر : سير أعلام النبلاء ٤٦١/١ ، أسد الغابة ٣٥٦/٣ .

(٤) الرعاية لحقوق الله ٣٣٦. ولم أقف على مرجع سواه .

(٥) انظر : المصدر السابق .

والمن بجميع أعماله واستعظام النفس، والعمى عن آفاتها، والأمن من مكر الله وعذابه، والثناء على نفسه ومدحها وتزكيتها، والنظر إلى غيره باستخفاف واستجهال، والإصرار على الخطأ، وعدم قبول النصيحة ولهذه الآفات وغيرها من آفات العجب المؤدية إلى العواقب الوخيمة في دين الإنسان ودنياه، عُدَّ العجب من المهلكات[1].

الوجه الثاني من أوجه الصلة بين العجب والكبر هو: أن العجب أصل الكبر ومبدؤه، وأعظم أسبابه المؤدية إليه، فالمتكبر لابدّ أولاً أن يكون معجباً بنفسه أو بما أوتي من صفات الكمال الديني والدنيوي كالعلم والعبادة والمال والجاه وغيرها، فإذا أُعجب المرء بذلك كانت تلك أول خطوة يخطوها في سُلَّم الكبر الذي أوله عُجب، وأوسطه جبروت وبغي وطغيان، ونهايته كفر بالواحد الديان.

وأما الاختلاف الذي بين العجب والكبر فمن جهتين أيضاً:

الوجه الأول: أنه ليس من الضروري أن يكون المعجب متكبراً، إذ قد يُعجب الإنسان بنفسه ويستعظم ما أُعطي من دين أو دنيا، ولكن لايتعظم ولايستعلي به على أحد، فيكون حينئذ معجباً، لأنه نسي منة الله تعالى بذلك وركن إلى ما أعطي ولايكون متكبراً لأنه لم يستطل بذلك على أحد ولم يحقره، فلايكون متكبراً إلا إذا أُعجب بنفسه، ثم نظر إلى غيره نظرة احتقار وازدراء وانتقاص[2].

الوجه الثاني: يختلف العجب والكبر في عناصرهما، فللكبر ثلاثة عناصر:

١ - متكبر.

٢ - متكبَّرٌ عليه.

٣ - متكبَّرٌ به.

أما العُجب فله عنصران فقط هما:

١ - مُعجَبٌ.

---

(١) انظر: الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧، وإحياء علوم الدين ١٧٧/٤.

(٢) انظر: الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧، وإحياء علوم الدين ١٤٤/٤.

٢ - معجَبٌ بـه .

وليس هناك معجب عليه ، بمعنى أن الإنسان يكون معجبا وإن لم يكن هناك غيره ، لكنه لايكون متكبراً إلا مع وجود غيره ، وهو يرى أنه فوقه في دين أو دنيا[1] ، لذلك عُرِّف الكبر بأنه : الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه[2] ، كما عُرِّف العجب بأنه : ملاحظة النفس بعين الكمال مع نسيان نعمة الله[3] .

---

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٣٧ ، وإحياء علوم الدين ٤/١٤٤.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/١٤٤.

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح عن القرطبي ١٠/٢٦١.

العدوان والكبر :

عدا ، العدو : التجاوز ومنافاة الالتئام ، فتارة يعتبر بالقلب ، فيقال له : العداوة والمعاداة ، وتارة بالمشي فيقال له : العَدْوُ ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة ، فيقال له : العُدْوانُ والعَدْوُ ، وتارة بأجزاء المَقَرّ ، فيقال له : العَدْواء ، يقال : مكان ذو عَدْواء ، أي : غير متلائم الأجزاء(١) .

يقال : عدا فلان عَدْواً وعُدُوًّا وعُدْوَاناً وعداءً ، أي : ظلم ظلماً جاوز فيه القدر .

والعادي : الظالم ، وأصله : من تجاوز الحد في الشيء .

والاعتداء والتعدي والعدوان : الظلم ، وكذلك العداء بالفتح والمد .

وعدا الأمر يعدوه وتعدّاه : تجاوزه ، وكذا : عدا قدره وطوره .

والتعدي : مجاوزة الشيء إلى غيره(٢) .

هذا مجمل ماذكره أهل اللغة في معنى لفظة (عدا) ومشتقاتها ، وخلاصته : أن العدوان أصله : مجاوزة الحد والقدر والحق .

وهذا المعنى هو الذي جاءت عليه النصوص الشرعية العديدة ، وفسر بذلك من قبل أهل الشأن ، مثل قول الله تعالى : ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا**﴾[البقرة:٢٢٩] ، أي : فلاتتجاوزوها(٣) . وقوله تعالى : ﴿**فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾[المعارج:٣١] ، أي : الذين عدوا ماأحل الله لهم إلى ماحرم عليهم ، فهم الملومون(٤) .

وفي الحديث : « **سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ** »(٥) ، أي : يخرجون فيه

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٨.

(٢) انظر : لسان العرب ١٥/٣٢ــ٣٤.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١/٢٨٤.

(٤) انظر : تفسير الطبري ٩/٨٤.

(٥) أخرجه أبوداود من حديث عبدالله بن مغفل رضي الله عنه في كتاب الطهارة ، باب في الإسراف في الماء ١/٢٤ ، وفي كتاب الصلاة باب الدعاء ٢/٧٧ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وأخرجه ابن ماجه من حديث عبدالله بن مغفل في كتاب الدعاء ، باب كراهية الاعتداء في الدعاء ٢/٤٤٩ ، وأخرجه أحمد من حديث سعد ١/١٧٢ ، ١٨٣ ، وأخرجه من حديث عبدالله ٤/٨٦ ، ٨٧ ، ٥/٥٥.

عن الوضع الشرعي والسنة المأثورة[1] .

العلاقة بين العدوان والكبر :

على ضوء ذلك المعنى للعدوان وماعرفناه سابقاً من معنى الكبر ، فإن العلاقة بينهما هي : أن الكبر يعد معنى من معاني العدوان ، إذ العدوان مطلق الظلم ، فيدخل تحته كل صورة للظلم ، ولاشك أن الكبر من تلك الصور البغيضة ، فالمتكبر ظالم لنفسه حين يعرضها لغضب الله تعالى ومقته ، وبغض العباد وذمهم ، وظالم لغيره يتطاول عليه ، وظالم للحق بتعاليه عن الإذعان له وأنفته من قبوله .

ومن وجه آخر فإن الكبر سببٌ للعدوان ، فالمتكبر الذي لايرى أحداً فوقه لايتورع أبداً عن العدوان بصورتيه : عدوان على الحق ، وعدوان على الخلق .

وحين نتأمل قصص المتكبرين في كتاب الله تعالى تظهر لنا في سلوكياتهم هاتان الصورتان من العدوان ، عدوان على الحق بعدم قبوله وبالصد عنه وبمحاربته وأهله ، وعدوان على الخلق بتحقيرهم واستعبادهم ، بل وبإيذائهم وتقتيلهم .

وكمثال لهذه الصورة من الظلم والعدوان في سلوك المتكبرين ننظر إلى آيات من كتاب الله تعالى قصت علينا من خبر فرعون الذي علا وتكبر في الأرض علواً وكبراً كبيراً ، ففرعون عليه لعنة الله جحد الحق الذي دونه كل حق ، قال الله تعالى : ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:٢٣] ، وجاءته آيات الله البينات ، فكذب بها واستكبر ، قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ . فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ . فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ الْمُهْلَكِينَ** ﴾ [المؤمنون:٤٥ــ٤٨] ، وفرعون استعبد واسترذل العباد وأفسد في الأرض أيما إفساد ، قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص:٤] .

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٣/٣.

فهذا أحد المتكبرين يظهر هذا العدوان المبين في سلوكه، وغيره من المتكبرين هذا حالهم كل بحسب درجته من التكبر، وسيأتي بإذن الله تعالى ذكر قصص المتكبرين في فصل مستقل من فصول هذه الرسالة، والمؤمل أن تذكر على وجه حسن وبالله التوفيق.

وخلاصة ماسبق أن العدوان صورة من صور الكبر الظاهر، وهو أبلغ من الكبر، فالكبر قد يبقى خلقاً في النفس لايظهر له أثر، لكن العدوان غير ذلك. والله تعالى أعلم.

أوجه العدوان في القرآن :

ذكر العدوان في القرآن على وجهين[1] :

أحدهما : الظلم الصراح، ومنه قول الله تعالى : ﴿**وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة:٢] .

والثاني : السبيل، ومنه قول الله تعالى : ﴿**فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة:١٩٣] .

---

(١) انظر : نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي ص٤٣٢.

العزة والكبر :

ذكر الراغب أن العزة : حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب ، من قولهم : أرض عزاز ، أي : صلبة ، وتعزز اللحم : اشتد ، وعزّ : كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه[1] .

والعزة في أصل لغة العرب تعني : القوة والشدة والغلبة والقهر[2] ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة:٥٤] ، أي : أرقّاء على المؤمنين رحماء بهم ، أشداء على الكافرين غلظاء بهم[3] . وقوله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾ [النساء:١٣٩] ، أي : يطلبون عندهم المنعة والقوة[4] . وقوله تعالى : ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**﴾ [ص:٢٣] ، أي : غلبني ، وقيل : صار أعز مني في مخاطبته إياي ؛ لأنه إن تكلم فهو أبين مني ، وإن بطش كان أشد مني ، فقهرني[5] .

وقد تستعار العزة للقلة ، من قولهم : عزّ الشيء ، أي : قلّ[6] .

كما قد تستعار للصعوبة ، ومن ذلك قول الله تعالى في وصف رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ [التوبة:١٢٨] ، أي : صعب[7] .

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٢.

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢٨/٣.

(٣) انظر : تفسير الطبري ٢٨٦/٦.

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٤٤/٢٣ ، مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣.

(٦) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣ ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٣٥٩.

(٧) انظر : المصدرين السابقين.

كما قد تستعار للحمية والأنفة المذمومة[1]، يعني الكبر، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، أي: هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً[2]، تحمله العزة حمية الجاهلية على الفعل بالإثم، أي: بالظلم والعزة والتكبر والمنعة[3]. وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:٢]، أي: حميَّة ومشاقة وتكبر واستكبار وتجبر[4].

أقول: وكما جاء في كتاب الله الكريم وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن العزة الحقيقية هي لله تبارك وتعالى، فهو العزيز القوي القاهر الغالب القادر القدير المقتدر، يقول الله عزوجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر:١٠]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء:١٣٩]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥].

ففي هذه الآيات البينات تأكيدٌ إثر تأكيد على أن الله جل جلاله هو المنفرد بالعزة بكل وجه منها لاشريك له ولامطمع لغيره فيها[5]، ومن هنا جاء في الحديث الصحيح: «الْعِزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»[6]، فههنا بيان أن العزة والكبرياء صفتان لله تعالى ينفرد بهما عمن سواه، فكما أن الإزار والرداء يشملان صاحبهما ولايكون له فيهما مشارِك، فكذلك العز والكبرياء بالنسبة لله جل جلاله لاينبغي أن يشركه فيهما أحد[7].

ويبين الإمام النووي أن الضمير في «إزاره ورداؤه» يعود إلى الله سبحانه

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ٣٣٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/٣/١٥.

(٣) انظر: تفسير البغوي ١/١٨٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٢٣/١١٨، تفسير ابن كثير ٤/٢٨، فتح القدير ٤/٤١٩.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١١/١٣٩، ١٢٠، الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢١٠، تفسير ابن كثير ١/٥٧٩، فتح القدير ٤/٣٤١.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعاً في كتاب البر ٤/٢٠٢٣، باب تحريم الكبر.

(٧) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٢٨.

وتعالى للعلم به، وأن في الحديث محذوف تقديره: قال الله تعالى: ومن ينازعني ذلك أعذبه، قال: ومعنى: ينازعني: يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك، قال: وأما تسميته إزاراً ورداءً فمجاز واستعارة حسنة، معناها: أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له، قال: فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق وله ألزم واقتضاهما جلاله[1].

ولما كانت العزة لله تعالى وحده يعز بها من يشاء ويذل من يشاء، فإنه وصف أولياءه بها فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، والمعنى: أن القوة والغلبة لله وحده ولمن وهبها له وأفاضها عليه من رسله وصالحي عباده لالغيرهم[2]، فما عزة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أنفسهم وبأنفسهم، ولكنها من الله وبالله سبحانه وتعالى، فهم أعزاء به سبحانه، هو الذي يمدهم بالقوة والشدة والغلبة والمنعة ويؤيدهم بالنصر والتمكين.

وهذه الآيات نزلت في شأن المنافقين حين قال قائلهم[3] وكانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة من الغزوات[4] -كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، يعنون بالأعز أنفسهم، وبالأذل: رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فنزلت هذه الآية الكريمة لدفع هذا الباطل والإفك وزهقه مبينة أن العزة لله تعالى ولأوليائه وأحبائه رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

لقد استعز المؤمنون بطاعة ربهم وعبادته وتوحيده، فكانوا أهلا لأن

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم ١٦/١٧٣.

(٢) انظر: فتح القدير ٥/٢٣٢.

(٣) هو رأس النفاق: عبدالله بن أبي بن سلول، وفي ذلك حديث مخرج في الصحيحين وغيرها.

(٤) هي كما ذكر غزوة بني المصطلق من خزاعة، وهي غزوة المُرَيسيع، قال ابن إسحاق سنة ست، وقال موسى بن عقبة سنة أربع.

انظر: ماعلقه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق ٥/٢٢٢، وانظر ذكر الغزوة في سيرة ابن هشام٢/٢٨٩.

يمنحهم جل جلاله العزة في الدنيا والآخرة. واستعز غيرهم من المنافقين والكافرين بمن لايملك العزة ولايستحقها، وطلبوها من غير واهبها، فمانالوا إلا الذل والخزي في الدارين، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً. كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

إن الذي ينشد العزة عليه أن يلتمسها من مصدرها، ولامصدر لها سوى الله رب العزة والجلال، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠]، وهذا تنبيه لذوي الأقدار والهمم لمعرفة من أين تنال العزة، ومن أين تُستَحق، فمن طلبها وصدق في طلبها من الله تعالى بافتقار وذل وسكون وخضوع وجدها عنده غير ممنوعة ولامحجوبة عنه، ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده[1]، ولن ينال شيئاً؛ لأن فاقد الشيء لايعطيه.

ومن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر ويدخل دار العزة فليقصد بالعزة: الله تعالى والاعتزاز به، فإنه من اعتز بالعبد أذله الله، ومن اعتز بالله أعزه سبحانه وتعالى[2]، فلقد اعتز المؤمنون بالله فأعزهم، وجعل العزة لهم، كما جعلها لنفسه جل جلاله، ولقد استعز المنافقون بأهل الشرك والكفر، فعادوا بالذل وباؤوا بالصغار، وجاء تقريعهم وتوبيخهم بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٣٩]، فهذا الاستفهام في الآية هو لتقريع أولئك المنافقين الذين قصدوا ابتغاء العزة ممن لايملكها، فوبخهم الحق سبحانه وتعالى وبين لهم أن العزة له كلها جل جلاله[3]، وهو المعز سبحانه وتعالى الذي يهب العزة لمن يشاء من عباده[4] ويمنعها من يشاء منهم، فهو سبحانه وتعالى القائل في كتابه الكريم: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/١٤/٢١٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١/١٤/٢١٠.

(٣) انظر: فتح القدير ١/٥٢٦.

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٢٨.

قَدِيْرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

العزة في القرآن الكريم :

ذكرت العزة في القرآن الكريم على أوجه هي[1] :

١ - العظمة ، وهي عظمة بحق ، وذلك في شأن الله تعالى ، ومنه الآية الكريمة : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً** ﴾ [فاطر:١٠] ، وعظمة بغير حق ، وذلك في شأن العباد ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الشعراء:٤٤] .

٢ - المنعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ** ﴾ [النساء:١٣٩] .

٣ - الحَمِيَّة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ** ﴾ [ص:٢] .

٤ - الغلبة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ** ﴾ [ص:٢٣] .

٥ - الشدة والقوة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون:٨] .

العلاقة بين العزة والكبر :

قد تبين لنا مما سبق أن العزة في وجه من وجوهها تعني التعزز الذي هو الأنفة والكبر ومن ثم فإن العزة أعم من الكبر ، وعلاقته بها أنه وجه من وجوهها ، ولايكون هذا التعزز المذموم إلا في حق العباد حينما تأخذهم العزة بالإثم فيستعلون على الحق ويستكبرون عن قبوله ويتطاولون على الخلق ويأنفون منهم .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦] .

فهذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً[2] ، فهو يبدي من نفسه لمن حوله الصلاح ويدعي الخير ويظهر من ذلك مايبطن خلافه ، حتى إذا تولى

---

(١) انظر : نزهة الأعين النواظر ٤٣٤ ، وجوه القرآن ٣٩٠.

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢/٣/١٥.

مكانة فيهم إذا بباطنه الخبيث يظهر ، فإذا هو مَكرٌ وشرٌّ وفساد يهلك الحرث والنسل، فإذا ما نصح وذُكِّر بالله الذي كان يُشْهِدُه ويحلف به على مافي قلبه من الخير وقيل له : اتق الله! ولاتفسد هذا الفساد ، إذا هو يتعزز ويأنف من أن يقال له ذلك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ ، أي : لم يقبل الوعظ بل حملته العزة حمية الجاهلية على الفعل بالإثم ، أي : بالظلم والتكبر والمنعة[1] .

وقال تعالى في وصف الكافرين : ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:٢] ، أي : في حمية وكبر وامتناع من قبول الحق[2] .

وقال تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] ، أي : ذق العذاب أيها المتعزز المتكرم في زعمك وفيما كنت تقوله[3] .

وجاء في الحديث في بيان سبب رفع قريش لِباب [الكعبة] عند بنائها قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : « **وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكِ رَفَعُوا بَابَهَا؟ قَالَتْ : قُلْتُ لاَ ، قَالَ : تَعَزُّزًا أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا إلاَّ مَنْ أَرَادُوا ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدَعُونَهُ يَرْتَقِي حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ** » ، أي : فعلوا ذلك تكبراً وتشدداً على الناس ، وجاء في بعض النسخ (تعزراً) براء بعد زاي من التعزيز ، أي : التوقير ، فإما أن يراد توقير البيت وتعظيمه ، أو تعظيم أنفسهم وتكبرهم على الناس[4] .

ولقد كانت قريش تظهر الاستكبار والتعظم بحرم الله جل جلاله كما بين الله تعالى ذلك فقال : ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٦،٦٧] ، أي : أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله يولوا عنها كراهة أن يسمعوها ، مستكبرين بحرم الله يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه ، يقولون لايظهر علينا فيه أحد ؛ لأنا أهله ، كما كانوا يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد الحرام أعظم الحقوق

---

(١) انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) ١/١٨٠.

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٥/٣/٢ ، زاد المسير ٩٩/٧ ، تفسير ابن كثير ٢٨/٤ ، فتح القدير ٤١٩/٤.

(٣) انظر : فتح القدير ٥٧٩/٤.

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٢٨/٣.

والمنـازل على النـاس فيسـتكبرون لذلـك[1] .

وخلاصـة القـول فـي العلاقـة بيـن العـزة والكـبر أن الكـبر مـن معانيهـا ولايكـون إلا فـي حـق العبـاد ، وأمـا العـزة الحقـة فللـه تعـالى لايشـاركه فيهـا أحـد ، إلا أنـه سـبحانه يهـب منهـا لعبـاده المؤمنيـن مايشـاء مـن الغلبـة والنصـر والشـدة والتمكيـن . والله أعلـم .

---

(١) انظـر : تفسـير الطـبري ٣٨/١٨ ، الجـامع لأحكـام القـرآن ٩١/١٢/٦ ، تفسـير ابـن كثـير ٢٥٩/٣ ، مجمـوع الفتـاوى ١٦٣/١١.

العظمة والكبر :

العِظَم بكسر العين خلاف الصِّغَر ، عظُم كصغُر عِظَماً وعظامه فهو عظيم وعُظَام كغراب وزُنَّار[1] عُظَّام .

وعظَّمه تعظيماً وأعظَمه : فخَّمه وكبَّره[2] .

واستعظمه وأعظمه : رآه عظيماً[3] .

واستعظم الرجل وتعَظَّم : تكبَّر[4] .

والعظمة والعُظَّامة كرُمَّانة ، والعظموت : الكبر والنخوة والزهو[5] .

هذا مجمل ماذكر في معنى العظم في اللغة ، ومنه يتبين لنا أن العظمة والتعظم بمعنى الكبر والتكبر ، فتكبر : رآى نفسه كبيراً ، وكذا تعظم : رآى نفسه عظيماً .

والعظمة في الحقيقة لاتكون إلا الله عزوجل فهو سبحانه وتعالى العلي العظيم الذي جاوز قدرُه وجل عن حدود العقول حتى لاتتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته[6] .

جاء في الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ** »[7] .

ففي هذا الحديث ضرب الله عزوجل الإزار والرداء مثلاً في انفراده بصفة الكبرياء والعظمة ، أي : ليستا كسائر الصفات التي قد يتصف بها الخلق مجازاً

---

(١) انظر : القاموس المحيط ١٤٧٠.

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : لسان العرب ١٢/٤٩٠ ، القاموس المحيط ١٤٧٠.

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٥٩ ، ٢٦٠.

(٧) أخرجه أبوداود في كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر ٤/٥٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر والتواضع ٢/٥٥٧ ، وأحمد ٢/٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، وانفرد به ابن ماجه بإخراجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢/٥٥٧.

كالكرم والرحمة وسواها ، وشبه الله عزوجل هاتين الصفتين بالإزار والرداء ؛ لأن المتصف بهما يشملانه كما يشمل الرداء والإزار الإنسان ، ولآنه لايشاركه في إزاره وردائه أحد ، فكذلك الله عزوجل لاينبغي أن يشركه فيهما أحد[1] ، ولله المثل الأعلى .

ولايوصف العبد بالعظمة إلا إذا أريد بها كبره وتجبره الذي به ينازع ربه العلي العظيم صفة كبريائه وعظمته التي لايستحقها سواه تبارك وتعالى ، ولآجل ذلك توعده الله عزوجل بأن يقذفه في النار كما في الحديث الذي أمامنا .

ولايقذف الله تعالى عبداً من عبيده في نار جهنم إلا وهو غضبان عليه ، والمتعظم هذا حاله يوم يلقى ربه الجليل سبحانه وتعالى ، فقد جاء في الحديث : « **مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ** » ، والتعظم هو الكبر .

وخلاصة ماسبق أن العظمة في حق الله تعالى هي صفته التي تليق به جل جلاله ، فهو العظيم عظمة لايقدر قدرها إلا هو عزوجل .

أما العظمة في وصف العبد فهي التكبر بغير حق ، فعبد مخلوق لامنتهى لضعفه وعجزه وافتقاره ، ليس له من خصائص العظمة مثقال ذرة بل أصغر من ذلك . والله تعالى أعلم .

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٤.

العلو (الاستعلاء) والكبر :

معنى العلو :

علا : العُلْوُ ضد السُّفْل ، والعُلُوُّ : الارتفاع ، وقد علا يعلو عُلْواً ، وهو عال ، وعَلِيَ يَعْلى علاً فهو عليٌّ[1] .

والفرق بين عَلا وعَلِيَ أن علا في القدر والأمكنة [illegible] ، وهي في الأول أكثر ، وقيل : إن علا يقال في المحمود والمذموم ، وعَلِيَ في القدر والشأن ، فالعلي هو الرفيع القدر ، ولايقال إلا في المحمود[2] .

والعلي في وصف الله تعالى معناه ، يعلو أن يحيط به وصف الواصفين وعلم العارفين[3] .

ووصف الله جل جلاله نفسه بالعلو في عشرين وخمسة مواضع تارة بلفظ [تعالى] وأخرى بلفظ [العلي] ، وثالثة بلفظ [الأعلى] ، ورابعة بلفظ [المتعال] ، ومن ذلك قوله عزوجل : ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل:١] ، وقوله تعالى : ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٩٢] ، والمعنى : ارتفع وعلا عزوجل عن أن يكون له مثيل أو شريك أو ظهير ، وعلا عزوجل عن شرك المشركين ووصفهم إياه بما يصفون[4] ، ممالايليق بجلاله وعزته وملكوته .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ**﴾ [الحج:٦٢] ، فالله هو العلي ، أي : ذو العلو على كل شيء وكل شيء دونه ، والله هو الكبير ، أي : العظيم الذي كل شيء دونه ولاشيء أعظم منه سبحانه وتعالى[5] .

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿**سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الأعْلَى**﴾ [الأعلى:١] ، لاربّ أعلى منه وأعظم ، أقول : بل لارب على الحقيقة إلا هو سبحانه وتعالى

---

(١) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص٣٤٥.

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : المصدر السابق .

(٤) انظر : تفسير الطبري ٥٨/١٤ ، ٥٠/١٨.

(٥) انظر : تفسير الطبري ١٩٦/١٧.

رب كل شيء ومليكه .

وحيث وصف الله تعالى نفسه بلفظ التفاعل (تعالى) فإن ذلك منه على سبيل المبالغة لا على سبيل التكلف كما يكون من البشر[1] ، قال الله تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ﴾ [الرعد:٩] .

العلو في القرآن الكريم :

ذكر العلو في القرآن الكريم ودل على المعاني التالية :

١ - الارتفاع في المكان ، أو في القدر والمكانة .

وكل علو وصف به الله عزوجل فإنه يشمل هذين الوجهين .

أما علو المكان فعلوٌّ يليق بجلاله سبحانه ، نثبته له كما أثبته هو لنفسه في كتابه الكريم وبقوله المبين ، وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة ، ونُفَوِّضُ كيفيته إليه سبحانه وتعالى : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى:١١] .

وأما علو القدر وجلاله ، فمَن أجلّ وأعلى ممن له مقاليد السموات والأرض؟ ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . اللَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى** ﴾ [طه:٥ـ٨] .

قال الله تعالى في شأن نبيه إسماعيل عليه السلام : ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً** ﴾ [مريم:٥٧] ، أي : إلى مكان ذو علو وارتفاع[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنعام:١٠٠] ، أي : تنزه الله علا فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلة من ادعائهم له شركاء من الجن واختراقهم له بنين وبنات ، وقوله [تعالى] تفاعل من العلو والارتفاع[3] .

---

(١) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص٣٤٥.

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٦/٩٦.

(٣) انظر : تفسير الطبري ٧/٢٩٨.

٢ - الغلبة والقهر :

فقولك استعلى على الناس بمعنى غلبهم وقهرهم وعلاهم[1] ، ومنه قول الله تعالى : ﴿**فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمّ ائْتُواْ صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**﴾ [طه:٦٤] ، أي : قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره[2] .

والله عزوجل هو الذي علاخلقه فقهرهم بقدرته[3] ، قال تعالى : ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد:٩] ، (الكبير) الذي كل شيء دونه ، (المتعال) : المستعلي على كل شيء بقدرته[4] .

٣ - التنزه عمالايليق :

ومنه قوله تعالى : ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٩٢] .

٤ - العظمة والتكبر والتجبر :

يقال : علا فلان في الأرض إذا استكبر وطغى[5] .

فما كان من ذلك في وصف الله تعالى فهو بحق ، فهو جل وعلا العظيم الجبار المتكبر، قال تعالى : ﴿**سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الأعْلَى**﴾ [الأعلى:١] .

وما كان في وصف العباد فهو استعلاء بغير حق ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَإِنّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرْضِ وَإِنّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [يونس:٨٣] ، وقوله تعالى : ﴿**وَقَضَيْنَآ إِلَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنّ فِي الأرْضِ مَرّتَيْنِ وَلَتَعْلُنّ عُلُوّاً كَبِيراً**﴾ [الإسراء:٤] ، وقوله تعالى : ﴿**تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ**﴾ [القصص:٨٣] ، فقد ذكر أهل التفسير في معنى العلو الوارد في هذه الآيات أنه التكبر والتجبر والطغيان والتعظم[6] .

---

(١) انظر : لسان العرب ٣٢٤/١٩.

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٨٤/١٦.

(٣) انظر : لسان العرب ٣١٨/١٩.

(٤) انظر : تفسير الطبري ١١٣/١٣.

(٥) انظر : لسان العرب ٣١٧/١٩.

(٦) انظر على سبيل المثال : تفسير الطبري ٢٠/١٥ ، ٢٧/٢٠ ، ١٢٢ ، تفسير ابن
<=

٥ - الشــرف :

ومنـه قـول اللـه سبحانه فـي وصـف السـموات : ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه:٤] ، والمعنـى : أنهـا الأشـرف والأفضـل بالإضافـة إلـى هـذا العـالم[١] .

هل الاستعلاء يـذم مطلقـاً؟

الاستعلاء هـو : طلـب العلـو ، وقـد يكـون كمـا ذكـر الراغـب : طلـب العُلـوّ المذمـوم ، أي : التكـبر والاسـتطالة ، وقـد يكـون طلـب العـلاء -بفتـح العيـن المهملـة- أي : الرفعـة وشـرف المكانـة بـالحق والعـدل ، قـال : وقولـه تعـالى : ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:٦٤] ، مـن قـول سـحرة فرعـون حيـن جمعهـم فرعـون لغلبـة موسـى عليـه السـلام يحتمـل الوجهيـن[٢] .

جـاء فـي فتـح القديـر : «وأمـا العلـو : فـالممنوع منـه ماكـان علـى طريـق التكـبر علـى الغـير والتطـاول علـى النـاس ، وليـس منـه طلـب العلـو فـي الحق والرئاسـة فـي الديـن ، ولامحبـة اللبـاس الحسـن والمركـوب الحسـن والمـنزل الحسـن»[٣] .

علاقـة العلـو بـالكبر :

ممـا سـبق نسـتخلص أن العلـو والكـبر مترادفـان بمعنـى العظمـة ، والاسـتعلاء كالتكبر فـي الوجهيـن المذكوريـن آنفـاً . واللـه تعـالى أعلـم .

=

كثـير ٢٧/٣ ، ٣٩١ ، ٤١٢ ، فتـح القديـر ١٥٨/٤ ، ١٨٨ ، ٤٤٥.

(١) انظـر : معجـم مفـردات ألفـاظ القـرآن الكريـم ص٣٥٨.

(٢) انظـر : المصـدر السـابق .

(٣) فتـح القديـر ١٨٨/٤.

الفخر والكبر :

في اللسان : الفَخْرُ والفَخَرُ والفُخْرُ والفَخَار والفخَاره...التمدح بالخصال وعد القديم ، وقد فخر يفخر فخراً وفخرة حسنة...فهو فاخر وفخور ، وكذلك افتخر ، وتفاخر القوم : فَخَر بعضهم على بعض ، والتفاخر : التعاظم ، والتَّفَخُّر : التعظم والتكبر... ، وفَخِيرُك : الذي يفاخرك... ، وقوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد:٢٣] ، الفخور : المتكبر[١] .

وقال الراغب : الفخر : المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويقال له : الفَخَرُ ، ورجل فاخرٌ وفخور وفِخِّيرٌ على التكثير... ، ويقال : فخرت فلاناً على صاحبه أفْخَرَه فخراً ، حكمت له بفضل عليه ، ويعبر عن كل نفيس بالفاخر ، يقال : ثوب فاخر ، وناقة فخور : عظيمة الضرع كثيرة الدر ، والفَخَّار : الجِرارُ ، وذلك لصوته إذا نُقِر ، كأنما تُصُوِّر بصورة من يكثر التفاخر[٢] .

وفي النهاية : « الفخر : ادعاء العِظَم والكِبْر والشرف »[٣] .

وفي تفسير الطبري : الفخور : « هو المفتخر على عباد الله بما أنعم الله عليه من آلائه ، وبسط له من فضله ، ولايحمد على ماآتاه من طَوْله ، ولكنه به مختال متكبر ، وعلى غيره به مستطيل مفتخر »[٤] .

وحين التأمل فيما سبق تظهر لنا علاقة الفخر بالتكبر ، وهي : كونه مظهراً من مظاهر التكبر وصفة من صفات المتكبر ، فإن المتكبر يتباهى بتعداد ماحباه الله تعالى من النعم دون شكر له سبحانه ، ولوعدها شكراً وتحدثاً بنعمة الله غير مختال بها ، لما ذُمّ ذلك منه ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدد نعم ربه تعالى ، وهو الذي أمره الله تعالى بقوله : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبّكَ فَحَدّثْ** ﴾ [الضحى:١١] ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « **أَنَا سَيِّدُ**

---

(١) انظر : لسان العرب ٣٥٤/٦ ، ٣٥٥.

(٢) انظر : المفردات في ألفاظ القرآن ٣٧٤.

(٣) النهاية في غريب الحديث ٤١٨/٣.

(٤) تفسير الطبري ٨٤/٥ ، وقد ذكر نحو هذا عن مجاهد وابن جريج . انظر : ٨/١٢ .

وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ... »(١) ، أي : لاأقول ذلك تبجحاً ، ولكن شكراً للَّه وتحدثاً بنعمه(٢) .

ومما يدل على أن الفخر من مظاهر التكبر ، أنه ذكر في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، في ثلاثة منها ذكر مقروناً بالاختيال تالياً له ، وقرن في الرابع بفرح الأشر والبطر ، وفي الموضع الخامس ذكر في معرض ذم الحياة الدنيا ، وأنها حياة لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد ، وكل ذلك مآله إلى الفناء والزوال .

والمواضع التي أشرنا إليها هي كالتالي :

١ - قال تعالى : ﴿**وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**﴾ [النساء:٣٦] .

٢ - وقال تعالى : ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان:١٨] .

٣ - وقال تعالى : ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد:٢٣] .

٤ - وقال تعالى : ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة بني إسرائيل ٣٠٨/٥ ، وفي كتاب المناقب ، باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ٥٨٧/٥ ، وقال : حسن صحيح في الروايتين ، والحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة ٥٩٥/٢ ، واشار البوصيري إلى ضعف علي بن زيد بن جدعان ، أحد رجال الإسناد ، ثم قال : إلا أن للمتن شواهد كثيرة . انظر : كفاية الحاجة بهامش السنن ٥٩٥/٢ .
وأخرجه أحمد في مسنده ٢/٣ ، وأخرجه عن ابن عباس ٢٨١/١ ، ٢٩٥ ، وأخرجه عن أنس بن مالك ١٤٤/٣ ، وأخرج نحوه عن أبي بكر رضي الله عنه ٥/١ .

(٢) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٤١٨/٣.

عَنِّيَ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:٩ـ١٠] .

٥ – وقال تعالى : ﴿اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠] .

ومما يدل كذلك على كون الفخر من مظاهر الكبر قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» .

والحديث يدل بمفهومه على أن الكبر يؤدي إلى الفخر والبغي .

والخلاصة أن الفخر من مظاهر الكبر والعظمة .

الفرح والمرح والبطر والأشر ، والكبر :

هذه الألفاظ تتداخل معانيها وتتقارب ، بحيث قد فسر أهلُ العلم بعضَها ببعض ، ولعل الفرق اللطيف بينها هو : أن بعضها أبلغ من بعض على النحو الذي يأتي من خلال ماذكر من كلام أهل العلم حولها . وقد جمعتها هنا لهذا السبب راجياً أن أكون قد وفقت للصواب .

أما الفرح فهو كما ذكر الإمام الراغب : انشراح الصدر بلذة عاجلة ، قال : وأكثر مايكون في اللذات البدنية[1] .

وعرفه الإمام البغوي[2] بأنه : لذة في القلب بنيل المشتهى[3] .

وماسبق يعني : أن الصدر ينشرح والقلب يجد لذة وسروراً حينما يتحقق للإنسان مايشتهيه ويطلبه .

أقول : وقد فسر الفرح المنهي عنه والوارد ذمه في كتاب الله الكريم بأنه : فرح الأشر والبطر كما سيأتي قريباً بعد الانتهاء من تعريف بقية الألفاظ .

وأما المرح فقيل : هو شدة الفرح والتوسع فيه ، وقيل : هو التكبر في المشي ، وقيل : تجاوز الإنسان قدره ، وقيل : هو الأشر والبطر ، وقيل : هو النشاط .

وأما البطر فهو الطغيان عند النعمة[4] ، وعرفه الراغب بأنه : دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن الكريم ٣٨٩.

(٢) الإمام الحافظ الفقيه أبومحمد الحسين بن مسعود الفراء ، ولد في أوائل العقد الرابع من القرن الخامس الهجري في بلدة (بغشور أوبغ) من بلاد خراسان ، شافعي المذهب . رحل كثيراً في طلب العلم فأوتي منه الكثير حتى لقب بالإمام ومحي السنة وشيخ الإسلام ، محدث ، فقيه ، مقرئ ، لغوي ، جامع لعُلوم القرآن والسنة ، دَيـِّنٌ زاهد عابد . كانت وفاته مابين (٥١٠هـ - ٥١٦هـ) بعد أن بلغ الثمانين أو تجاوزها رحمه الله تعالى ورضي عنه . من تآليفه : شرح السنة والتهذيب في الفقه الشافعي.

(٣) انظر : تفسير البغوي (معالم التنزيل) ٣٧٥/٢.

(٤) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٣١٧/١٠ ، وقد ذكر ابن حجر أن هذا هو أصل البطر ، قال : واستعمل بمعنى التكبر .

وجهها[1] ، وذكر بأنه أبلغ من الفرح[2] .

وذكر الشيخ الدكتور/عبدالرحمن حبنكة الميداني[3] بأن البطر يستعمل في عدة معان ، قال : ففي المشي والحركة والعمل يدل على التبختر والخيلاء والخروج عن حد الاعتدال والاتزان في ذلك ، قال : وعند مفاجأة النعمة يدل على التصرف المعبر عن الدهش والحيرة وقلة الاحتمال ، وعند دوام النعمة الكثيرة يدل على الطغيان فيها والخروج عن حد الاعتدال إلى الإسراف والتبذير والاستهانة ، قال : وفي أحوال المسرة يدل على شدة المرح والإفراط فيه ، قال : وعند مواجهة الحق يكون البطر بالاستعلاء عليه والاستكبار عن قبوله والتفريط في شأنه والاستهانة به[4] .

وأما الأشر فقد ذكر الراغب بأنه شدة البطر ، قال : فالأشر أبلغ من البطر[5] . وذُكر بأن معنى الأشر : النشاط[6] .

هذا بعض ماذكره أهل العلم من معان للفرح والمرح والبطر والأشر ، ومنه يتضح الآتي :

أولاً : تقارب تلك المعاني وتداخلها ودلالة بعضها على بعض .

ثانياً : أن الفرح أصل لما يليه (أي للمرح والبطر والأشر) .

ثالثاً : أن الكبر سبب لها ، وهي من مظاهره في سلوك المتكبر .

رابعاً : أن المرح أبلغ من الفرح ، والبطر أبلغ من المرح ، والأشر أبلغ من البطر .

والفرح يمدح ويذم .

أما ماكان منه ممدوحاً فهو ماكان مقروناً بالشكر والتواضع والسكنية ، وأما المذموم فما كان مقروناً بالجحود والأشر والبطر ، أو كان فرحاً بمعصية أو بحصول لذة عاجلة فانية مع تفويت اللذة الحقة الدائمة كالفرح بالحياة

---

(١) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ٤٨ مادة (بطر).

(٢) نظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٤ مادة (أشِر) .

(٣) محاضر بقسم الشريعة في جامعة أم القرى بمكة.

(٤) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٢.

(٥) انظر : مفردات ألفاظ القرآن ١٤.

(٦) انظر : فتح القدير ٥/١٢٦.

الدنيا وشهواتها وزينتها والركون إليها وإيثارها على الحياة الآخرة الباقية .

وبتأمل النصوص الشرعية الواردة في هذا المجال يتضح لنا ماذكر من المقال ، فعلى وجه مدح الفرح جاء قول الحق سبحانه وتعالى في وصف الشهداء الذين قتلوا في سبيله : ﴿وَلاَ تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩ـــ١٧١] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مّمّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿لِلّهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ﴾ [الروم:٤] ، وقوله تعالى : ﴿وَالّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:٣٦] .

فهذه الآيات البينات ذكر فيها الفرح على وجه المدح ؛ لأنه فرح بحق ، فرح بنعمة الله تعالى وفضله ورحمته ونصره ، فرح لاأشر فيه ولابطر .

وأما ذكر الفرح على سبيل الذم والتنفير فقد كان هو الغالب في كتاب الله تعالى ، وذلك لأن غلبة الفرح والسرور يصحبهما التكبر والاختيال[1] .

وقد ذم الفرح في سبع عشرة آية من كتاب الله هي كالتالي :

قال الله تعالى : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران:١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلّواْ وّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة:٥٠] .

وقال تعالى : ﴿فَرِحَ الْمُخَلّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ﴾ [التوبة:٨١] .

وقال تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبَنّ الّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وّيُحِبّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنّهُمْ بِمَفَازَةٍ مّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨] .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٣٧/٦.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوآْ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر:٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣].

وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥].

وماذم الفرح في هذه الآيات البينات إلا لأنه فرح بغير حق، فكيف يفرح المنافقون والكفار بما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من السوء ويكون فرحاً بحق؟ أم كيف يفرح الإنسان بمايؤتيه الله من فضله فيطغى ويبطر ويجحد ولايشكر ويكون فرحه هذا بحق؟ أم كيف يفرح المرء بزخرف الحياة الدنيا ويفضله على نعيم الآخرة، ثم هو به أشر فخور فيكون فرحه هذا بحق؟

إذاً ينبغي للإنسان أن يكون فرحه إذا فرح بنعمة الله وفضله وأن يكون في فرحه هذا شاكراً مستكيناً غير بطر ولاأشر، فهذا هو الفرح الممدوح وماسواه فمذموم.

وإذا كان الفرح قد ذكر في نصوص الشرع على وجه المدح تارة وعلى وجه الذم أخرى، فإن المرح والبطر والأشر لم يذكروا إلا على وجه الذم فقط.

أما المرح فذكر في ثلاث آيات من كتاب الله تعالى:

أولها: قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾ [الإسراء:٣٧].

وثانيها: قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان:١٨].

وثالثها: قوله تعالى: ﴿**ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾ [غافر:٧٥].

وقد فسر المرح في هذه الآيات بأنه الأشر والبطر والمشي بتبختر وتمايل وخيلاء في غير شغل ولاحاجة، وذلك مشي الجبارين المتكبرين[1].

وأما البطر فذكر في آيتين من كتاب الله تعالى هما: قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَـآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [الأنفال:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ**

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٨٥/٤، ٨٦، الجامع لأحكام القرآن ١٦٩/١٠/٥، ٤٨/١٤/٧، تفسير ابن كثير ٤٣/٣.

لَـمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِـمْ إِلاّ قَلِيـلاً وَكُنّـا نَحْـنُ الْوَارِثِيـنَ﴾ [القصص:٥٨] .

وكلا الآيتين نزلتا في شأن قريش، فأما الآية الأولى فتحكي حالهم وقد خرجوا من مكة بطرين مختالين أشرين طالبين ثناء الناس والتمدح إليهم والفخر عندهم[١]، خرجوا لملاقاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله يقولون بطراً وفخراً: والله لانرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب، فلايزالون يهابوننا أبداً[٢].

ولقد تحقق لهم ماطلبوا، فسمعت بهم العرب وتناقلت خبرهم، لكن على غير ماأملوا، حيث كانت نتيجة بطرهم وصدهم عن سبيل الله أن أخزاهم الله وأذلهم فأمسوا على أرض بدر مابين قتيل وأسير أو هارب لايلوي على شيء.

وأما الآية الثانية ففيها وعيد لكفار مكة وتحذير لهم أن يبطروا نعمة الله تعالى عليهم ولايشكروها فيصيبهم ماأصاب البطرين قبلهم من الهلاك والدمار.

ومن نصوص السنة الشريعة في شأن البطر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**»[٣]. وقوله صلى الله عليه وسلم في الخيل: «**... وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ وِزْرٌ فَالَّذِي يَتَّخِذُهَا أَشَرًا وَبَطَرًا وَبَذَخًا وَرِيَاءَ النَّاسِ فَذَاكَ الَّذِي هِيَ عَلَيْهِ وِزْرٌ...**»[٤].

فالذي يجر إزاره بطراً -بفتح الطاء على المصدر، أو بكسرها على

---

(١) انظر: فتح القدير ٣١٥/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٩/١٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء ٢٦٥/٧.

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب الخيل لثلاثة... ٤٣٠/٤، وكتاب المساقاة، باب شرب الناس وسقي الدواب من الأنهار ٢٣٩/٣، وكتاب المناقب ٥٨/٥، وكتاب التفسير، باب فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره...٥٦٧/٦-٥٦٩، وكتاب الاعتصام ٨٧١/٨، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ٦٨٣/٢، باب إثم مانع الزكاة، وهذا لفظه، والحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحال- أي: تكبراً وطغياناً[1]، والذي يتخذ الخيل كذلك على هذا الحال كلاهما مرتكبان معصية تستوجب العقوبة من الله سبحانه وتعالى.

وأما الأشر، ففيه آيتان من كتاب الله عزوجل هما:

قوله تعالى: ﴿**أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ**﴾ [القمر:٢٥،٢٦]، وفسر الأشر بأنه: مجاوزة الحد في الكذب[2]، كما فسر بأنه المرح والنشاط، أو البطر والتكبر، قيل: وهو أنسب بالمقام[3].

ومن السنة أيضاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَبِيتَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى أَشَرٍ وَبَطَرٍ وَلَعِبٍ وَلَهْوٍ فَيُصْبِحُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ بِاسْتِحْلَالِهِمُ الْمَحَارِمَ وَالْقَيْنَاتِ وَشُرْبِهِمُ الْخَمْرَ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا وَلُبْسِهِمُ الْحَرِيرَ**»[4].

وخلاصة القول: أن ذكر المرح والبطر والأشر في كتاب الله تعالى وكذا فيما اطلعت عليه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد إلا على وجه الذم، أما الفرح فقد سبق ذكر مجيئه على وجهي الذم والمرح، إنما ثمة أمر ينبغي التنبه له، وهو: أنه قد ذكر أن من معاني المرح والأشر: النشاط، والنشاط إذا صحبه بطر وتكبر فلاشك في قبحه وذمه، أما إذا أريد به مايضاد الكسل ففي هذه الحالة يمدح ولايذم؛ لأن الكسل مذموم شرعاً والنشاط ضده.

أقول: ومماسبق قد اتضح لنا وجه الصلة بين هذه الأربعة وبين الكبر، وهو أنها من مظاهره في سلوك المتكبر، فالمتكبر يكون منه الفرح والمرح والبطر والأشر وكل ذلك بغير حق. والله أعلم.

---

(١) انظر: فتح الباري شرح البخاري ٣١٧/١٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤.

(٣) انظر: فتح القدير للشوكاني ١٢٦/٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ٣٢٩/٥.

الفصل الثاني :

دواعي الكبر وأسبابه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول :دواعي الكبر .

المبحث الثاني : أسباب الكبر.

هذا الفصل معقود للإجابة على تساؤلين هما :

بماذا يتكبر المتكبر؟ ولماذا يتكبر؟

وللإجابة على هذين التساؤلين قسمت هذا الفصل إلى مبحثين ، جعلت عنوان الأول : دواعي الكبر ، والثاني : أسباب الكبر .

وقد كنت قسمت هذا التقسيم قبل أن أطلع على كتاب « دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها » ، فلما وقفت عليه وجدت مؤلفه قد سبقني إلى هذا التقسيم ، وأني وافقته فيه ، غير أن الموافقة في الإجمال لم تستمر في التفصيل ، فقد ذكر هو خمسة دواعٍ وجعلها رئيسية ، وأشار إلى أنه قد يوجد غيرها هي أقل شأناً منها[1] ، بينما ذكرت أنا تسعة دواع ، كما حصل الاختلاف في ذكر الأسباب على النحو الذي سيأتي في حينه قريباً -إن شاء الله تعالى- وبالله التوفيق .

---

(1) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها ١٧٤ــ١٨٣.

المبحث الأول : دواعي الكبر

ويعنى هذا المبحث -كما سبق وأشرت- بالإجابة على التساؤل الأول الوارد في هذا الفصل من الرسالة ، وهو : بماذا يتكبر المتكبر؟

وسأذكر -بإذن الله تعالى- في هذا المجال أموراً تسعة متى ماحصّلها الإنسان أو حصلت له -كلها أو بعضها- كانت مدعاة لأن يستعظم نفسه لأجلها ، فيتكبر مزهواً بها ، لاعتقاده أنه بها يصبح في غنى عن غيره ، وفي أمن من بأسهم لانتفائها فيهم وتوفرها فيه[1] .

وكما يذكر الإمام الغزالي فإن العبد لايتكبر إلا حين يستعظم نفسه ، ولايستعظم نفسه إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال التي جماعها إلى كمال ديني ودنيوي .

فالديني هو : العلم والعمل . وأُضيفُ إليهما المعتقد[2] .

والدنيوي هو : النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار[3] .
وأضيف إليها الجاه والسلطان .

ولم يسم الغزالي هذه الأمور دواعياً ، وإنما سماها أسباباً[4] ، وبعد تدقيق النظر بدا لي أن أجعلها تحت مسمى (دواعي الكبر) ، وذلك لكون السبب هو : مايلزم من وجوده الوجود ، ومن عدمه العدم لذاته[5] .

وهذه الأمور بالنسبة للكبر ليست كذلك ، فلايلزم من وجود المال -مثلاً- وجود التكبر ، ومن عدمه عدمه ، وكذا الشأن في بقية الأمور المذكورة .

وإذا كانت هذه هي دواعي الكبر التي بها -في غالب الحال- يتكبر المتكبرون ، فلاشك أن هناك أسباباً جنحت بهم إلى التكبر بها ، وذلك ماسنحاول معرفته وإلقاء الضوء عليه في المبحث الذي يلي هذا المبحث بإذن الله تعالى .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ٣٠/٤٤٤ ، ٤٤٥.

(٢) وهذا ذكره صاحب كتاب [إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها] ١٧٥.

(٣) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٩.

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٩.

(٥) انظر : أصول الفقه الإسلامي د/وهبة الزحيلي ١/٩٤ ط الأولى ١٤٠٦هـ دار الفكر- دمشق.

الداعي الأول من دواعي الكبر : المعتقد .

أعني بالمعتقد : الدين الذي تدين به أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات ، وقد يكون ديناً باطلاً ومعتقداً فاسداً من أصله ، وقد يكون حُرِّف عن أصل صحيح .

فدين عُبَّاد الطاغوت من دون الله تعالى هو دين ومعتقد باطل وفاسد من أساسه ، ودين اليهود والنصارى له أصل صحيح ، لكنه لم يبق على ذلك الأصل ، بل حُرِّف وبُدِّل من قِبَلهم حسب أهوائهم .

وفي أمة الإسلام فِرق حادت في عقيدتها عن طريق الحق والصواب حتى أصبحت تلك الفرق كما قال الله عزوجل : ﴿ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾ [الروم:٣٢] .

أقول : تلك المعتقدات الفاسدة يزينها الشيطان لمعتقديها ، فيرونها حقاً لامرية فيه ، ولايمكن الرجوع عنه ، فيعضون عليها بالنواجذ لايحيدون عنها ، متبعين أهواءهم ، مستكبرين بها على غيرهم .

وإن المتأمل لقصص المتكبرين في القرآن الكريم ليجد أن من أسباب استكبار أولئك الأشقياء هو تعصبهم لمعتقدات باطلة زائفة توارثوها جيلاً إثر جيل فضلوا بها عن سواء السبيل .

فهؤلاء قوم نوح عليه السلام اتخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله ، فبعث الله عزوجل فيهم نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، ونبذ عبادة تلك الأصنام التي لاتملك من الأمر شيئاً لالنفسها ولالعابديها ، فبلّغ نوح عليه السلام رسالة ربه ودعا قومه إلى الحق بكل جهد وبكل أسلوب ، ولكنهم أصروا على الشرك بالله واستكبروا غاية الاستكبار عن توحيد الله ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مّبِينٌ . أَنِ اعبُدُواْ اللّهَ وَاتّقُوهُ وَأَطِيعُونِ . يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مّسَمّى إِنّ أَجَلَ اللّهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . قَالَ رَبّ إِنّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيَ إِلاّ فِرَاراً . وَإِنّي كُلّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوَاْ أَصَابِعَهُمْ فِيَ آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً . ثُمّ إِنّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً . ثُمّ إِنّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً** ﴾ [نوح:١_٩] .

دعوة في الليل والنهار سراً وعلانية بالترغيب تارة ؛ وبالترهيب أخرى ؛ وبلفت الأنظار إلى آيات الواحد القهار في الأنفس وفي الكون الدالة على وحدانيته وتفرده جل جلاله تارة ثالثة .

والنتيجة : ﴿ **جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِيَ آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً** ﴾ [نوح:٧] ، بل ويتواصون فيما بينهم هذه الوصية الجائرة : ﴿ **وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾ [نوح:٢٣] .

ولم كل هذا الاستكبار؟ حجتهم : أنهم على دين آبائهم الأولين ، قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتّقُونَ . فَقَالَ الْمَلأُ الّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَـذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لأنزَلَ مَلاَئِكَةً مّا سَمِعْنَا بِهَـذَا فِيَ آبَآئِنَا الأوّلِينَ** ﴾ [المؤمنون:٢٣،٢٤] .

وحذت عاد حذو قوم نوح فاستكبروا عن الإيمان بالله وحده عاكفين على دين آبائهم الأولين ، وفي شأنهم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **قَالُوَاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصّادِقِينَ** ﴾ [الأعراف:٧٠] ، يستكبرون عن عبادة الله وحده ، ويستعجلون عذابه أنفة أن يتركوا دين آبائهم .

وسلك قوم ثمود مسلك قوم نوح وقوم هود ، فاستكبروا عن التوحيد وأبوا أن يفارقوا دين آبائهم الزائف ، وقالوا لنبيهم صالح عليه السلام كما قص القرآن الكريم خبرهم فقال تعالى : ﴿ **وَإِلَىَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مّنَ الأرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمّ تُوبُوَاْ إِلَيْهِ إِنّ رَبّي قَرِيبٌ مّجِيبٌ . قَالُواْ يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَآ أَن نّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنّنَا لَفِي شَكّ مّمّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾ [هود:٦١،٦٢] .

وعلى ذلك النهج المعوج مضى قوم مَدْين ، فقالوا لنبي الله شعيب عليه السلام وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده كما ذكر الله تعالى عنهم : ﴿ **قَالُواْ يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نّفْعَلَ فِيَ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنّكَ لأنتَ الْحَلِيمُ الرّشِيدُ** ﴾ [هود:٨٧] .

وحجة المستكبرين عن توحيد الله هذه تتكرر فيرددها قوم إبراهيم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٦٩ــ٧٤] .

وتتكرر تارة أخرى على لسان فرعون وقومه المستكبرين، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ . فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ . قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ . قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٥ــ٧٨] .

وختم الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم صلواته وسلامه وبركاته بصفوتهم محمد صلى الله عليه وسلم فإذا مستكبروا أمته كالمستكبرين السابقين حجتهم واحدة واهية داحضة، يقول لهم صلى الله عليه وسلم كما أمره ربه جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت:٦] ، فيجيبونه بقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢] . وقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿صۤ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ . أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:١ــ٨] .

وإنها لعقيدة فاسدة يتوارثها كل المشركين بالله المستكبرين عن توحيده، فالله عزوجل يخاطب نبيه فيقول: ﴿وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم

مّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

هذا في جانب استكبار أهل العقائد الفاسدة من أصولها الذين تعصبوا لتلك العقائد وأنِفوا من تركها واتباع الدين الحق الحنيف الذي جاءت به رسل رب العالمين.

أما في جانب أهل العقائد المحرفة عن أصلها الصحيح وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فقد كان استكبارهم بعقائدهم المحرفة المنحرفة كاستكبار أولئك المشركين، بل أشد وأعظم.

فها هو القرآن الكريم يسجل عليهم أقوالاً لهم في غاية البجاحة والوقاحة والتعظم والاستكبار، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

وسبحان الله! هذا بهتان عظيم! فقوم اعتدوا على مقام الألوهية الجليل، فوصفوا الحق سبحانه وتعالى بمالايليق به، بل أحياناً وصفوه سبحانه وتعالى بما يتنزه عنه آحاد خلقه، وقوم بدلوا الدين الحق، وحرفوا الكتب المنزلة، وكذبوا الرسل وقتلوهم، يزعمون هذا الزعم الكاذب ويعتقدون هذا الاعتقاد الفاسد، هذا مالايصدقه من له مثقال ذرة من عقل وبصيرة.

ولما كان أهل الكتاب على هذا المعتقد الباطل، فإنهم لما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للرسل والأنبياء وأنزل عليه كتاباً مصدقاً لما سبقه من الكتب ومهيمناً عليها، وشرع له شرعاً ناسخاً لما قبله لايقبل من أحد سواه، وقفوا مستكبرين عن الإيمان به وبما أنزل إليه زاعمين -كذباً- أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم من الكتب، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١].

واستكبر أهل الكتاب بعقيدتهم المحرفة فجحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنكروا نبوته وهم الذين يصفهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦] .

نعم يعرفونه هذه المعرفة ، فقد بشرت به رسلهم ، ووصف لهم في كتبهم ، ولكن تأبى عليهم نفوسهم المستعلية المصابة بداء الهوى ترك معتقداتهم المحرفة المنحرفة «أنفة أن يكونوا تبعاً لغيرهم»(١) .

هذه الأنفة تفضحها مقالة هرقل ملك الروم حينما أشار على قومه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنفوا وغضبوا ، فقال لهم مطمئناً : «إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فلقد رأيت»(٢) .

فهذا القول من هرقل يدل دلالة بينة على تعصبهم لدينهم الذي دعاهم إلى التكبر على أصحاب الديانات الأخرى ومن بينها الدين الإسلامي الحنيف(٣) .

واليهود والنصارى وإن اتفقوا والمشركون على الاستكبار عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنفوا أن يتركوا معتقداتهم الباطلة والمحرفة ، إلا أن كل فريق منهم يرى أنه على الحق ، وأن الحق معه ، ويرى سواه ليس على شيء ، وفي بيان ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

---

(١) انظر : المغازي للواقدي ٥٠٢/٢.

(٢) جزء من حديث أبي سفيان مع هرقل ، أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ٦٢/١ ، وفي كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة ٤٥٤/٤ ، وفي كتاب التفسير باب : ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ..﴾[آل عمران:٦٤] ، ٣٦٠/٦.
والحديث أخرجه مسلم ، لكن بدون هذه العبارة المذكورة ، في كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ١٣٩٣/٣ . والحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد النبوي وسبل علاجها ص١٧٦.

﴿**الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [البقرة:١١٣]، والذين لايعلمون الذين قالوا مثل مقالة اليهود والنصارى، قيل: هم كفار العرب الذين لاكتاب لهم اقتدوا بأهل الكتاب؛ لأنهم جهلة لايقدرون على غير التقليد لمن يعتقدون أنه من أهل العلم. وقيل: هم طائفة من اليهود والنصارى لاعلم عندهم[1].

والآيات المذكورة سابقاً وهي قول الله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**﴾ [البقرة:١١١]، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ**﴾ [البقرة:١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ [المائدة:١٨].

هذه الآيات البينات تعني أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة[2]. فاليهود يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ويقولون: كونوا يهوداً تهتدوا، وهكذا تقول النصارى عن أنفسهم[3].

ولايقتصر أمر الاستكبار بالعقائد المحرفة والفاسدة على اليهود والنصارى والمشركين، بل هناك فرق ظهرت في أمة الإسلام حادت عن جادة الصواب، وانتحلت عقائد ماأنزل الله بها من سلطان، ووقفت كل فرقة عند معتقدها لاتحيد عنه ولاتبتغي به بدلاً، ترى أنها على الحق وسواها على الباطل، يقرأ أصحابها النصوص الشرعية فيتأولونها بحسب أهوائهم ومايوافق إراداتهم، كل فرقة مستكبرة في نفسها، محقرة لغيرها دون إنصات لصوت الحق وداعيه، ينطبق عليهم قول الحق جل جلاله: ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [الروم:٣٢].

واقع معكوس:

أقول: ولئن استكبر أولئك الهالكون من اليهود والنصارى بعقائدهم الضالة المنحرفة التي ورَّثها لهم آباؤهم، وأبوا إلا التمسك بها والانتصار لها

---

(١) انظر: فتح القدير ١/١٣٠.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: فتح القدير ١/١٢٩.

وتمجيدها وتبجيلها ، فإن الإمة الإسلامية اليوم ابتليت بأقزام يتطاولون على عقيدتها وشريعتها ، متبعين كل ناعق من شرق وغرب .

هؤلاء الأقزام يستكبرون عن الانقياد لعقيدة سلفهم الصالح الزاكي ، يرون ببصائر مطموسة عمهة أنها لاتصلح لحاضر الزمن ، فقد انتهى زمن صلاحيتها وعادت لاتنفع زمن الحضارة والتقدم كما يزعمون ، ولذا فإن المتمسك بها هو عندهم متخلف متأخر رجعي...

وخابوا وخسروا ، فإن دين الإسلام الذي بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم دين أكمله الله تعالى لهذه الأمة وارتضاه لها ، وجعله خاتماً للأديان ، فهو دين صالح لكل زمان ومكان ، تحمل شريعته السعادة والخير والصلاح والفلاح للبشرية في الدنيا والآخرة .

وليس ذنب هذا الدين العظيم أن بدا المنتسبون إليه متأخرين عن ركب الحضارة المادية ، فإنهم هم الذين أهملوا وقصروا وتكاسلوا وتقاعسوا مخالفين في ذلك تعاليمه التي تدعو إلى الجد والمثابرة والسعي والعمل ، والإفادة مما بثه الله عزوجل في هذا الكون الفسيح من أسرار وعجائب وآلاء لاتحصى ولاتعد ، فالله عزوجل يقول في الدستور الخالد لهذه الأمة : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ [الملك:١٥] ، ويقول تعالى : ﴿**هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ**﴾ [هود:٦١] ، وهو القائل جلا وعلا : ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ [الأنفال:٦٠] ، إلى غير ذلك من النصوص الشرعية التي تحث أمة الإسلام على العمل الجاد المثمر الذي يقويها ويقودها إلى العزة والمجد وقيادة الأمم ، كما قد حصل لها ذلك في قرونها الأولى يوم أن كانت أمة مسلمة حقا كما أراد الله تعالى لها ومنها أن تكون .

إن أولئك البعداء الذين يستكبرون عن اتباع هذا الدين القويم ويستنكفون عن الانقياد لتعاليمه السامية ويرون وهم المنسوبون إليه والمحسبون عليه أنه دين أفل نجمه ، ماهم إلا ثلة جهلوا دينهم ، ومنهم من تربى ونشأ بين أحضان اليهود والنصارى وعلى أعينهم وتغذى من ثقافتهم الضالة المضلة ، فإذا هو ينهق كنهيقهم ، مردداً مايقولونه عن قصد منهم ماكر

خبيث، وجهل منه وغباء كبير عن ديننا الإسلامي الحنيف، مع أن الله تعالى قد عراهم وكشف سرائرهم وأبان عن نياتهم الخبيثة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ [البقرة:١١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة:١٢٠].

وخلاصة القول: أن المعتقد يعد داعياً من دواعي التكبر كما قد رأينا فيما سبق من أمثلة لاستكبار أهل المعتقدات الضالة والباطلة، تبين موقفهم المعاند المكابر من العقيدة الصحيحة التي جاءت بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فلقد استكبروا عن قبول تلك العقيدة السليمة أنَفة أن يتركوا معتقداتهم الفاسدة التي تغلغلت في نفوسهم وأشربوها في قلوبهم فعسر عليهم مفارقتها، حتى إن تبين لهم بطلانها وفسادها، وليس أدل على ذلك من موقف أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وقف معه وسانده وآزره وناصره، ولكنه لم يفارق دين آبائه مع شدة حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هدايته حتى آخر لحظات حياته الدنيوية، ففي الحديث الصحيح: «لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَاللَّهِ بن أَبِي أُمَيَّةَ بن الْمُغِيرَةِ فَقَالَ: **أَيْ عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللَّهِ بن أَبِي أُمَيَّةَ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ، حَتَّى قَالَ أَبُوطَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ... »(١). وجاء في بعض روايات الحديث: قال رسول

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لاإله إلا الله ٥٨٦/٢، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب ١٣١/٥، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة براءة، باب ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...، ٤١١/٦، وتفسير سورة القصص، باب إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وفي كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لاأتكلم اليوم، فصلى...، ٥٣٥/٨.
وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، انظر: صحيح مسلم ٥٤/١.

الله صلى الله عليه وسلم : « **قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ، قال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ...**) الْآيَةَ »[1] .

وهكذا أودت أنفة أبي طالب أن يفارق معتقد أبيه الفاسد به إلى جهنم ، وبئس المصير .

ولم يكن أبوطالب إلا مثالاً لأقوام تبعوا ويتبعون آباءهم في معتقداتهم الجاهلية الباطلة ، والحق جليٌّ لهم ، ولكنهم في استكبار عنه معرضين ، فبُعدا وسحقاً للقوم الظالمين .

---

(١) هذه الرواية عند مسلم ١/٥٥.

الداعي الثاني من دواعي التكبر : التكبر بالعلم .

إذا كان خطر الكبر على عامة الناس كبيراً...وفتنتهم به عظيمة ، فإنه على العلماء منهم خاصة أكبر خطراً وأعظم فتنة ، إذ هو أسرع إليهم ، وهم أقرب إلى التلبس به من غيرهم ، وذلك لأن للعلم جمالاً وكمالاً وعزة ، لايلبث العالم أن يستشعرها ، فيستعظمها لذلك ويستصغر سواها متعززاً بعزة العلم مزهوا بجماله وكماله[1] .

وعزة العلم وجماله وكماله هي : ثمار فضيلته ومكانته وشرف أهله ومكانتهم عند الله تبارك وتعالى ثم عند عباده .

أما عند العباد فإن للعلم قدراً رفيعاً ، والعلماء يتبوءون بينهم المكانة والمنزلة العالية ، يجلونهم ويوقرونهم ، ويحفظون لهم قدرهم ، ويعرفون لهم فضلهم تعظيماً وإجلالاً وإكراماً لما أوتوه من العلم الذي تتوقف سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة عليه ، وهم في أمسّ الحاجة إليه ، فالعلماء بالنسبة لسائر الناس نجوم هداية يهتدون بها في طريق سيرهم إلى ربهم تبارك وتعالى ، ومشاعل نور يبددون بها ظلمات الجهل والشرك والكفر والشبه والشكوك والفتن والضلال ، لذلك كان لهم منهم ذلك الإجلال والتبجيل الكبير ، وكان لهم بينهم ذلك القدر السامي والشرف العظيم .

وأما قدر العلماء عند الله جل جلاله وشرفهم لديه فعظيم جليل ، بينته الآيات من كتاب الله الكريم ، والأحاديث من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ليس هذا مجال بسطها ، ولكننا نستشهد بشيء منها كمفتاح لمن أحب أن يدخل من هذا الباب الجليل الشريف .

قال الله تعالى في فضل من يعلم الحق فيتبعه على من عمي عنه : ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ الْأَلْبَابِ**﴾ [الرعد:١٩] ، أي : أفهذا كهذا لاستواء[2] ، ﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ [الرعد:١٩] ، أي : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ١٤٩/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢.

الصحيحة[1]، ولاشك أن العلماء إذا أخلصوا لله وعملوا بما علموا هم أهل العقول السليمة الصحيحة.

وفي آية مشابهة لهذه يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْ الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر:٩].

وقال تعالى مبينا أن العلماء هم أهل الخشية الحقة له سبحانه وتعالى، لأنهم علموا من جلاله وعظمته مالم يعلم غيرهم: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالى معدلا أهلم العلم قارناً شهادتهم بشهادته سبحانه وتعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨]، فلقد استشهد الله عزوجل باهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكتهُ؛ وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه سبحانه وتعالى لايستشهد بمجروح[2].

ومن الأحاديث في بيان فضل العلم وشرف أهله عند الله عزوجل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[3]، وقوله صلى الله عليه وسلم: « **فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٥٢٨/٢.

(٢) مدارج السالكين ٤٩٠/٢.

(٣) الحديث متفق عليه من حديث معاوية رضي الله عنه، فقد أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ١٠٠/١، وفي كتاب فرض الخمس، باب قول اله تعالى: ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ [الأنفال:٤١] ٥١٢/٤، وفي كتاب الاعتصام، باب تعليم النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الرجال والنساء مما علمه الله ليس برأي ولاتمثيل ٧٥٧/٨.

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة ٧١٨/٢، ٧١٩، وفي كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم ١٥٢٤/٣.

الْخَيْرَ »[1] .

وإنما كان للعلم هذا القدر الجليل وتبوأ العلماء هذه الدرجة العالية لما للعلم من فوائد جمة جليلة يبينها العلماء العاملون الموفقون بتوفيق الله لهم، فتعود على العباد بالسعادة والفلاح، وتعود على الحياة بالخير والصلاح.

فالعلم هو الدليل إلى معرفة الله عزوجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهو الطريق القويم إلى الإيمان به الإيمان الصحيح، فمن سار في درب العلم وسلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلى الله تعالى من أقرب الطرق وأسهلها.

وإنه لاطريق إلى معرفة الله عزوجل حق المعرفة، وإلى الإيمان به حق الإيمان، ومن ثم الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة في جنته، إلا طريق العلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل كتبه، فهو الدليل عليه، والطريق المستقيم الموصل إليه[2]، من سلكه وصل، ومن تنكبه تاه وضل، ومن هنا ذكر الله تبارك وتعالى العلم فبدأ به قبل العمل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلا اللَّـهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩].

ولما كان العلم هو طريق الإيمان بالله تعالى ومعرفته حق الإيمان والمعرفة، كان العلماء هم أهل الخشية لله عزوجل، والخوف منه، لأنهم هم العارفون به سبحانه وتعالى وبصفاته ونعوت جلاله وعظمته المُقَدِّرُونه حق قدره عزوجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، أي: إنما يخشاه حق الخشية العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل، كلما كانت الخشية له أعظم وأكثر[3].

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه في كتاب العلم، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة. وقال: هذا حديث غريب. انظر: الجامع الصحيح ٥/٥٠.

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم ٣٧١.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٥٦١.

والعلماء كذلك هم الذين يفقهون عن الله آياته ويعقلونها ويتدبرونها ومن ثم يعملون بها ويهدون الناس إلى الخير بنورها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمـوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

وبالعلم يعبد الله تعالى ويُدعى إليه على بصيرة، وذلك سبيل الأنبياء، والعلماء ورثتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

وبالعلم يهتدي في ظلمات الجهل والشبه والشكوك والفتن[١]، فبه يرشد الضال ويهتدي الحائر، ومن هنا جاء الأمر بسؤال أهل العلم عما لا يعرفه السائل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

«والعلم ثواب جار مدى الحياة وبعد الممات»[٢]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»[٣].

والعلم سبب لنزول رحمة الله تعالى وسكينته وطريق للوصول إلى جنته، به يذكر العالمَ ربُّه في أعلى مقام بين الملائكة البررة الكرام، قال صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٤].

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ٣٧١.

(٢) الترغيب والترهيب ١/١٠٧، وهو من كلام المعلق: مصطفى محمد عمارة.

(٣) سنن الترمذي، كتاب الأحكام، قالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، عن أبي هريرة ٤/٢٠٧٤.

وأخرج البخاري جملة: "ومن سلك طريقا يطلب به علماً سهل الله له طريقاً
<=

ولفضل العلم وكرامته «فإن كل شيء يطلب المغفرة للعالم العامل بعلمه»[١]، وسبق ذكر الحديث الذي فيه: «**إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيرَ**»[٢].

ولاخير في الدنيا ولاقيمة لها عند الله تعالى إلا ماكان فيها من ذكر الله سبحانه وتعالى وماوالاه، ومن عالم يدعو إلى الرشاد، ومتعلم يطلب السداد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالاَهُ أَوْ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا**»[٣].

ورفع العلم وانتقاصه من أشراط الساعة، ولاتقوم الساعة إلا على شرار الخلق حين يفقد العلم، فلايوجد من يقول: الله، الله. ذلك أنه إذا رفع العلم حلّ محله الجهل، فحصل الهرج والمرج، واختلطت الأمور، ووقع الناس في الضلال؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ**»[٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[٥].

=

إلى الجنة؟ في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل ٩٩/١.

(١) الترغيب والترهيب ١٠٧/١، وهو من كلام المعلق: مصطفى محمد عمارة.

(٢) سبق قريباً.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، وقال: حسن غريب. انظر: الجامع الصحيح ٥٦١/٤.

(٤) مسند الإمام أحمد ١٥٧/٣ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ١٤٤/١، وفي كتاب الاعتصام، باب مايذكر من ذم الرأي وتكلف القياس ٧٥٦/٩.

وأخرجه مسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه ٢٠٥٦/٤، والحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

والعلماء العاملون بعلمهم ناجون من عذاب الله تعالى، مغفورة ذنوبهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله عزوجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لفصل عباده: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ماكان فيكم ولا أبالي**»(١).

والعالم ألدّ أعداء الشيطان، يهدم بنيانه، ويسفه رأيه، ويحاربه وأنصاره، ويحذر الناس من غوايته وإضلاله، ويدعوهم إلى العلم ميراث محمد صلى الله عليه وسلم (٢)، الذي به يهتدون ويرشدون، وإلى الجنة يسلكون، ومن النار يفرون، ولذلك تشتد عداوة الشيطان للعالم العامل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ**»(٣).

وأهل العلم العاملون به هم أهل الأخلاق الحميدة، والخصال النبيلة، لايستوون مع من لاعلم له، تفكر في هذه الآيات البينات التي تشير إلى هذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ. وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ. وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٨٤/٢، قال في المجمع: ورواته موثوقون ١٢٦/١، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ورجاله ثقات، ١٠٧/١.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب ١٠٧/١؛ من كلام المعلق.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة، وقال: هذا حديث غريب، ولانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم. انظر: الجامع الصحيح ٤٨/٥.

وأخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨٦/١.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:١٩، ٢٥].

وخلاصة القول: أن العلم لايتوقف نفعه على حدّ، «فهو كالغيث ينزل من السماء، فيقع على الظراب والآكام، وبطون الأودية، ومنابت الشجر»[(١)]، ويعم خيره الإنسان والحيوان والطير والشجر وكل مايصل إليه.

قال في «مدارج السالكين» -: دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة، والعلم هاد، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم وورّاثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول...ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال، وهو الحاكم المفرق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدى والضلال؛ به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد، ويُحمد ويمجد، ...، به تعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه توصل الأرحام، وبه تعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومُتابعتها يوصل إليه من قريب، وهو إمام والعمل مأموم، وقائد والعمل تابع.....والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام...وهو حجة الله في أرضه ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته، ومدنيهم من كرامته؛[(٢)].

إذاً وبعد أن تبين لنا هذا الفضل والشرف والخير العظيم للعلم، فلقائل أن يقول: إن العلم من شأنه -والحال كذلك- أن يورث الخشوع والسكينة، وأن يكون طريقاً للتواضع، لاللغرور والتكبر والاستعلاء، فكيف يحصل عكس ذلك؟! كيف نرى بعضاً ممن أوتي شيئاً من العلم يزداد به كبراً وغطرسة لاتواضعاً وسكينة؟!

والجواب على ذلك من وجهين كما ذكر الإمام أبوحامد الغزالي -عليه رحمة الله- قال: «فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟ فاعلم أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً حقيقياً، وإنما العلم الحقيقي مايعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء الله،

---

(١) مدارج السالكين ٤٨٩/٢.

(٢) انظر: مدارج السالكين ٤٨٩/٢، ٤٩٠.

والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع، دون الكبر والأمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، فأما ماوراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها، امتلأ بها كبراً ونفاقاً، وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة، وهذه تورث التواضع غالباً.

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أي علم كان، صادف العلم من قلبه منزلا خبيثاً، فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وَهْبٌ لهذا مثلاً فقال: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة، والحلو حلاوة، فكذلك العلم يحفظه الرجال، فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً، والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد مايتكبر به، فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً، علم أن الحجة قد تأكدت عليه، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً»[1].

ويتضح مما سبق من مقالة الإمام الغزالي أنه قسم العلم إلى علم حقيقي، وصناعة، وعنى بالعلم الحقيقي العلم الشرعي، علم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه هو العلم النافع الذي به يعرف العبد ربه ويعرف نفسه، فيعرف أنه عبد مربوب للرب الحق المعبود جل جلاله وتقدست أسماؤه، فإذا عرف العبد ذلك عظّم ربه ومعبوده تبارك وتعالى غاية التعظيم، وقدره حق قدره، وعلم أن الكبر لايليق إلا به، ولايكون إلاله، ولايستحقه إلا إياه، فإنه سبحانه وتعالى هو الخالق العلي الأعلى، ذو الجبروت والملكوت الأحد الصمد، الإله الحق، مالك الملك، رب العالمين، المتصف وحده بصفات العظمة والجلال، المنعوت وحده بنعوت الكمال

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٥٠.

والجمال، فقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾[المؤمنون:١١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الجاثية:٣٦،٣٧].

فإذا علم العبد ذلك وتيقنه يقيناً لامرية فيه، أدرك حقيقة نفسه وضآلتها، بل وضآلة كل ماسوى الله عزوجل، فعلم إذ ذاك أن اللائق به هو وكل العبيد الضعفاء الفقراء الأذلاء الذين لايملكون من أمرهم شيئاً إلا ماشاء الله وبإذنه وعلمه وعونه وتوفيقه، علموا أن اللائق بهم -وهذا شأنهم- إنما هو الإخبات والتذلل لله رب العالمين، والتواضع ولين الجانب لعباده الذين هم وهم في العبودية له تعالى سواء، العزيز منهم عنده والأكرم لديه والأقرب منه والأعلى مقاماً والأرفع درجة عنده أتقاهم له وأكثرهم له ذكراً، وأعظمهم له محبة وإجلالاً وأشدهم منه خوفاً ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، ﴿وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ:٣٧].

فشأن العلم الحقيقي إذاً أن يثمر التواضع والسكينة، ويورث الخشية والخضوع والاستكانة، فإذا حصل ضد ذلك من الأمن والغرور والكبر والخيلاء، فالسبب في ذلك هو ماذكره الإمام الغزالي بقوله: «أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة، رديء النفس، سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، ولم يرض نفسه في عبادة ربه، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم أي علم كان، صادف العلم من قلبه منزلا خبيثاً، فلم يطب ثمره، ولم يظهر في الخير أثره ...»[1].

وهذا الذي ذكره الإمام الغزالي ذو شقين:

الأول: أن المتكبر في هذه الحالة لم يتعلم العلم ليعمل به، بل كانت

(١) إحياء علوم الدين ٤/١٥٠.

نيته حين دخله وخاض في غماره غير صالحة ، أي : أنه لم يقصد من طلبه وجه الله تعالى ، ولم يخلص فيه نيته له سبحانه ، بل هدف في طلبه للعلم تحقيق رغبة دنيوية ، فقط .

فقد يكون طلبه ليذكر به في الناس ، أي : رياءً وسمعة ، لينتفش ويتعالى حين يقال عنه : عالم ، قارىء ، حافظ ، ...الخ .

وقد يكون طلبه ليحصل به شهادة ينال بها جاهاً أو منصباً يأكل من خلاله أموال الخلق بحق وبغير حق ، فهذا وأمثاله ممن يطلبون الدنيا بما يتعلمون يرون في التكبر مايحفظ لهم مقاصدهم الدنيا ، ويخشون إن تواضعوا أن يفقدوا حظوظهم ومطالبهم السفلية .

إن من يطلب العلم الحقيقي ليتوصل به إلى غرض دنيوي تافه زائل يحرم من أعظم ثماره وهي الخشية والخشوع والسكينة والتواضع ، ذلك أنه أصاب علماً جرى على لسانه دون أن يجاوز ترقوته ويصل إلى قلبه ، وعلم لاثمرة له في القلب هو علم لانفع فيه ولا يثمر إلاشوك الكبر وزقوم الأمن وحنظل الغرور والعجب والخيلاء ، وهو حينئذ يكون وبالاً وحجة على حامله .

إن العلم النافع هو ماكانت ثمرته في القلب ، لاماجرى على اللسان ، ولذلك جاء في الأثر : «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فِي الْقَلْبِ ، فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ ، وَعِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ ، فَذَلِكَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ**»[1] .

وفي كتاب الله تعالى ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً بيناً لمن أخذ العلم وحمله ، ولم يعمل به ، ولم يكن له من ثمرته نصيب ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[الجمعة:٥] .

وهكذا كل من أخذ من العلم شيئاً ولم يعمل به ، ولم يخالط قلبه ،

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة ، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله . وهو من قول الحسن ١/٧٠.

قال المنذري : رواه الخطيب في تاريخه بإسناد حسن ، ورواه ابن عبدالبر في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد حسن . انظر : الترغيب والترهيب ١/١٠٣.

مكتفياً بحفظ حروفه وترديد كلماته، مضيعاً حدوده، ماهو إلا كالحمار البليد الذي يحمل على ظهره أسفار العلم والحكمة والمعرفة دون أن يكون له من ثمارها اليانعة الدانية حظ وقسم.

ولقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن قوم من أمته حفظوا كتاب الله وقرءوه، لكنهم نبذوا العمل به وراء ظهورهم ولم ينتفعوا به حين قرءوه بألسنتهم، وأغلقت أبواب قلوبهم وبصائرهم دونه، فما جاوز تراقيهم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ أَوْ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ[1] فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رِصَافِهِ فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ**»[2].

ونذكر هنا والحديث عن الانتفاع بالعلم وعدمه المثل الذي ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الهدى والعلم وأقسام الناس في تلقيه وقبوله والانتفاع والنفع به، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ**

---

(١) أي: الصيد الذي ترميه فتقصده وينفذ فيه سهمك، وقيل: هي كل دابة مرمية. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/٢٦٨.

(٢) الحديث متفق عليه.

أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع ٥/٢٨٤، وفي كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٥/٤٧، وفي كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا.. ﴾[هود:٥٠] ٦/٥٩٣، وفي كتاب فضائل القرآن، باب من رأى بقراءة القرآن ٦/٦٠٣، وفي كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ٩/٢٢٧، وفي كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق ٩/٨٤٠.

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٢/٧٤٠ـ٧٥٠.

فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1] .

إن الغيث به غوث الأرض وحياتها ، ينزل من السماء فتحيى به بإذن الله بعد موتها ، لكن ليس الأرض كلها في ذلك سواء ، بل هي ثلاث بُقع كما بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بقعة طيبة صالحة إذا نزل الغيث قبلته وخالط ذراتها ، فحييت به وأنبتت الكلأ والعشب ، فانتفع به الإنسان والطير والحيوان ، بل وكل كائن حي ، فنعم البقعة هي انتفعت ونفع الله بها .

وبقعة ثانية صلبة قاسية لم يخالط الغيث ذراتها ، فلم تنتفع به في ذاتها ، لكنها حفظته وأمسكته ، فانتفع به غيرها ، حيث شرب الناس منه وسقوا وزرعوا ، فهي بقعة نفعها لغيرها .

وبقعة ثالثة بئست البقعة هي ، قيعان مستوية ملساء لاتقبل الماء ولايجد له فيها مسلكاً ، ولاتمسكه فينتفع به غيرها ، بل يمر عليها ويستقر في غيرها ، دون أن يكون لها من خيره نصيب .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين ضرب هذا المثل شبه حال أمته وشأنهم عندما يهطل عليهم غيث الهدى والعلم ، بحال الأرض عندما يهطل عليها غيث السماء ، فإنهم ينقسمون إلى أقسام ثلاثة :

قسم يقبل الهدى والعلم فيعلم ويعمل ويعلم « فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها ، وأنبتت فنفعت غيرها »[2] .

فهذا القسم خير الأقسام ، والعلماء على هذا الحال هم العلماء حقاً ، الذين يرفعهم الله تعالى درجات ، وهم المعنيون بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[فاطر:٢٨] .

---

(١) الحديث متفق عليه . أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب فضل من علِم وعلّم ١٠٥/١.

وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب بيان مثل مابعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم ١٧٨٧/٤ . وراوي الحديث أبوموسى رضي الله عنه .

(٢) فتح الباري ٢٣٤/١.

وقسم جاءه الهدى «وجمع العلم غير أنه لم يعمل بنوافله؛ أو لم يتفقه فيما جمع؛ لكنه أدّاه لغيره فانتفع به، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء، فينتفع الناس به»[1].

وقسم ثالث يأتيه الهدى والعلم فلايسمع الهدى ولايحفظ العلم ولايعمل به ولاينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض الملساء التي مرّ عليه الماء فلاهي انتفعت به، ولاهي حفظته لينتفع به غيرها.

وعندما ننظر إلى حال المتكبر بعلمه نجد أنه إما أن يكون من القسم الثاني الذي لم ينتفع بعلمه، حيث لم يعمل به حين دعاه إلى التواضع والسكينة، فتكبر وتعالى، ولكنه مع ذلك قد يأتي من ينتفع بما جمع من نصوص العلم وعرف من قواعده، وفي هذا نوع خير.

وإما أن يبلغ به الكبر مبلغاً أعظم من ذلك فيكون بمنزلة البقعة الملساء من الأرض التي لاخير فيها لذاتها ولالغيرها، وذلك حين يمنعه كبره عن الانتفاع بالعلم أو نفع غيره به.

والشق الثاني الذي يؤخذ من كلام الإمام الغزالي هو أهمية تربية النفس وتهذيب سلوكها، قبل الخوض في طلب العلم، فإن العلم تحلية لابدّ أن تسبقه تخلية، لذا ينبغي على من أراد طلب العلم أن ينظر في نفسه نظرة الطبيب الحاذق، متحسساً عللها وأمراضها، ليقدم لها العلاج النافع من التربية والتهذيب وفق المنهج المحمدي على صاحبه صلوات الله وسلامه؛ فإذا ماتمت له بغيته من تربية نفسه وتزكيتها من كل علة شرع يخوض غمار العلم لأنها أصبحت عندئذ صالحة ومهيأة ليثمر فيها العلم ثماره الطيبة المنشودة.

والإمام الغزالي أشار إلى كيفية تربية النفس حين قال: «فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرُض نفسه في عبادة ربه»[2].

إن التربية والتعليم جناحا طائرٍ، ولايستقيم طيران الطائر مالم يرفرفا معاً، فالتربية والتعليم يجب أن يسيرا معاً جنباً إلى جنب، لأنه لاغِنى لأحدهما عن

---

(١) فتح الباري ١/٢٣٤.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/١٥٠. أقول: قد أشار الغزالي في غير موضع من الأحياء إلى أمور في التزكية وأنواع من المجاهدات لايوافق عليها؛ لما يظهر فيها من بعد عن المنهج النبوي السوي، فالتزكية ينبغي أن تكون وفق ماجاء في كتاب الله تعالى، وأن تؤخذ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقتبس من سيرته الزكية.

الأخر ، فمجاهدة النفس بأنواع المجاهدات في عبادة الله تعالى يجب أن تكون عن علم لتصح وتسلم من أمراض الجهل الخطيرة ، والعلم يجب أن يقرن بالتربية ليثمر الثمار المرجوة ، وقد تتقدم التربية أو التعليم في حالات معينة يحتاج لهما حسب مايراه المربون والمعلمون من الحاجة لذلك .

ورحم الله الإمام الغزالي ، فلقد أشار عن علم ، ونطق عن فهم ، وقال عن حكمة وخبرة حين نبّه إلى أهمية التربية ، فهذا حال وواقع أمتنا يشهد بذلك .

إن الأمة اليوم في ضياع وتيه كبير ، فقدت هويتها ، وتاهت عن أصولها ، فانحدرت إلى مؤخرة الركب ، بعد أن كانت هي القائدة الرائدة ، وأضحت تابعة بعد أن كانت متبوعة ، فلماذا حصل ويحصل ذلك؟

هل هي أمة جاهلة؟ هل تفتقد المعلمين والمتعلمين؟ هل تفتقر إلى دور العلم؟ وهل تنقصها مراجعه؟

بكل تأكيد سيأتي الجواب على هذه التساؤلات بالنفي؛ فالأمة ليست جاهلة ، وهي غاصة بالمعلمين والمتعلمين ، زاخرة بدور العلم ومصادره ومراجعه ، ولله الحمد والمنة على ذلك .

إذاً لماذا هذا الضياع وهذا الانحدار؟

الجواب ، لأنها أمة أهملت المنهج السوي في التربية ، كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد ربى محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فكانوا يأخذون العشر آيات من كتاب الله تعالى لايتجاوزونها إلى غيرها ، حتى يتعلموها ويعملوا بما فيها ، فتعلموا العلم والعمل جميعاً[1] ، فهل نحن كذلك؟

هذا كتاب ربنا تعالى ، وهذه سنة نبيه صلى الله عليه وسلم بين أيدينا ، يحفظهما ويتلقاهما الكثيرون منا ، فهل تربينا عليهما؟ هل طبقناهما في واقع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أبي عبدالرحمن السلمي ، قال : حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقترؤون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات ، فلايأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا مافي هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا العلم والعمل . انظر : المسند ٥/٤١٠

حياتنا كما يجب أن يكون التطبيق؟ لوفعلنا ذلك لما كان هذا حالنا! ولشابهنا الجيل الذي لم ولن يتكرر ، جيل الصحابة الكرام -رضوان الله تعالى عليهم- الجيل الذي سما وساد وفاح مسكاً ملأ الجبال والوهاد ، لأنه جيل تربى على يد محمد وتخرج من مدرسته صلى الله عليه وسلم .

إذاً أمتنا اليوم بحاجة إلى المعلم المربي على المنهج السوي ، المستمدة أصوله من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا حصل ذلك ، فإن الأمة ستنهض من كبوتها ، وتفيق من سباتها ، وستعود لتتبوأ مركز القيادة والريادة المسلوب منها .

ما سبق ذكره كان حول التكبر بالعلم الحقيقي -العلم الشرعي- وما الذي يجعل حامله يتكبر به مع أن أعظم ثماره التواضع والسكينة .

أما بالنسبة لعلوم الصناعات والتي ذكرها الإمام الغزالي -عليه رحمة الله- كعلم الطب والحساب والجدل وغيرها ، فالأمر فيها كما ذكر الإمام من أن طالبها إذا تجرد حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبراً وغروراً ونفاقاً[1] .

وإنما كان الأمر فيها كذلك لأنها لاتربط الإنسان بربه وخالقه تعالى رباطاً وثيقاً مباشراً ، مع أنه في جوانب منها قد يستدل بها عليه ، لكنها لاتعرفه مقام العبودية له سبحانه وتعالى ، ولاتوقفه فيه ، ولاتربيه على الإخبات له تعالى ، لأن ينابيعها في هذا المجال شديدة الشح ، بل هي جافة .

لذا ينبغي لطالب هذه العلوم أن لاتكون هي غايته ومنتهى قصده ، فيتجرد لها مكتفيا مستغنيا بها عن العلم الشرعي النافع ، بل لابد له أن يطلب من العلم الشرعي مايصلح نيته ، ويوضح مسلكه ، ويهذب سلوكه ، ويروض نفسه ، ويكبح جماح كبرها وغرورها وعُجبها ، فإنه مامن نفس إلا ولها حظها من العُجب والغرور ، فإذا لم تروض ولم تُهذب وأصابت من هذه العلوم الجافة تربويا ، فإنها حينئذ تجد متنفساً لها تخرج من خلاله العجب والغرور الكامن فيها .

والمتكبرون بهذه العلوم لايخفون قديما وحديثا .

فما أصحاب الفِرق والمذاهب الضالة ، وما أهل الفلسفة والجدل

انظر:
(١) إحياء علوم الدين ٤/١٥٠ .

الباطل ، المتقولون على الله ، المجادلون في آياته بغير حق ، ماهؤلاء وغيرهم من أهل الأهواء والشهوات الذين يردون الحق لمخالفته رغباتهم ، ويسفهون الخلق مستصغرين لهم لعدم موافقتهم في باطلهم ، ماهم إلا متكبرون ، همهم إرضاء غرور أنفسهم ، لذا تراهم يصرون على باطلهم ، ويجحدون الحق وإن استيقنوه ، ويجادلوا بباطلهم ليدحضوا به الحق الواضح خشية أن تنتقص أقدارهم وتسفه أحلامهم عندما يتبين بطلان وفساد آرائهم ومذاهبهم ومعتقداتهم .

ثم إن بعضاً ممن يحملون شهادات في تلك العلوم كالطب والهندسة والفلك في أيامنا متكبرون مختالون يرون أن لاأحد يساويهم في مكانتهم ، ينظرون إلى أنفسهم نظر استعظام واستعلاء ، وينظرون إلى غيرهم ممن لايحمل مثل شهاداتهم نظر استصغار واستنقاص .

ولعل السبب في انتفاشهم وخيلائهم -إضافة إلى ماسبق الإشارة إليه من فقدان هذه العلوم للجانب السلوكي التربوي- هو : طغيان الماديات حتى ملكت على الناس أفئدتهم ورانت على قلوبهم ، فأصبحوا ينظرون إلى أصحاب هذه الشهادات -التي تجلب المال والشهرة- نظرة إكبار وإجلال مستنقصين غيرهم ممن ليس في مجالهم .

هذه النظرة المادية الظالمة جعلت كثيراً ممن يحمل تلك الشهادات الصناعية يختالون بها ويستعلون علواً كبيراً .

أقول : ولايفهم إنسان من هذا الكلام أنه دعوة إلى نبذ هذه العلوم وترك طلبها وتحصيلها ، بل إن طلبها أمر ضروري وفرض كفائي لحاجة الأمة إليها في كثير من مجالات حياتها ، ولكن الذي نرمي إليه هو أن لاتكون هذه العلوم هي الغاية التي يتجرد لها طالبها ، ثم لايلتفت إلى غيرها من العلوم الشرعية النافعة التي توجهه الوجهة الصحيحة ، وتلزمه المسار السليم فيسير في حياته على هدى وبصيرة .

نعم ماالذي يمنع وجود طبيب أو مهندس أو فلكي يحفظ كلام الله تعالى ، ويعرف سنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ لاشيء يمنع من ذلك أبداً! بل فيه خير كثير وصلاح عظيم للفرد والمجتمع والأمة .

فمثلاً : الطبيب الذي رباه كتاب ربه تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه

وسلم لن يأتي يوماً إلى مريض ليزهق روحه بحجة تخليصه من آلامه أو إلى كبير في السن فيفعل به ذلك بحجة أن دوره في الحياة قد انتهى ، ولن يأتي يوماً ما لينتهك عرض مسلمة عندما تعوزها الحاجة إلى الاختلاء به ، لن يفعل كل ذلك وغيره مما حرم عليه ، لأنه يعلم أن الأمر كله لله ، هو وحده الذي يعلم مصالح عباده ويقدر ماينفعهم ، ويعلم مايضرهم ، فلايحق له وهو العبد الضعيف أن يحكم بموت أحد أو حياته ، لأن ذلك ليس له ، وليس هو مقامه ، وإنما مقامه أن يجتهد في بذل الأسباب التي أمر الله بها ، ثم يسلم قياده لله تعالى ، فهو العليم الحكيم ، وهو الشافي وهو الكافي ، وهو الضار ، وهو النافع ، وهو على كل شيء قدير سبحانه وتعالى ، فهو القائل : ﴿ **مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [فاطر:٢] ، والقائل : ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [يونس:١٠٧] .

ولن يفعل ذلك أيضاً لأنه يعلم أنه محاسب عليه بين يدي ربه ، ولن يفلت من عقابه يوم يلقاه ، فالله تعالى يقول : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة:٧،٨] .

وكذلك المهندس الذي ملأت جوانب نفسه خشية الله يوم أن تربى على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، هذا المهندس لن تسمح له نفسه المهذبة المتربية الزاكية أن يغش في أدوات بناء المباني السكنية وغيرها ، ليكسب من ورائه مبلغاً من المال يأخذه ويأكله حراماً ، ثم يحاسب عليه يوم الدين ، ولن يفعل ذلك لأنه يعلم أنه سيأتي يوم يسقط فيه ذلك البناء على رؤوس ساكنيه ومن فيه فتزهق أرواحٌ بريئة ، وتشرد أُسر مسكينة ، وتهدر أموال طائلة ، وكل ذلك جريمة عظيمة له من إثمها حظ كبير ، ولن يفلت من بطش الله وانتقامه ، فهو القائل : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾ [النساء:٩٣] ، والقائل : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

ومثلهما الفلكي الذي تهذب في مدرسة القرآن الكريم والسنة المطهرة ،

وتربى فيها ، لن يقول يوماً ما لما يشاهده ويطلع عليه من أسرار إلهية وبدائع ربانية في هذا الكون الفسيح ، لن يقول : إن ذلك صنع الطبيعة ، بل سيعود إلى كتاب الله الكريم ليقرأ فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [غافر:٦٢،٦٣] ، وقوله تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[فصلت:٥٣،٥٤] ، فيعلم أن للكون رباً عظيماً مبدعاً هو الخلاق العليم سبحانه وتعالى .

وهكذا نرى أن أصحاب هذه العلوم إذا تربوا على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونهلوا من معينهما الصافي ، ستثمر فيهم ثمار الخير ، وسيوظف صاحب كل ذي علم منهم علمه لصالح مجتمعه وأمته ، طلبا لثواب الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، ولن يجعل من علمه معولاً للهدم ووسيلة للشر وأداةً للفساد خوفاً من الله تعالى أن يذيقه العذاب جزاءً وفاقا ، في يوم الدين الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

ومما سبق نخلص إلى مايلي :

أولاً : إن خطر الكبر على العلماء كبير ، فهو إليهم أسرع منه إلى غيرهم ، وبليتهم به أقرب من سواهم ، وذلك لأن للعلم عزة وجمالاً وكمالاً ، لايلبث العالم الذي لم يمنح نور التوفيق[١] ، ولم يخالط العلم بشاشة قلبه أن يستشعر ذلك فيستعظم نفسه ويزهو .

ولما كان العلم من أعظم مايتكبر به[٢] ، وكان العلماء على خطر عظيم منه ، قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « تواضعوا لمن تعلمونه ، ولاتكونوا من جبابرة العلماء ، فلايقوم علمكم عند الله بجهلكم » ، أي :

---

(١) انظر : الزواجر عن اقتراف الكبائر ١١٩/١.

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ١٥٠/٤.

لايزكوا عند الله إذا تكبرتم به»[1] .

وللإمام الغزالي كلام يقع في مقتل ، يصور فيه خطورة الكبر على العلماء ، حيث قال : « فما أعز على بسيط الأرض عالماً يستحق أن يقال له عالم ، ثم لايحركه عز العلم وخيلاؤه ، فإن وُجد ذلك فهو صديق زمانه ، ينبغي أن لايفارق ، ولو بعد مكانه ، ينبغي أن يرحل إليه للإفادة منه ، ثم يذكر أن هذا الصنف من العلماء قد ولى زمانه وانقرض في الأول ومن يليهم ، ثم يقول : بل يعزف زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة ، فذلك أيضاً إما معدوم ، وإما عزيز... »[2] .

وإذا كان هذا كلام الإمام الغزالي عن علماء وقته وزمانه ، والخير فيهم كثير ، فماذا بوسعنا أن نقول عن حال زماننا الذي تتابعت فيه الفتن وانفرط عقدها ، وفقد الإخلاص وعدم رجاله، إلا من رحم الله، وصارت الدنيا ومتاعها الزائل وزخرفها الزائف أكبر الهم ومبلغ العلم ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم؟!

ثانياً : التواضع والسكينة أعظم ثمار العلم ، فإذا حصل عكس ذلك من الكبر والأمن فمرده إلى الأسباب التالية :

عدم صلاح النية في طلب العلم ، وطلبه للدنيا ، لا لله تعالى .

عدم العمل بالعلم وما يدعو إليه من حميد الأخلاق والصفات ، أي : عدم التزكي به وعليه ، ومن كان هذا حاله ، فإن مامعه هو صورة العلم لاحقيقته ، فهو مجرد جامع حاوٍ لنصوص لم يتهذب بها .

يقول ابن الجوزي -عليه رحمة الله تعالى- في علماء من هذا النوع لم يعملوا بعلمهم ، فلم ينتفعوا به ، فتكبروا وتعاظموا ، وخاضوا في الذنوب والمعاصي : « وليس العلم بمجرد صورته هو النافع ، بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به »[3] .

ويقول : « فتفكرت -أي في حال العلماء الذين يعصون الله تعالى- فإذا العلم الذي هو معرفة الحقائق والنظر في سير القدماء، والتأدب بآداب القوم ،

---

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤.

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٥٠ ، ١٥١.

(٣) صيد الخاطر ١٥٧.

ومعرفة الحق ومايجب له ، ليس عند القوم؛ وإنما عندهم صور ألفاظ يعرفون بها مايحل ومايحرم ، وليس كذلك العلم النافع ، إنما فهم الأصول ، ومعرفة المعبود وعظمته ومايستحقه ، والنظر في سير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والتأدب بآدابهم ، وفهم مانقل عنهم ، هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال »[1] .

ويقول : ومن العلماء ذو نية خبيثة ، يقصد بالعلم المباهاة لا العمل؛ وقليل من العلماء من تسلم له نيته ويحسن قصده ، وذلك الذي أراد الله به خيراً ، فرزقه حسن القصد في طلب العلم ، فهو يحصله لينتفع به وينفع[2] .

ويقول : « رأيت أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده ، وليس العلم صور الألفاظ ، إنما المقصود فهم المراد منه ، وذلك يورث الخشية والخوف منه ، ويرى المنة للمنعم بالعلم ، وقوة الحجة له على المتعلم »[3] .

وجاء في كتاب « الزواجر » : « من شأن العلم أن يوجب مزيد الخوف والتواضع ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في شكر نعمته ، لكن من يتكبر فسببه أن علمه إما أن يرجع إلى الدنيا ، أو لأنه لم يخلص النية فيه ، فخاض فيه على غير وجهه ، فأنتج له تلك القبائح »[4] .

ونتذكر هنا المثل الذي ضربه الإمام وهب بن منبه -رحمه الله- لمن أخذ العلم ونيته فاسدة وباطنه خبيث ، يقول الإمام وهب : « العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة ، فكذلك العلم يحفظه الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً ، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد مايتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً ، علم أن الحجة قد تأكدت

---

(١) صيد الخاطر٣١٣.

(٢) انظر : صيد الخاطر٣٤٢.

(٣) انظر : صيد الخاطر ٤٣٨.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر ، للإمام ابن حجر ١/١١٩.

عليه ، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلا وتواضعاً »[1] .

٣ - استشعار عزة العلم وجماله وكماله مع فساد النية في الطلب وترك العمل بالعلم ، والتعلق بصورته لابحقيقته .

جاء في الزواجر : « وكذلك العلماء الذين ظهرت عليهم سيما الصالحين يسرع إليهم الكبر ، لكون الناس يترددون إليهم بقضاء مآربهم ، والمبالغة في إكرامهم ، فيرون حينئذ أنهم أرفع وأحق بأن يكون الناس دونهم لعدم وصولهم إلى صور أعمالهم ، وما دروا أن ذلك ربما يكون سبباً لسلبهم »[2] .

واستشعار عزة العلم وجماله وكماله أمر لابد منه للعالم ، لكنه على وجهين :

إما أن تكون ثمرة ذلك التواضع والسكينة والترفع عن السفاسف والبعد عن الرزايا ، وعن مواطن الذلة والضعة ، فهذا هو الاستشعار الحق الممدوح .

وإما أن تكون نتيجته الغرور والأمن والتكبر فهذا هو المذموم المرذول .

وإن عدم استشعار عزة العلم بصورته الأولى ، الصورة الحقة الممدوحة يؤدي إلى الوضاعة في المواقف والسلوكيات ، كما هو واضح عند كثير ممن ينتسبون إلى العلم ، حيث تراهم يذلون أنفسهم بتملقهم وتزلفهم إلى أهل الدنيا ، ويقفون بين أيديهم مواقف الذلة يستجدون منهم دنياهم .

وكان الأجدر بهم أن لايفعلوا ذلك حفاظاً على عزة العلم وكرامته ، ولكنهم فعلوه حين لم يستشعروا تلك العزة والكمال والكرامة ، فمن هنا نقول : إن استشعار عزة العلم وكماله وجماله بالصورة التي تؤدى إلى صونه والسمو به على مواطن ومواقف الذلة والصغار أمر مطلوب بل ولازم .

٤ - انحراف الشخص نفسه وعدم قابليته للعلم :

قد يطلب العلم من باطنه خبيث تعشعش فيه طباع السوء ، وهذا لايزيده العلم إلا طغياناً ، فيحتاج أولاً إلى غسل باطنه وتطهيره من ذلك الخبث حتى يصلح ويصبح قابلاً لأن يثمر فيه العلم ثمار الفضيلة والخير ، وإلا لما كان ذلك .

---

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٥ ، إحياء علوم الدين ٤/١٥٠.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/١١٩.

ومثل هذا مذكور في المثل الذي ضربه الإمام ابن منبه وذكرناه آنفاً.

ما ذكر من الأسباب كان بالنسبة للعلوم الشرعية، أما فيما يتعلق بسواها من العلوم كعلم الجدل والطب والحساب والهندسة...وغيرها، فهناك سببان آخران:

أولهما: جفاف هذه العلوم من الجانب التربوي الذي يهذب السلوك ويربي النفس مع تجرد أصحابها لها، وعدم أخذهم من العلوم الشرعية مايعطيهم هذا الجانب المفقود في علومهم، ولذا فإنه ينبغي عليهم إذا أرادوا الرشاد والسداد أن لايتجردوا لهذه العلوم كل التجرد، وأن يكون لهم من العلوم الشرعية ماينير لهم الطريق، ويفتح لهم أبواب الخير والهدى.

ثانيهما: النظرة المادية -الظالمة- المعظمة لهم من معظم الناس، وخاصة في أزماننا هذه، فكثير من الناس يرى أن هذه العلوم هي التي تواكب وتوافق متطلبات العصر، والذي ينعت بالتقدم والتحضر، ومن ثم فإن الحاجة تبقى ملحة إلى أصحابها، ومن ثم يفوزون بالمكانة العالية، ويحظون بالجاه والمال على حد تعبير العوام، بل وكثير ممن ينتسبون للعلم يرون أن هذه العلوم يضمن بها صاحبها مستقبله، ومعلوم أن المستقبل ليس للإنسان علم به، وإنما علمه عند الله سبحانه وتعالى.

هذه النظرة المادية جعلت من أصحاب هذه العلوم يتعاظمون ويتعالون بها، ظنا منهم أن لاأحد مثلهم.

ومعلوم أن المجتمع قد يكون سبباً لظهور المتكبر حين يطبل له، ويكيل له المديح بحق أو بغير حق، أو حين يقف فيه موقف السلب فلا يوجهه ولايأخذ على يديه.

وقد ذكرنا هذا الأمر بشيء من التفصيل عند مبحث أسباب الكبر فينظر هناك.

أبرز صفات المتكبر بالعلم:

للمتكبر بالعلم صفات وعلامات يتسم بها ويعرف من خلالها، تبرز كبره وتبدى زهوه، وهي صفات من شأنها أن تجعله في أحط المنازل وأسفل الدركات عند الله تعالى، وعند عباده، لأنه إنما يرفع الله تعالى درجات العلماء العاملين، وتعلو بين الخلق مراتبهم، والمتكبر بالعلم ليس منهم، لبعده عن أجلّ صفاتهم، وهي التواضع واللين في غير مذلة ولاهوان، فلا حب له

ولاكرامة عند الله تعالى ولا عند عباده .

ولعل أبرز صفات المتكبر بالعلم إضافة إلى الصفات التي يشترك فيها مع سائر المتكبرين مايلي :

أولاً : رد الحق وكتمانه ، وعدم الرجوع إليه ، بل والمجادلة بالباطل لدحضه :

ويحصل منه ذلك عندما لايكون الحق موافقاً لهواه ومؤيداً لرأيه ، أو جاء به من يراه دونه في العلم والفضيلة ، فهو يفعل ذلك ليحفظ جاهه أَنَفَة أن يقال : إن الحق في غير ماذهب إليه ، وحتى لاينال غيره مرتبة أو يحرز فضلاً وشرفاً ، يظن بكبره أنه لايستحقه سواه .

وتظهر هذه الصفة الذميمة جلية عندما يقف ذلك المتكبر محاججاً ومناظراً ، فإنه إن ظهر الحق على يديه أو تبين أنه قد وافقه انتفش وتعاظم ، حتى لايرى من حاججه وناظره شيئاً .

وإن تبين أنه قد جانب الصواب وأن الحق ليس إلى جانبه ولاموافقاً لهواه ، فإنه لايقبله ولايرجع إليه ، بل يصر على باطله ، ويجادل به لدحض الحق ، ولربما حاربه وسعى للقضاء على صاحبه ، إرضاءً لكبر نفسه وعتوها .

وهذا طغيان نفسي مبعثه حب الذات وإرادة التقدم والامتياز ، وهو خلق مجبولة عليه النفس البشرية ، ولاشيء فيه إن طلب من وجهه الحق ، ولم يؤد بصاحبه إلى الطغيان على الآخرين .

ولايحصل ذلك إلا حين تهذب النفس وتزكى ، ويقوم سلوكها ، أما إن أهملت وأغفل تهذيبها وتقويم سلوكها ، فإنها تجنح إلى الطغيان الذي يقود إلى كتمان الحق ورده ، والمجادلة بالباطل لدحضه ومحاربته والسعي للقضاء عليه وعلى أهله .

ثانياً : المتكبر بعلمه فظ غليظ « إن وَعظ عَنَّف ، وإن وُعظ عَنِف »[1] ، لايعرف اللين ، ولايجتمع مع الرفق ، بل الشدة صفته ، والغضب خلقه ، والغلظة ديدنه .

إن وَعظ عَنَّف ، لأنه حين وعظه وتعليمه ونصحه وتوجيهه يرى نفسه خيراً ممن يعظهم ويعلمهم ، ويرى أن ليس فيهم من يساويه أو يُدانيه ، فينظر

---

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤.

إليهم نظرة مستعلية، لذا فهو لايرفق بهم، ولايلين لهم، بل هو دائم التعنيف لهم، يسمعهم الكلام الجارح، ويوجّه إليهم النقد اللاذع، «أَنَفة أن يكلمهم بالسوية، لأنهم عنده ليسوا مثله»[1].

والمتكبر بالعلم يثور في وجه من يعلمه ويغضب عليه لأتفه الأسباب، ولايقبل عذره إن أخطأ، ولايوجهه إلى الصواب بحسن الكلام وطيب الخطاب، بل يسمعه مالاينبغي من كلمات التجريح والتحقير، وهذا الأمر لاشك أنه منفر للمتعلم، يجعله يبغض معلمه، ويمقت تعليمه، فينفر منه، ولاينتفع به، ولربما ينفر من العلم نفسه نظراً للصورة المشوهة التي رسمها ذلك المتكبر للعلماء والواعظين.

هذا هو إمام المعلمين وقدوة المربين محمد صلى الله عليه وسلم يوجهه ربه تبارك وتعالى إلى التواضع لأتباعه المؤمنين، والرفق بهم وعدم الغلظة عليهم، قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الشعراء:٢١٥]، وقال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ يُحِبّ الْمُتَوَكّلِينَ**﴾[آل عمران:١٥٩]، فلله ماأجمل هذا التوجيه الرباني لصفوة الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الرفق واللين طريق لأسر القلوب، وامتلاك الأفئدة، وإن العنف والغلظة طريق للوحشة والفرقة والتباغض والتنافر، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين حين قال موجهاً ومرشداً: «**إِنّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**»[2]، وهو عليه الصلاة والسلام الذي قال: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا**»[3].

---

(١) الرعاية لحقوق الله ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرق، من رواية عائشة رضي الله عنهما. ٤/٢٠٠٤.

(٣) متفق عليه من رواية أنس رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم
<=

ولقد كان صلى الله عليه وسلم هو القدوة في ذلك، فهذا رجل يدخل المسجد فيبول فيه، ويهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطشوا به، فيمنعهم صلى الله عليه وسلم ويقول: «**دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً**[1] **مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوباً**[2] **مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[3]، ثم يدعو ذلك الرجل إليه فيبين له خطأه ويرشده إلى الصواب، وهو يقول له: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»[4].

وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حافلة بمثل هذه المواقف الحانية التي ينبغي التأسي بها، والتعلم منها، والتربي عليها، ليحصل الخير والفلاح، ولتكون السعادة في الدنيا والآخرة.

والمتكبر بالعلم إن وُعِظَ أو وُجِّه له النصح عنف وغضب، وثار في وجه ناصحه، وواعظه لرؤيته نفسه فوق الوعظ والواعظ، وفي غنى عن النصيحة والناصح، فكيف يعظه أحدٌ وهو العالم النحرير؟ وكيف يحتاج إلى النصيحة وهو البحر الزاخر؟!

إن هذا في ظنه السيء عارٌ عليه وانتقاص من قدره، لذا فهو يغضب وتنتفخ أوداجه ليحفظ بذلك جاهه وقدره أن يخدش أو ينتقص.

=

بالموعظة والعلم كي لاينفروا ١/١٠٠، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولاتعسروا..» ٨/٣٥٩.

وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ٣/١٣٥٨، ١٣٥٩.

(١) السَّجْل: الدلو الملأى ماءاً. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/٣٤٤.

(٢) الذنوب: الدلو العظيمة، وقيل لاتسمى ذنوباً إلا إذا كان فيها ماءٌ. انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/١٧١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد ١/١٦٤، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولاتعسروا» ٨/٣٥٩. والحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ١/٢٣٧، وهو من رواية أنس رضي الله عنه.

ولايفعل ذلك إلا من أعمى الكبر بصيرته، فلم يعد يميز بين الحق والباطل، وإلا لعلم أن الله تعالى يقول: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾[يوسف:٧٦]، ولعلم أنه كغيره من البشر غير معصوم من الخطأ والزلل، ولعلم كذلك حاجته إلى إخوانه كحاجتهم إليه، عملاً بقول الحق تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾[المائدة:٢].

ولو فقه هذا المتكبر كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لما كان هذا حاله، ولعلم أن قبول النصيحة والانتفاع بالموعظة والذكرى من صفات أولياء الله المؤمنين، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[الذاريات:٥٥]، ويقول جل شأنه: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى. سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى. الذي يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيا**﴾[الأعلى:٩،١٣].

بل إن صفوة الخلق وأتقاهم لله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم يخاطبه ربه تعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً**﴾[الأحزاب:١،٣]، فكيف يكون الهادي البشير صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى التوجيه والتذكير؟! وهذا الجاهل المتعالم في غنى عن ذلك؟!

خاب وخسر إذاً من أنف عن قبول النصيحة واستكبر عن الاستماع للتوجيه وظن أنه غير محتاج لذلك، متناسياً ضعفه وعجزه، غير مدرك أنه مهما بلغ علمه فإن مايجهله أكثر، ومهما بلغت معرفته فإن ماخفي عليه أعظم، وأنه يظل محتاجاً لنصح إخوانه وتوجيههم كما أنهم في حاجة لنصحه وتوجيهه، فما خفي عن أحدهم علمه الآخر، وما غمض عن أحدهم أدركه الثاني، وهكذا يظل الجميع في حاجة لبعضهم ليكونوا كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**»(١).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، عن أبي موسى رضي الله عنه ٢٦٥/١.

ثم إن عدم قبول النصيحة والغضب عند سماعها صفة قوم ذمهم الله تبارك وتعالى وتوعدهم في كتابه بقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾[البقرة:٢٠٤،٢٠٦]، أي: إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله وقيل له: اتق الله وأنزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ماشتمل عليه من الآثام[1].

يفعل كلَّ ذلك الشر والفساد، فإذا قيل له: اتق الله، تذكيراً له بخشية الله والحياء منه والتحرج من غضبه، أنكر أن يقال له هذا القول؛ واستكبر أن يوجه إلى التقوى، وتعاظم أن يؤخذ عليه خطأ، وأن يوجه إلى صواب، وأخذته العزة لابالحق ولابالعدل ولابالخير، ولكن بالإثم، فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة، ورفع رأسه في وجه الحق الذي يذكر به، وأمام الله بلاحياء منه، وهو الذي كان يشهد الله على مافي قلبه، ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء[2].

وهذه الآية نظير قول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**﴾[الحج:٧٢].

فالذين كفروا عندما تأتيهم آيات الله ويواجهون بالحُجج والدلائل الواضحة الداحضة لباطلهم لايقبلون ذلك، ولايواجهون الدليل بالدليل، ويقارعون الحجة بمثلها، ولكنهم تأخذهم العزة بالإثم، فيلجأون إلى العنف والبطش والشدة، لأنهم لايملكون غيرها لنصرة باطلهم وإرضاء علوهم وعتوهم، وهذا شأن كل متكبر جبار على سطح الأرض.

٣ - والمتكبر بما جمع من علم تجده دائم التحقير للعوام والتعظم عليهم، ينظر إليهم كأنهم الحمير التي لاتعقل والدواب التي لاتفقه، يرى أنه

(١) تفسير ابن كثير ٢٥٤/١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢٠٥/١.

الأعلى وهم الأدنون وأنّه الشريف العزيز وهم الأسفلون الأراذل ، ولذلك فإنه يعتقد أن له عليهم حقوقاً وواجبات لاينبغي لهم أن يقصروا فيها ، أو يتهاونوا في أدائها ، فهو يرى أنه يستحق منهم كل تبجيل وتوقير ، وأن عليهم أن يكونوا طوع أمره ، قائمين على خدمته ، ساهرين على راحته ، وإذا قصر أحدهم في ذلك فتلك زلة لاتغتفر .

وهو إذ يطلب ويتوقع منهم ذلك فإنه بالمقابل لايراهم شيئاً ، ولايرى لهم عليه حقاً أو واجباً ، وبينما هم يتشرفون بخدمته وقضاء حوائجه ، بينما هو يأنف من خدمتهم ، ويستكبر عن قضاء حوائجهم أو إعانتهم على ذلك .

ولأن المتكبر بالعلم يرى نفسه فوق العوام ، فإنه في غالب أمره وحاله لايبدأهم بالسلام ، بل ينتظر منهم أن يبدأوه ، ويبرونه ولايبرهم ، ويعودونه ولايعودهم ، ويصلونه ولايصلهم ، ويهشون له ويبشون وهو عابس مقطب الجبين ، إن نظر إليهم فمن أعلى ، وإن جلس بينهم فله المكان الأعلى .

وإن يوماً ما أتى على نفسه فبدأ أحدهم بالسلام أوردّه عليه أو عاده في مرضه أو أجاب دعوته أو وصل رحمه أو أعانه في قضاء حاجته بدا له أن قد فعل به مالايستحق من مثله أن يفعله بمثله ، ورأى أنه قد تفضل عليه وأكرمه ، وأن ذلك صنيعة له عنده ، ويدا له عليه ، يلزمه شكرها ومكافأته عليها .

فالمتكبر بالعلم إذ يستجهل العوام أو من هو أقل منه علماً ، ويستذلهم ويحط من شأنهم ويترفع عنهم ويأنف من مخالطتهم ، فإنه لايفعل ذلك إلا وهو يرى نفسه خيراً منهم في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فبسبب انتسابه للعلم الذي له الشرف والشأن العظيم والقدر الجليل عند الله تعالى وبين الناس ، فهو إذ ينتسب للعلم يعتقد أنه قد حاز ذلك الفضل ، واستحق ذلك الشرف فيكون إذاً أرفع درجة وقدراً ، وتكون له الخيرية عليهم .

والحق الذي لاجدال فيه أن للعلم شرفاً ، وأي شرف! لكن هذا الشرف لايناله ولايستحقه كل منتسب للعلم ومدع أنه من أهله ، إنما يشرف بشرف العلم وينال فضله من عمل به وأخلصه لربه ، أما من تعلمه لينال به حظا من حظوظ الدنيا ثم ترك العمل به ، ونبذه وراءه ظهرياً فلاينال عزه وشرفه ، بل يكون حجة قائمة عليه ، والويل له يوم يسأل عن علمه ماذا عمل فيه .

وأما مايعتقده المتكبر بالعلم من أنه خيرٌ من غيره في الآخرة فسببه ظنه أن له عند الله قدراً ليس لهم ، لذلك فهو يرجو لنفسه من النجاة والفلاح مالايرجو لهم ، ويخاف عليهم أكثر من خوفه على نفسه حين يظن أنه ناج ، وأنهم هالكون ، وأنه واصل وهم منقطعون ، وهذا هو الجهل والغرور بعينه ، فالأعمال بالخواتيم ، ورب جاهل عارف بقدره مستكين لربه خائف منه متواضع لخلقه ، هو عند الله سبحانه وتعالى خير وأزكى من عالم متكبر آمن مغرور ، بل هو كذلك؛ فإنه لاقدر عند الله جل جلاله لمن تكبر على عباده ، واستصغرهم وظن أنه خير منهم ، فهو تبارك وتعالى يضع المتكبرين دركات ، ويرفع المتواضعين درجات ، وهو العزيز الحكيم .

وشيء آخر يجهله المتكبر بعلمه ، وهو أن الحجة عليه أكبر منها على غيره ، ممن ليس له مثل حظه من العلم لأنه علم مالم يعلموا فعملوا مالم يعمل ، حيث خافوا على أنفسهم وأمن على نفسه ، ورجوا له الفلاح ، وخاف عليهم الهلاك ، وتواضعوا له ، وتكبر عليهم ، وتقربوا إلى الله تعالى بحبه وتوقيره ، وأنف هو عن مجالستهم ومخالطتهم ، وبذلك تكون الحجة عليه لاعليهم ، ويكونون هم بتواضعهم وخوفهم وإشفاقهم خيرا منه وأزكى عند الله تعالى ، ويكون هو بتكبره وأمنه واغتراره بربه على خطر عظيم من مقت الله وسخطه ، لأنه نازعه صفته التي لايستحقها إلا هو سبحانه وتعالى[1] .

٤ - والمتكبر بما جمع من علم يأنف أن يقول لشيء لايعرفه : لاأعرفه ، لذا فهو إن سئل سارع بالجواب ، وبادر إلى الفتوى ، دون رويّة أو تأكد ، المهم أن يقول شيئاً وإن خطئاً ، يفعل ذلك لأمرين :

أولاً : لحبه الظهور والبروز ، وإرادته التصدر والتقدم .

ثانياً : لخوفه أن ينكسر جاهه أو ينتقص من قدره ، حين يقال عنه : سئل فلم يجب! أو سئل فقال : لا أعلم!

والمبادرة بالجواب والمسارعة إلى الفتوى خلاف منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام عليهم رضوان الله تعالى ، وسلف الأمة الصالح رحمهم الله تعالى .

---

(١) ملخص من الرعاية لحقوق الله ٣٨٣،٣٨٩.

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إن سئل عن شيء من أمر الدنيا لايعلمه قال : لا أعلم ، وكذلك إن سئل عن أمر شرعي ليس عنده فيه من الله تعالى سابق علم ، فإنه يسكت ويرجئ الإجابة حتى يُعلِّمه ربُه تبارك وتعالى .

ففي حديث جبريل عليه السلام حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله : « **مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** »(١) ، أي : أنا وأنت ياجبريل لانعلم من أمرها إلا ماعلمناه ربنا سبحانه وتعالى .

وسئل صلى الله عليه وسلم في أمور غير هذه لم يكن يعلمها عند السؤال فما كان صلى الله عليه وسلم يجيب إلا حين يأتيه الوحي من عند الله سبحانه وتعالى .

وفي مدرسة النبوة تعلم الصحابة الكرام ، ومن ذلك المنهل العذب الرقراق نهلوا؛ ثم على أيديهم تربى التابعون الأخيار وسلف الأمة الأطهار ، فساروا أجمعين على المنهج المحمدي السوي ، فكانوا يتحرزون فيما يقولون إن سئلوا واستفتوا ، بل كانت الفتوى شديدة عليهم ، يود أحدهم أن يكفيه أخوه همها ، وكانوا إن سئلوا يقولون لما لايعلمون : لانعلم ، الله تعالى أعلم ، يقولون ذلك دون تردد ، ودون خوف من انتقاص أقدارهم أو سقوط جاههم عند وبين الخلق ، لأن ذلك أهون عليهم من أن تكون الحجة عليهم بين يدي ربهم ، فيهونون عليه وتسقط أقدارهم لديه .

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى : « أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم أحد يسأل عن حديث

---

(١) متفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان... ٨٩/١ ، وفي كتاب التفسير ، تفسير سورة لقمان ، باب ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾[لقمان:٣٤] ٤٨٠/٦ .

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...٣٩/١ ، وهو عنده عن عمر رضي الله عنه في نفس الكتاب والباب ٣٧/١ .

أو فتيا إلا وَدّ أن أخاه كفاه ذلك»[1].

٥ - والمتكبر بالعلم دائم المفاخرة والمباهاة به، وله في ذلك مسلكان[2]:

المسلك الأول: لاتفتر لسانه عن تعداد مناقبه ومحامده، فهو يفاخر بتفننه في العلوم المختلفة وبكثرة جمعه لها وحفظه لمتونها، ومعرفته بأصولها وقواعدها وإدركه لدقائقها وأسرارها، ويفاخر بكثر شيوخه ومعلميه، وبعلو كعب من أخذ عنهم وتلقى تعليمه على أيديهم وأنهم هم الذين لايوجد في الساحة غيرهم، يفاخر بما سبق في كل فرصة سانحة بمناسبة وبغير مناسبة، يتعظم بذلك ويختال يقول: أنا أحفظ من المتون كذا وكذا، وأخذت من العلوم كذا، وأخذت علومي عن كذا وكذا من المشائخ، ولقيت العالم الفلاني، ودرست على العلامة الفلاني، وحصّلتُ من الجِهْبذ الفلاني، أنا لاتعجزني من العلم مسألة، ولاتقف في وجهي منه معضلة، نظري ثاقب، وذهني وقاد، وثقافتي واسعة، أنا خريج الجامعة الفلانية أو المعهد الفلاني أو الكلية الفلانية، أنا حاصل على شهادة كذا وشهادة كذا، وعندي إجازة في كذا وإجازة في كذا...ويظل يؤنن ويؤنن مفاخراً مباهيا منتفخا متعاليا متطاولاً حتى يخال نفسه فوق الثريا، بينما لم تجاوز قدماه الثرى.

وهو إذ يعظم نفسه كل هذا التعظيم فإنه بالمقابل وحتى لايكون سواه وحتى تبقى له المكانة التي يطلبها يحقر من شأن الآخرين ويصغرهم يقول لأحدهم: من أنت؟ وماذا تعرف من العلوم؟ ومن هم معلموك؟ وماهي الكلية أو الجامعة التي درست فيها؟ وماهي شهاداتك؟....إلى غير ذلك مما يفخر به عليه معظما نفسه منتقصاً له متعاليا عليه.

المسلك الثاني: أن يجتهد كل الاجتهاد ويحرص غاية الحرص أن تكون له الغلبة إذا ناظر أو جادل، وأن يسهر ويتعب نفسه كثيراً في تحصيل علوم يتجمل ويتباهى بها في المحافل والمجالس والمناسبات، كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة، وتسجيع الألفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على

---

(١) حلية الأولياء ٤/٣٥١.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٤/١٥٣.

الأقـران ويتعظـم عليهـم[1] ، وكـان يكفيـه مـن هـذه العلـوم قليلهـا بـل ولربمـا أقـل القليل منهـا .

وكذلـك فإنـه ومـن قبيـل المفـاخرة والمباهـاة يحفـظ الأحـاديث ألفاظهـا وأسـانيدها ، لاللعمـل بهـا أو خشية ذهابهـا ، ولكـن لـيرد علـى مـن أخطـأ فيهـا ، فيظهـر فضلـه ، ونقصـان أقرانـه فـيزهو بذلـك وينتفـش ، ولذلـك فإنـه يفـرح إذا أخطـأ واحـد منهـم لـيرد عليهـم ، ويسـوؤه إذا أصـاب وأحسـن خيفـة مـن أن يُـرى أنه أعظـم منـه[2] .

وليـس فقـط تظهـر مباهاتـه ومفاخرتـه فـي حفـظ الأحـاديث متنـاً وإسـناداً ، بـل وفـي حفظـه لمختلـف نصـوص العلـوم المتفرقـة حتـى مالايلزمـه حفظـه منهـا ، ولـو عمل بهـا وأفـاد منهـا وبهـا لحمـد ذلـك منـه ، ولكنـه يقـف عنـد المفـاخرة والمباهـاة بها فقـط يتعظـم بذلـك ويتعـالى .

ولقـد ورد النهـي عـن المباهـاة فـي العلـم والمفـاخرة بـه ، وورد الوعيـد الشديد عليـه ففـي الحديـث : « **مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ** »[3] ، وفـي روايـة : قـال : « **لاَ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلاَ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ** »[4] ، وفـي حديـث آخـر : "**مَنْ تَعَلَّمَ**

---

(١) انظـر : إحيـاء علـوم الديـن ١٥٣/٤.

(٢) إحيـاء علـوم الديـن ١٥٣/٤.

(٣) أخرجـه الترمذي مـن حديـث كعـب بـن مـالك رضي اللـه عنـه في كتـاب العلـم ، بـاب فيمـن طلـب بعلمـه الدنيـا ، وقـال : « حديـث غريـب ، لانعرفـه إلا مـن هـذا الوجـه ، وإسـحاق بـن يحيـى بـن طلحـة ليس بـذاك القـوي عندهـم ، تكلـم فيـه مـن قبـل حفظـه » . انظـر : السـنن ٣٢/٥ .

وأخرجه ابـن ماجـه مـن حديـث ابـن عمـر رضـي اللـه عنهمـا بلفـظ مقـارب فـي المقدمـة ، بـاب الانتفـاع بـالعلم والعمـل بـه .٩٥/١ ، وأخرجـه هنـا أيضـاً عـن أبـي هريـر رضـي اللـه عنـه . انظـر٩٨/١ .

(٤) أخرجه ابن ماجـه فـي المقدمـة ، بـاب الانتفـاع بـالعلم والعمـل بـه ، عـن جـابر بـن عبدالله رضي الله عنه ، قـال البوصـيري : انفـرد بـه عـن الكتـب السـتة . قـال فـي الزوائـد : « رجـال إسـناده ثقـات » . انظـر : سـنن ابـن ماجـه وبهامشـه كفايـة الحاجـة٩٥/١ .

<=

صَرْفَ الْكَلَامِ لِيَسْبِيَ بِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ أَوِ النَّاسِ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلاً"(1) .

وهذا الأمر اجتمعت فيه سيئات كثيرة أعظمها تعلم العلم لغير الله ، ثم الرياء ، ثم المفاخرة، وعدم العلم بالعمل ، وتعظيم النفس واحتقار الآخرين .

وكل هذه سيئات عظيمة نهى الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عنها ، وتوعدا الوعيد الشديد عليها كما مرّ ، ويأتي ذكره في ثنايا هذا البحث كلاً في موضعه ، وبالله التوفيق .

٦ - والمتكبر بالعلم كثير الغمز واللمز للعلماء الذين يفوقونه علماً ، وهم أحسن منه عملاً ، يفعل ذلك أَنَفة أن يعترف لهم بالفضل والتقدم ، حسداً لهم وتعظيماً لنفسه .

فلايكاد يذكر أحدهم أمامه إلا أخذ في تعداد مثالبه وذكر معايبه ، ولربما لمزه بما ليس فيه ، بل لربما بلغ به الكبر والحسد مبلغاً أعظم من ذلك ، فيتهمه في دينه ، ويشكك في عقيدته .

كل ذلك لئلا يكون له الفضل عليه ، وليبقى هو المشار إليه بالبنان ، فيقال : لله دره ، ماأعمله وماأزكاه!!

وبئس هذا الصنيع وقُبِّح فاعله ، فأين هو من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ومن تربى على أيديهم من سلف الأمة الصالح؟! أين هو منهم وقد كانوا ينزلون الناس منازلهم ويعترفون لهم بأقدارهم ، ويتواضع أحدهم لمن هو دونه فضلاً عمن هو فوقه ، أين هو من هذا الصنيع

=

قال المنذري : « رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من رواية يحيى بن يعقوب الغافقي ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير عنه ، ويحيى هذا ثقة احتج به الشيخان وغيرهما ، لايلتفت إلى من شذ فيه ، ورواه ابن ماجه أيضاً بنحوه من حديث حذيفة » . انظر : الترغيب والترهيب١/١١٦ ، وحديث حذيفة رضي الله عنه المشار إليه . انظره في سنن ابن ماجه المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به١/٩٧ .

(1) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب ماجاء في المتشدق في الكلام٤/٣٠٢ عن أبي هريرة .

الـذي يـورث المحـامد ويكسـب المعـالي؟

لقـد عميـت بصيرتـه عـن هـذا الطريـق الحـق ، فسـلك طريـق الشـيطان الرجيـم وخطـا خطواتـه ، ورضـي لنفسـه أن يتخلـق بخلقـه ، فهـو علـى خطـر عظيـم مـن أن يكون مصيره مصـير قـائده فـي الكـبر إبليـس اللعيـن .

تنبيـه :

هـذه الصفـات التـي ذكـرت هـي صفـات يشـترك فيهـا كـل المتكـبرين بـأي داع مـن دواعـي الكـبر ، ولكـن المتكـبر بعلمـه أقـرب إلـى التلبـس بهـا مـن غـيره ، ولـذا أحببـت أن أذكرهـا ههنـا بشـيء مـن التفصيـل فتأملهـا وقـس علـى ذلـك سـائر المتكـبرين . والله أعلـم .

الداعي الثالث من دواعي التكبر : العمل .

وأعني به مايفعله الإنسان من العبادة ويأتيه من أنواع الطاعات والقربات أو يظن أنه كذلك ، فإن العمل إما صالح وإما طالح .

فالصالح ماكان لله تعالى خالصاً ، وكان على الوجه الذي شرعه سبحانه وتعالى وأرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام .

والطالح ماخالف ذلك كأعمال الكفار والمنافقين والمبتدعين ، فإن لهؤلاء المذكورين أعمالاً في ظاهرها أو أصلها أعمال بر وطاعة ، يظنون أنها مغنية عنهم شيئاً ، وليست كذلك ، فلايتقبل الله تعالى منهم ولاتُثَقَّل بها موازينهم ، بل تصبح هباءا منثوراً ، وذلك لأنها لم يقصد بها وجه الله ، ولم توافق شرع الله ، وخالفت هدي رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً . ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً** ﴾ [الكهف:١٠٢ــ١٠٦] .

فهذه الآية الكريمة وإن اختلفت في الذين عُنُوا بها(١) ، فإن الصواب أنها عامة في كل من عمل عملاً من الصالحات وعبدالله تعالى ، على غير طريقة مرضية ، وهو يحسب أنه بفعله ذلك مصيب مطيع ، وأن عمله مقبول ، وليس كذلك ؛ بل هو بفعله ذلك مسخط لله عزوجل ، وعمله مردود عليه ، ويوم الحساب لايغني عنه شيئاً(٢) .

وعلى النحو من هذه الآية قول الحق سبحانه وتعالى عن المستكبرين المكذبين بلقائه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً . وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً** ﴾ [الفرقان:٢١ــ٢٣] .

---

(١) فقيل هم : القسيسون والرهبان ، وقيل : كافة أهل الكتاب ، وقيل : هم الخوارج . انظر : تفسير الطبري١٦/٣٢ــ٣٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ١٦/٣٤ ، تفسير ابن كثير ٣/١١٢.

فهؤلاء المستكبرون عملوا أعمالاً اعتقدوا أنهم فيها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل جل جلاله إذا هي لاشيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لايقدر صاحبه منه على شيء أبداً، وإنما كانت كذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لايكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لاتخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ[1].

متى يتكبر المتكبر بعمله؟

العمل كالعلم كمال ديني له عزة وقدر وجلال، فإذا استشعر العامل عزة عمله وجلالة قدره أعجب به، أي: لاحظ نفسه فيه ونسي نعمة ربه في هدايته وتوفيقه إليه وإعانته عليه، فإذا هو مغتر به يظن أنه منجيه، ثم هو بعد ذلك متعظم متعزز متكبر، يأتيه الشيطان من حيث لايدري فيزين له عمله، ويريه أنه قد بلغ به مبلغاً من التقى والصلاح يعجز غيره عن بلوغه، كما يصغر ذنوبه في عينيه إن لم يرها له حسنات، ويعظم له ذنوب غيره، بل وقد يريه حسناتهم سيئات، كما يخفى عليه عيوب عمله وآفاته وجهله وتقصيره فيه، يريه نفسه مجتهداً مكثراً، وغيره مسرفاً مقصراً، فإذا هو في استعلاء ممقوت، يستجهل الناس ويستحقرهم ويتقالُّ أعمالهم، يحسبهم هالكين غير ناجين، مقطوعين غير موصولين، ويحسب نفسه بل يعتقد أنه ناج واصل.

فإذا حصلت عنده هذه العقيدة الزائفة، تخلق بأخلاق الكبر من الخيلاء والتباهي والتفاخر، وكل خلق ذميم يدخل تحت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاس**»[2].

فائدة في أظهر أخلاق المتكبرين بالعلم والعمل.

يذكر الإمام الغزالي من أخلاق المتكبرين بالعلم والعبادة أنهم فيما يتعلق بالدنيا يستحقرون الناس وينظرون إليهم نظرهم إلى البهائم، ويتوقعون قيامهم بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالعلم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣٢٦.

والـورع والتقـوى ، وتقديمهـم على سـائر النـاس فـي الحظـوظ ، يتوقـع أحدهـم أن يُبدأ بالسـلام والزيـارة وسـائر أفعـال البـر والمعـروف ، فـإن بـدأ هـو أحدهـم بالسـلام أورد عليه ببشـر أو زاره أو أجـاب لـه دعـوة رأى ذلـك صنيعـة عنـده ويـداً عليـه ، يلزمـه شـكرها ، واعتقـد أنـه أكرمهـم وفعـل بهـم مالايسـتحقون مـن مثلـه ، بـل الغـالـب أنهـم يبرونـه فلايـبرهم ، ويزورونـه فلايزورهـم ، ويسـتخدم مـن خالطـه منهـم ويستسـخره فـي حوائجـه ، فـإن قصـر فيـه استنكره واسـتعظم ذلـك منـه وكأنـه السيد وهـم العبيـد والموالـي .

وأمـا فيمـا يتعلـق بـأمر الآخـرة فتكـبر العـالـم والعـابد علـى النـاس بـأن يـرى نفسـه عنـد اللـه تعـالى أعلى وأفضـل منهـم ، فيخـاف عليهـم أكـثر ممايخـاف علـى نفسه ، ويرجـو لنفسـه أكـثر ممـايرجو لهـم ، بـل يـرى نفسـه ناجيـاً ، وهـم هـالكين ، [illegible] فـائزاً وهـم خاسـرين ، راشـداً وهـم ضـالين[1] .

ومـايظن هـذا الظـن إلا مـزدر بعبـاد اللـه ، مغـتر باللـه تعـالى آمـن مـن مكـره ، غـير خـائف مـن سـطوته[2] ، وتلـك واللـه صفـات الخاسـرين ، فقـد قـال تعـالى : ﴿ **أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف:٩٩] .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٩ ، ١٥١.

(٢) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٥١.

الداعي الرابع من دواعي التكبر : المال .

المال نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على البشرية ، يعطي منه ماشاء متى شاء لمن يشاء ، تفضلاً منه وإحساناً ، وكرماً وامتناناً ، وفق علمه وعدله وحكمته ، ويمنعه من يشاء متى شاء كذلك وفق علمه وعدله وحكمته ، فإنه تعالى الملك العدل الحكيم الخبير ، إذا أعطى وبسط فلحكمة ، وإذا منع وقبض فلحكمة .

وحكمة الله تعالى في كل أمر قضاه مايجهله البشر منها أكثر وأعظم ممايدركون ، والمال مال الله سبحانه وتعالى ، وهو المتصرف فيه بعلمه وحكمته يعطي منه ويمنع من يحب ومن لايحب ، فإذا أعطاه الله عبداً من عباده لم يكن ذلك دليلاً على حبه له ورضاه عنه وعلو درجته عنده ، كما أنه إذا منعه لم يكن ذلك دليلاً على بغضه له ، وعدم رضاه عنه ، وانحطاط درجته عنده ، فقد قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلَآءِ وَهَـٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء:٢٠] .

ولقد بين الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم خطأ من ظن أن إعطاء المال وبسط الرزق دليل على الإكرام والإعزاز ، وأن منعه وقبضه دليل على الإهانة والإذلال ، وبين الحكمة من ذلك ، والتي جهلها أصحاب الظن السيء هذا وأنها الابتلاء والامتحان ، فقال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ . وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَانَنِ . كَلاَّ** ﴾ [الفجر:١٥،١٧] ، أي : ليس الأمر كذلك ، وإنما هو ابتلاء واختبار من الحق تعالى لعباده ليتبين مَنِ الشاكر إذا أُعطى ومَن الصابر إذا مُنع ، ومَن الكافر الباغي إذا أعطى ، ومَن الساخط الجازع إذا منع .

إن الله تبارك وتعالى ليعطي من ماله العبد البار من عباده فيشكره على منّه وعطائه ، ويمنعه ويَقْدِر عليه رزقه فيصبر على ابتلائه ويسلم لحكمه وقضائه ، ويزداد في الحالين إيماناً وبِرا .

وإن الله سبحانه وتعالى ليعطي من ماله العبد الفاجر من عباده فيطغى ولايشكر ، ويمنعه ويضيق عليه رزقه ، فيسخط ولايصبر ، ويزداد في الحالين عتواً وفجوراً .

فالحكمة إذاً من بسط الرزق وقبضه وسعته وضيقه هي الابتلاء والاختبار

كما هو حال الحياة الدنيا كله ابتلاء واختبار، ليتميز الشاكرون عن الكافرين، أما الإكرام والإعزاز أو الإذلال والمهانة عندالله تعالى فلادخل للمال عطاءً أو منعاً فيه، فليس هو الميزان عنده في إكرام عبيده أو إذلالهم، بل الميزان الذي به يتفاضلون فيُكْرَمُون أو يذلون، ميزان أسمى وأرفع من هذا الحطام الزائل، إنه ميزان التقوى والإيمان لاميزان سواه، فأحب عباد الله إليه وأكرمهم عليه وأرفعهم درجة لديه أطوعهم وأتقاهم له، وإن لم ينالوا من حطام الدنيا شيئاً، وأبغض عباده إليه وأهونهم عليه، وأحطهم شأناً وأرذلهم درجة لديه، الكفرة الفجرة، المضيعون فرائضه، المستخفون بحقوقه، المتعدون حدوده، المنتهكون حرماته وإن مُلِّكوا الدنيا بحذافيرها، وليس أدلّ على ذلك مما قصه علينا كتاب ربنا من قصص الملأ والملوك والطغاة الذين دانت لهم الأمم، ومُلِّكوا أقطار الأرض وأعطوا من خزائنها، كالملأ من قوم نوح وعاد وثمود وكنمرود وفرعون وقارون.

لقد كان أولئك الطغاة ملوك الأرض وفتح عليهم من خزائنها مالايحصيه العاد، فهل كانوا كرماء على الله تعالى أعزاء لديه يوم أن كفروا به وبرسله؟ هل نفعتهم أموالهم وكنوزهم حين لم يؤمنوا بالله ربهم ولم يتقوه؟ كلا! لقد كفروا بأنعم الله ولم يشكروا له، فكان بطشه بهم شديداً، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأذلّهم وأخزاهم في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ وأخزى، يوم يساقون إلى جهنم وهي تفور، فيدعون على أنفسهم بالويل والثبور، ويقول الواحد منهم: ﴿**يالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَآ أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ**﴾ [الحاقة:٢٥،٢٩].

وبالمقابل فإن أولياء الله المتقين الذين آمنوا به وصدقوا المرسلين، والذين لم يملكوا من حطام الدنيا شيئاً، وكانوا فيها مستضعفين وكان الذين أجرموا منهم يضحكون، وبهم يتغامزون ويهزءون، وعليهم بأموالهم يفخرون ويتكبرون ويتطاولون، هم أهل الكرامة والعزة والدرجة الرفيعة والمقام السامي عند رب العالمين، مكن لهم في الأرض وأورثهم إياها، ووعدهم وعد الحق: ﴿**جَنّاتٍ وَنَهَرٍ . فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مّقْتَدِرٍ**﴾ [القمر:٥٤،٥٥].

وصدق الحق تعالى إذ يقول: ﴿**وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالّتِي تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ**

وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ . وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [سبأ:٣٧،٣٨] .

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] .

وبعد لعل سؤالا يتبادر إلى الذهن هاهنا وهو : هل جمع المال وتحصيله مذموم؟

والجواب يأتي من منطلق النصوص الشرعية الواردة في هذا الشأن والتي نستأنس هنا ببعضها .

أولاً : نصوص قرآنية :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:١٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُواْ فِي الأَرْضِ وَابْتَغُواْ مِن فَضْلِ اللّهِ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة:١٠] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥] .

ثانياً : نصوص نبوية :

جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ** »(1) .

وفي الحديث الصحيح كذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَغْدُوَ** أَحْسِبُهُ قَالَ **إِلَى الْجَبَلِ فَيَحْتَطِبَ فَيَبِيعَ فَيَأْكُلَ وَيَتَصَدَّقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ** »(2) .

---

(١) أخرجه البخاري من حديث المقداد رضي الله عنه ، كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هررة رضي الله عنه في كتاب الزكاة ، باب <=

فمن هـذه النصـوص الشـرعية وأمثالهـا يعلـم أن المـال زينـة الحيـاة الدنيـا وضـرورة مـن ضروراتهـا الملحـة ، لابـد منـه لكـي تسـتقيم الحيـاة البشـرية ، وتصلـح معايش أهلهـا ، ومـن هنـا جـاء أمـر اللـه تبـارك وتعـالى لعبـاده بـأن يسـعوا فـي الأرض مبتغيـن مـن فضلـه آكليـن مـن رزقـه ، بـاذلين الأسـباب فـي تحصيـل ذلـك الفضـل والـرزق .

واللـه تبـارك وتعـالى إذا أمـر عبـاده بذلـك فإنـه تعـالى بيـن لهـم بـأن الـرزق الذي أمرهـم بالسعي فـي طلبـه هـو : الـرزق الطيـب الـذي يطلـب مـن أوجـه الحـلال ويصـرف فـي الأوجـه الحـلال .

أمـا المـال المجمـوع مـن الحـرام والمنفـق فـي الحـرام فقـد نهـى اللـه تبـارك وتعـالى عبـاده عنـه وحذرهـم منـه ، وذم المبتغيـن لـه السـاعين فـي كسـبه وتوعدهـم عليـه ، ومـن ذلـك قولـه تعـالى : ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:١٨٨] ، وقولـه تعـالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ** ﴾ [البقرة:٢٧٥،٢٨٠] ، وقولـه تعـالى : ﴿ **وَآتُواْ**

=

الاسـتعفاف عـن المسـألة ٢/٦٢١ ، وبـاب قـول اللـه تعـالى : ﴿ **لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً** ﴾ [البقرة:٢٧٣] ٢/٦٢٤ ، وفـي كتـاب البيـوع ، بـاب كسـب الرجـل وعملـه بيـده ٣/١٢٤ .

وأخرجـه مسـلم فـي كتـاب الزكـاة ، بـاب كراهـة المسـألة للنـاس ٢/٧٢١ .

وأخرجـه البخـاري مـن حديـث الزبيـر رضـي اللـه عنـه فـي كتـاب الزكـاة ، بـاب الاسـتعفاف عـن المسـألة٢/٦٢١ ، وفـي كتـاب المسـاقاة ، بـاب بيـع حطـب الكـلأ٣/٢٤٠ .

الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيرا﴾ [النساء:٢] .

ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن قوله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ»(٢).

كما أن في المال حقوقاً أوجبها الله على أهله، وأخرى حثهم إليها ووعدهم الأجر والثواب الجزيل عليها، كالزكاة والكفارات والنفقة الواجبة، وكالإنفاق في جهاد أعداء الله، والصدقة في وجوه البر وسبل الخيرات بأنواعها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]، وقوله تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٧٠٣/٢، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَسَعِيدُ بن عَبْدِ اللَّهِ بن جُرَيْجٍ هُوَ بَصْرِيٌّ وَهُوَ مَوْلَى أَبِي بَرْزَةَ وَأَبُو بَرْزَةَ اسْمُهُ نَضْلَةُ بن عُبَيْدٍ».

انظر: سنن الترمذي ٦١٢/٤، والحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل:٢٠] .

إذاً فمن خلال النصوص الشرعية الواردة في شأن المال نخلص إلى أنَّ السعي في تحصيله وجمعه أمر مباح ، ولاشيء فيه ، بل أمر الشارع الحكيم سبحانه وتعالى به إذ به قوام حياة البشر ، لكنه يمدح ويمدح جامعه ، أو يذم ويذم جامعه ، فيمدح إذا تحققت فيه هذه الأمور ، والله تعالى أعلم .

١ - جمعه من حلال ، قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً﴾** [١٦٨:البقرة] .

٢ - إنفاقه في الحلال وفي وجوه الخير ابتغاء مرضات الله عزوجل ، قال تعالى : **﴿وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [البقرة:١٩٥] .

٣ - مراعاة حق الله تعالى فيه الذي أوجبه كالزكاة ، قال تعالى : **﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [المزمل:٢٠] .

٤ - عدم كنزه وإمساكه بخلاً وشحاً وتقتيراً ، قال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾** [التوبة:٣٤،٣٥] .

٥ - ترك التباهي والتفاخر والتعالي به ، فإنه عرض زائل ومتاع فان ، لاقيمه له بلا إيمان ، قال تعالى : **﴿وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾** [سبأ:٣٧] .

٦ - عدم حبه حباً جماً ، حتى يمتلك عليه قلبه ، فيتخذه نداً لله يحبه كحبه ، ولربما أعظم ، من أجله يحب ويبغض ، وفيه يوالي ويعادي ، فإن فعل فقد ضل ضلالاً بعيداً ، قال تعالى : **﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً**

جَمًّا ﴾ [الفجر:١٧، ٢٠] .

وفي الحديث : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم....** » .

فإن تحققت هذه الأمور في المال وجامعه ، مُدح ومُدح جامعه ، وإلا ذُم وذُم جامعه .

وخلاصة القول : نعم المال الصالح في يد العبد الصالح(١) ، يتقرب به إلى ربه المنعم المتفضل به سبحانه وتعالى ، فينفقه في مرضاته ، ويجاهد في سبيله ، ويعين به إخوانه ، يواسي مسكينهم ، ويكسب معدمهم ، ويصل رحمهم ، وينفس كربة مكروبهم ، ويفرج هم مهمومهم ، ويبتغي فيه طيبات ما أحل الله له مأكلاً ومشرباً ، وملبساً وزينة ومركباً ، فنعم الجامع ونعم ماجمع .

وبئس المال الفاسد في يد العبد الفاجر ، يصد به عن سبيل الله ، ويتعرض لسخطه ومقته حين يرتكب به المحرمات ، ويأتي الموبقات ، وحين يختال ويطغى ويتكبر ويغمط الحقوق ، وحين يشغله عن طاعة ربه وعبادته ، فبئس الجامع وبئس ماجمع .

قال ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران:١٤] : « وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء ، فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعاً »(٢) .

فــالمستفاد من نصوص الشريعة في جمع المال وتحصيله هو أن لايكون ذلك هو هم المؤمن وشغله الشاغل ، لأن المال يلهي

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص رضي الله عنه : « ياعمرو! نعم المال الصالح للمرء الصالح » ، وفي رواية : « نعما بالمال الصالح للرجل الصالح » . انظر : المسند ١٩٧/٤ ، ٢٠٢ . قال العراقي : أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بسند صحيح . انظر : تخريج العراقي على هامش الإحياء٨/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥٩/١.

ويطغي ، فالمطلوب هو التوسط في ذلك ، وإن وجد في الأمة أفراد تتوفر فيهم القدرة على جمع المال ، فيكونوا من ذوي الأموال الوفيرة فلاضير في ذلك أبداً ماداموا يعرفون حدود الله في جمعه وإمساكه وإنفاقه .

ولنا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل والأسوة ،فلقد كان ظاهر حالهم التوسط في هذا الأمر ، كما أنه وجد فيهم أغنياء وأثرياء أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وعن سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلههم مالهم أو يطغهم ، بل كان طريقاً لهم ووسيلة إلى الفوز برضوان الله رب العالمين ورحمته ، فبهم فلنقتد ، وعلى نهجهم فلنسر ، عسى الله أن يلحقنا بهم ، والله ذو فضل عظيم .

أسباب التكبر بالمال :

بعد هذه المقدمة حول المال والأمر في جمعه وتحصيله ، والشأن في قدره وقيمته ، نأتي لذكر الأسباب التي تؤدي إلى التكبر به ، وهي إضافة إلى الأسباب العامة للتكبر[1] ، كما يلي :

١ - الشعور بالاستغناء الذاتي :

حين يجري المال في يد صاحبه ويرى أنه يستطيع أن يحوز به ويتملك من زخارف الدنيا وزيناتها مايحلو له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح ، وأن يكون له الخدم والحشم ، وأن يتبوأ مراكز الصدارة والتقدم ، فإنه يشعر بالاستغناء الذاتي عن غيره ، وتكون نتيجة هذا الشعور مايلي :

أ - نسيان مصدر النعمة ، وبالتالي عدم شكر المنعم المتفضل بها سبحانه وتعالى .

ب - نسبة هذه النعمة إلى النفس ، وأنها حصلت له بمجهوده وعرقه وبذكائه وشطارته وبجده وكدِّه .

ج - وإن تذكر أنها من الله تعالى اعتقد كرامته عليه ، وعلو قدره لديه ، وأنه أهل لذلك ، وهذا هو الغرور بعينه .

د - نسيان أن المال عارية عنده متى شاء واهبه أَخْذَه أَخَذَه دون أن

(١) انظر : فصل دواعي الكبر وأسبابه. ص ١٠٧

يكون له حول وقوة في إمساكه كما لم يكن له حول وقوة في تحصيلة إلا بالله ومنه سبحانه وتعالى .

هـ - ونسيان هذا الأمر يجعله يظن أن ماله لن ينفذ ويفنى ، ويحسب أنه مُخلَّدُهُ في هذه الحياة ، فيختال به ويطغى .

و - عمى بصيرته عن التصور الحقيقي للقيم التي بها يسمو المرء ويعلو فيحسب أن المال منها ، وليس هو كذلك ، بل هو وسيلة من وسائل تحصيلها في حال سلوك صاحبه المسلك الصحيح في ذلك .

كما قد يكون وسيلة للانحطاط إلى أسفل دركات الذل والمهانة ، وذلك حين يجعل صاحبه من نفسه عبداً له ، وخادماً يخدمه ، غير مبالٍ في سبيل جمعه وكنزه ، بأن يطأ بقدميه كل سلوك قويم ، وكل خلق مستقيم ، وتلك ذلة وأي ذلة!! .

وفيما قصه القرآن الكريم علينا من قصص المتكبرين بأموالهم ، دليل على ماذكرناه من حصول هذه الأمور من المتكبر .

فقد قص علينا كتاب ربنا في سورة الكهف من الآية الثانية بعد الثلاثين وحتى الآية الرابعة بعد الأربعين خبر رجلين :

أحدهما : غني متكبر متعلق بزينة الحياة الدنيا ، والآخر : فقير لايملك من حطام الدنيا مايملك صاحبه ، ولكنه يملك ماهو أعلى وأسمى وأغلى ، يملك قيمة الإيمان وثروة العقيدة ، فأعظم وأكرم بها من قيمة وثروة .

لقد أنعم الله تعالى على الأول وجعل له بستانين تحف وتحدق بهما النخيل من كل جانب ، وأنبت في خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مقبل مثمر في غاية الجودة والكمال ، لم ينقص منه شيء ، والأنهار تجري من خلالهما[1] .

أمر في غاية الإبداع والإمتاع ، قال تعالى : ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً . كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** ﴾ [الكهف:٣٢،٣٣] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٣/٨٧.

فهل قابل نعمة الله تعالى عليه بالشكر والعرفان؟

وهل أدرك أن الحكمة في إعطائه ومنع صاحبه هي الابتلاء والاختبار؟

كلا؛ لقد غره ماله فلم يشكر واهبه إياه ربه ومولاه سبحانه وتعالى ، وغره فتكبر به واستعلى على صاحبه وقال له متفاخراً عليه بماله معيراً له بفقره: ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً ﴾ [الكهف:٣٤] .

ودخل صاحب الجنتين جنته الدنيا ، دخلها وهو ظالم لنفسه « بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وتعديه لقدر نفسه وإنكاره المعاد »[1] ، فقال وقد أخذ به العجب كلَّ مأخذ : ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ [الكهف:٣٥] ، قال ذلك اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لاتفنى ولاتفرغ ولاتهلك ولاتتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا وكفره بالآخرة »[2] .

وهكذا هم أهل المال والثراء المغترون في كل زمان ومكان يظنون بقاءه ويستبعدون تلفه وفناءه ، ذلك أنهم يغيب عنهم أنه ليس منهم ابتداؤه ، وليس إليهم بقاؤه ، بل هو من الله تعالى هو الذي يهبه متى شاء ويقبضه إذا شاء ، أما هم فليسوا إلا منفذين لقضاء الله تعالى وحكمته فيه ، فعليهم أن يبرءوا من حولهم وقوتهم ويستشعروا حول الله تعالى وقوته حتى تُطَامِنَ نفوسُهم من كبريائها وغرورها .

ولم يكن تكبر الغني على صاحبه الفقير وظنه أن ماله لن ينفد هو غاية غروره ومنتهى طغيانه ، بل لقد وصل به الطغيان إلى أن كفر بربه وخالقه سبحانه وتعالى عندما جحد اليوم الآخر يوم قيامه بين يديه ، فقال: ﴿ وما أظنُّ الساعة قائمة ﴾ [الكهف:٣٦] .

وإنكار يوم القيامة وجحده أو نسيانه والغفلة عنه طريق لكل شر ، كما أن الإيمان به وتذكره سبيل كل خير ، فإن من لايؤمن بيوم القيامة أو من ينساه لايتورع عن فعل أي قبيح ، لأنه آمنٌ من المحاسبة عليه أو ناسٍ لذلك وساهٍ عنه ، أما من يؤمن بلقاء الله تعالى ومحاسبته له على كل صغيرة وكبيرة أتاها

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٨٨/٣.

في حياته الدنيا فإنه سيحرص على فعل الخير ليلقى جزاءه الحسن ، وسيحرص على ترك السوء ليسلم من عاقبته الوخيمة .

فالمتكبر إذاً إما أن يكون جاحداً ليوم الحساب فهو آمنٌ من الجزاء ، وإما أن يكون ناسياً له فهو في غفلة عن الجزاء ، ولو آمن بيوم الحساب أو كان متذكراً له لما وسعه إلا التواضع ابتغاء مرضاة الله ورجاء رحمته ، واتقاء سخطه وخوفاً من عذابه .

نعود إلى القصة فنرى ذلك الغني لازال في غروره وطغيانه ، فمع أنه قد كفر بربه وجحد لقاءه إلا أن غروره جعله يتخيل نفسه -لو فرض ورد إلى ربه- أحسن مما هو عليه في الحياة الدنيا ، فقال : ﴿**ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا**﴾ [الكهف:٣١] ، ماالذي جعله يعتقد ذلك؟ أليس هو الغرور؟

بلى ليس غيره! وذلك حين اعتقد كرامته على ربه بما أعطاه من ذلك النعيم إذ لولم يكن كريماً عليه -بظنه- لما أعطاه إياه .

وهو اعتقاد غير صحيح ، ومفهوم سقيم لميزان الكرامة والعزة عند الله تعالى ، فكما سبق وذكرنا أن المرء لايسمو ويرتفع بما يؤتي من زخرف الحياة الدنيا من مال أو جاهٍ أو حسبٍ أو قوة ، بل بإيمانه وتقواه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات:١٣] ، ولكن المشغوفين بمتاع الدنيا الزائل وزخرفها الزائف لايعقلون ذلك ولايدركونه ومن ثم لايقيمون له في حياتهم وزناً فذرهم في طغيانهم يعمهون .

أما موقف المؤمنين أهل القيم السامية المدركين لها ببصائرهم الحية فيمثله ذلك الفقير المعتز بإيمانه بربه تبارك وتعالى ، فقد قال لصاحبه الغني المتكبر : ﴿ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** ﴾ [الكهف:٣٧] ، ينكر عليه كفره بربه الذي أوجده من العدم ، ويذكره بضعفه وهو أصله إذ هو من تراب يداس بالأقدام ثم من نطفة من ماء مهين ، فكيف يطغى كل هذا الطغيان يوم أن يصبح بأمر الله وقدرته رجلاً ، ناسياً نعمة ربه وقدرته عليه ، وضعفه هو وافتقاره إليه؟ وبين له أنه لن يكفر بربه وإن امتحنه بالفقر : ﴿ **لكنا هو الله ربي ، ولا أشرك بربي أحداً** ﴾ [الكهف:٣٨] ، ثم

يذكره بأنه كان الواجب عليه إذ دخل جنته أن يتذكر أنها بمشيئة الله كانت ، وبقدرته أينعت ، وبحوله وقوته تؤتي ثمارها ، وإذا أراد بها أمراً غير ذلك فلا مردّ له ، كان عليه أن يتذكر ذلك ، فلايرضى لنفسه أن تطغى وتتكبر : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [الكهف:٣٩] .

ثم يذكره أنه بإيمانه بربه تعالى يرجو أن يؤتى في الدار الآخرة خيراً مما افتخر عليه به في هذه الحياة الدنيا ، كما يذكره بقدرة الله تعالى وأنه إذا شاء ذهب بجنته وأهلكها بما يشاء من أمره ، فتصبح بعد بهجتها تراباً أملساً ، كأن لم تغن بالأمس : ﴿ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً . أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ [الكهف:٤٠،٤١] .

وقد كان . قال تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف:٤٢] .

لقد حل بجنته أمر الله فأصبحت خاوية لاشيء فيها ، فإذا بصاحبها الذي ظن أنها لن تفنى إذا به في حالة من الذهول والحسرة والأسف ، « يُصَفِّقُ كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التي أذهبها عليها »(١) .

وإذا به في هذه اللحظة يتذكر ربه فيتمنى أن لو شكره ولم يكفره ، فيقول : ﴿ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ [الكهف:٤٢] ، خاصة وهو يرى أن مافتخر به واستعز من مال وولد لم يغن عنه شيئاً: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ [الكهف:٤٣] .

ثم ختمت القصة بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ [الكهف:٤٤] ، قال ابن كثير : « اختلف القراء هاهنا ، فمنهم من يقف على قوله : « وما كان منتصراً هنالك » ، أي : في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ، ويبتديء بقوله : « الولاية لله الحق » ، ومنهم من يقف على « وما كان منتصراً » ، ويبتديء بقوله : « هنالك

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٨٩.

الولاية لله الحق» ، ثم اختلفوا في قراءة «الولاية» ، فمنهم من فتح الواو[1] من الولاية فيكون المعنى : هنالك الموالاة لله ، أي : هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر:٨٤] . ، وكقوله إخباراً عن فرعون : ﴿ حَتَّى إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لآ إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوٓاْ إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩٠،٩١] .

ومنهم من كسر الواو[2] من الولاية ، أي : هنالك الحكم لله الحق ، ثم منهم من رفع الحق[3] على أنه نعت للولاية...ومنهم من خفض القاف[4] على أنه نعت لله عزوجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ ، أي : خير جزاءً ، والأعمال التي تكون له عزوجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير»[5] .

هذه القصة العظيمة التي حوت كل هذه المعاني رأيت أن أختم الحديث عليها بنقل سطور مما قاله الإمام سيد قطب في ظلاله عند تفسيرها ، والشيخ له لمسات رائعة فائقة المذاق ، تأبى النفس الذواقة إلا أن تأخذ نصيبها منها ، فعليه رحمة الله تعالى .

قال رحمه الله تعالى : «ثم تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائفة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس ، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة

---

(١) وهي قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم وأبوعمرو ، أنظر : السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ٣٩٢.

(٢) وهي قراءة : حمزة والكسائي . انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢.

(٣) وهي قراءة : أبوعمرو وحمزة والكسائي . انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢.

(٤) وهي قراءة : ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر وعاصم. انظر : كتاب السبعة في القراءات ٣٩٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٨٩/٣.

خالدة لاتفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.... »[1].

ثم يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها...**﴾، «ويختار التعبير كلمة «تظلم» في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه، فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر، وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿**فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً**﴾ [الكهف:٣٤].

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور، وقد نسي الله ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً، أنكر قيام الساعة أصلاً، وهبها قامت، فسيجد هنالك الرعاية والإيثار!! أليس من أصحاب الجنات في الدنيا، فلابد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة...؟!

إنه الغرور الذي يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الحياة الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!

فأما صاحبه الفقير الذي لامال له ولانفر ولاجنة عنده ولاثمر، فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله الذي تعنو له الجباه، فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكراً عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينذره عاقبة البطر والكبر، ويرجو عند ربه ماهو خير من الجنة والثمار[2]، : ﴿**قال له صاحبه وهو يحاوره....أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا**﴾.».

قال: وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلاتبالي المال

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٧٠.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٢٧٠.

والنفر، ولاتداري الغنى والبطر، ولاتتلعثم في الحق، ولاتجامل فيه الأصحاب، وهكذا يشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار، فلقد كان ماتوقعه الرجل المؤمن ﴿**وأحيط بثمره...**﴾.

يقول: وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها، مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركاً ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان.

هنا يتفرد الله تبارك وتعالى بالولاية والقدرة، فلاقوة إلا قوته، ولانصر إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، مايبقى عنده للمرء من خير فهو خير مايتبقى ﴿**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً**﴾[الكهف:٤٣،٤٤].

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان..."[1].

أقول: والغرور عند الشعور بالاستغناء الذاتي هو الذي جعل قارون يختال ويبغي على قومه حين غرته كنوزه التي أثقلت مفاتحها عواتق العصبة أولي القوة من الرجال، فظن أنها خالدة مُخَلَّدة له واعتز بها، وماداخله شك في فنائها وزوالها، وفرح بها فرح البطرين الكافرين نعم ربهم، الغافلين عن لقائه، الجاهلين قدرته وجبروته، المتكلين على حولهم وطولهم، المغترين بما يفنى ولايبقى، ويزول ولايدوم.

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٢٢٧١.

قال الله تعالى في شأن قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦] .

«لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالاً كثيراً ، يصور كثرته بأنه كنوز -والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول- وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال...من أجل هذه بغى قارون على قوته....»[1] .

ووجد قارون من قومه من يحاول رده عن بغيه ورجعه إلى النهج القويم الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ، وهو نهج لايحرم الأثرياء ثراهم ، ولاالمتاع المعتدل به ، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ، وقبل ذلك مراقبة الله الذي أنعم عليهم ومراعاة الآخرة ، وما فيها من حساب... [2] .

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٦،٧٧] .

«**لاتفرح**» فرح الزهو المنبعث من الاغترار بالمال ، والاحتفال بالثراء والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ....، لاتفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال ، وينسي نعمته وما يجب لها من الحمد والشكر ، لاتفرح فرح الذي يستخفه المال فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ويتطاول به على العباد...،

﴿**إن الله لايحب الفرحين**﴾ فهم بذلك يردونه إلى الله الذي لايحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين المتطاولين بسلطانه على الناس"[3] .

﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**﴾ .«أي : استعمل ماوهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٧١٠،٢٧١١.

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٥/٢٧١١.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٧١١.

التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة»[١] .

﴿ولاتنس نصيبك من الدنيا﴾ "أي : مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فآت كل ذي حق حقه"[٢] .

﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ "أي : هذا المال هبة من الله وإحسان ، فليقابل بالإحسان فيه ، إحسان التقبل ، وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران"[٣] .

﴿ولاتبغ الفساد في الأرض﴾ "أي : لاتكن همتك بما أنت فيه أن تفسد في الأرض وتسيء إلى خلق الله"[٤] ، "الفساد بالبغي والظلم ، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة ، والفساد على صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء ، والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال" .

﴿إن الله لايحب المفسدين﴾ "كما أنه لايحب الفرحين" .

هذا مانصح به قارون من قومه ، فما كان جوابه؟ "لقد كان رده جملة واحدة تحمل شتى معاني الفساد والإفساد"[٥] .

﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ [القصص:٧٨] ، أي : أنا لاأفتقر إلى ماتقولونه ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيّ أني أهل له ، وقد روي عن بعضهم أنه أراد (إنما أوتيته على علم عندي) أي : أنه كان يعاني علم الكيمياء ، وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤١٠.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٧١١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤١٠.

(٥) في ظلال القرآن ٥/٢٧١١.

القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه باطل، لأن قلب الأعيان لايقدر أحد عليها إلا الله عزوجل...وقال بعضهم:إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتمول بسببه، والصحيح: المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى ردا عليه فيما ادّعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال: ﴿**أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعا**﴾[القصص:٧٨] ،أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً وماكان ذلك عن محبة مناله، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿**ولايُسأل عن ذنوبهم المجرمون**﴾ أي: لكثرة ذنوبهم،...وقد أجاد عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير قوله "قال إنما أوتيته على علم عندي" قال: أي: لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ماأعطاني هذا المال،....وهكذا يقول من قبل علمه إذا رأى من وسع الله عليه: لولا أن يستحق ذلك لما أعطى"[1].

يقول سيد قطب في الظلال عند قوله: "إنما أوتيته على علم عندي": "إنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوّع لي جمعه وتحصيله، فمالكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟!

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء،

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكدّه هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق ومايمسك، غير محاسب على مايفسد بالمال، وما يحصل، غير حاسب لله حساباً، ولاناظر إلى غضبه ورضاه..."[2].

قلت: وما أكثرهم في مجتمعاتنا، فكم نسمع أن فلاناً بدأ حياته من الصفر، وجد واجتهد، وكان ذا ذكاء وفطنة، فوصل إلى ذروة الثراء، هكذا نكرر هذه المقولة بيننا دون أن نرجع الأمر إلى الله تعالى، ومشيئته، وتقديره،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤١٠/٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢٧١٢/٥.

وحوله، وطوله.

وكم هم الذين لايراعون حقوق الله في أموالهم! وكم هم الذين ينفقونها فيما حرم الله عليهم! فإذا نُصحوا قالوا: نحن أحرار فيما نفعل في أموالنا التي جاءت إلينا بعد جهد وكد ومعاناة، والتي جمعناها بذكائنا وفهمنا ونشاطنا وشطارتنا!

أفليس هذا هو الغرور الذي يحجب عن صاحبه الحقائق وإدراكها، فيظل يعيش في غرة من الأوهام، تكذب عليه نفسه وشيطانه بما صورت بعضه الآيات القرآنية السابقة على لسان قارون وصاحب الجنتين وفرعون؟!!

والاغترار بزينة الحياة الدنيا ومن ثم الشعور بالاستغناء الذاتي هو الذي بلغ بفرعون من الطغيان مبلغاً جعله يتطاول على مقام الألوهية، فيقوله لقومه: ﴿**ماعملت لكم من إله غيري**﴾ [القصص:٣٨].

حين تملك فرعون مصر وتصرف في أهلها واستعبدهم واستقوى عليهم، ظن أن لاسواه فقال تلك الكلمة الشنيعة، قالها وهو يشعر بحوله وقوته ويختال بملكه وسلطانه.

لكنه يوم حل به بطش الله الجبار، ونزل به عذابه الأليم قال وقد زالت الغشاوة عن عينيه فعلم ضعفه وذله، وأدرك عجزه وهوانه، وقد خذله ماله وما أغنى عنه جنده، ولانفعه سلطانه: ﴿**قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لآ إِلَـهَ إِلاّ الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُواْ إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [يونس:٩٠].

قال ذلك: وقد نسي قولته الأولى حين غره ملكه وسلطانه فتطاول به على مقام ربه وإلهه الذي يعلن الإيمان به في هذه اللحظة.

وهكذا حال الإنسان: يختال ويطغى حين يستشعر حوله وطوله، وينسى حول الله تعالى وطوله، فإذا ما انكشفت له حقيقة نفسه عند أقل ضر وبلاء يصيبه عاد ذليلاً كسيراً إلى صاحب الحول والطول حقا، قيم السموات والأرض، الواحد القهار، رب العالمين جل شأنه وعز سلطانه.

تلك حقيقة يذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع:

قال الله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرّآءَ مَسّتْهُ لَيَقُولَنّ ذَهَبَ السّيّئَاتُ عَنّيَ إِنّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. إِلاّ الّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ مّغْفِرَةٌ**

وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١].

« يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحمه الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة حصل يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحد لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إذا أصابته نعمة بعد نقمة: ﴿**ليقولن ذهب السيئات عني**﴾ أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولاسوء ﴿**إنه لفرح فخور**﴾، أي: فرح بما في يده، بطر فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿**إلا الذين صبروا**﴾، أي: على الشدائد والمكاره ﴿**وعملوا الصالحات**﴾، أي: في الرخاء والعافية ﴿**أولئك لهم مغفرة**﴾، أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿**وأجر كبير**﴾، بما أسلفوا في زمن الرخاء... »[1].

عند تفسيره لهذه الآيات يقول الإمام سيد قطب: « إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة ويطغى عليه مايلابسه، فلايتذكر مامضى، ولايفكر فيما يلي، فهو يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه مع أنها كانت هبة من الله له، وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء، لايحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه، ولايقتصد في فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حساباً.

﴿**إلا الذين صبروا**﴾، صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة، فإن كثيراً من الناس يصبرون على الشدة تجلداً وإباءً أن يظهر عليهم الضعف والخور، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلاتغتر ولاتبطر...

﴿**وعملوا الصالحات**﴾، في الحالين، في الشدة بالاحتمال والصبر، وفي النعمة بالشكر والبر.

﴿**أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**﴾، بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء.

إن الإيمان الجاد المتمثل في العمل الصالح هو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥٤.

وهو الذي يقيم القلب البشري على سواء في البأساء والنعماء، ويربطه بالله في حاليه، فلايتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء، ولاينتفخ ويتعالى عندما تغمره النعماء...وكلا حالي المؤمن خير، وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

٢ - وقال الله تعالى: ﴿**لاَّ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِّعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ**﴾ [فصلت:٤٩، ٥١].

«والمعنى أن الإنسان لايمل من دعاء ربه بالخير»[2]، يسأله شتى أنواعه من المال والصحة والبنين والقوة والتوفيق وتيسير الأمور...ومختلف أنواع الخير، فإذا مسه ضد ذلك من الفقر والمرض والضعف...وغيرها من أنواع الابتلاءات فإنه ييأس ويقنط من رحمة الله، «أي: يقع في ذهنه أنه لايتهيأ له بعد هذا خير»[3]، فإن جاءه الفرج من الله تعالى وأصابه برحمة الله خير بعد ماكان في شدة اغتر وزعم أن الله تعالى أعطاه ذلك لعلمه بأنه يستحقه، وقد يصيبه الغرور أكثر من ذلك فيكفر بلقاء الله تعالى ويكذب بيوم القيامة كما كان الأمر من صاحب الجنتين، وكما هو قول الله تعالى هنا حاكياً عن الإنسان الذي خوله نعمته فأصابه البطر فكفر، وقال: ﴿**وما أظن الساعة قائمة**﴾، ويتمادى به الطغيان فيقول: ﴿**ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى**﴾، أي: ولئن كان ثَمّ معاد فليحسنن إلى ربي كما أحسن إليّ في هذه الدار، يتمنى على الله عزوجل مع إساءته العمل وعدم اليقين، ولهذا جاء هذا التهديد والوعيد من الحق تبارك وتعالى ﴿**فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾، أي: هذا العقاب والنكال جزاء من كان هذا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/١٨٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/١١٢.

عمله وهذا حاله مع ربه لايصبر على ابتلائه ولايشكره على نعمائه، بل يقنط حال البلاء ويطغى عند السراء.

ثم يعود النص القرآني ليؤكد إعراض الإنسان عن طاعة ربه واستكباره عن الانقياد لأوامره في حال من الله تبارك وتعالى عليه بالسراء، وتذلله وكثرة وطول مسئلته في حال ابتلاء الله بالضراء ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢].

ومما جاء في الظلال عند ذكر هذه الآيات نقتطف مايلي:

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية التي لاتهتدي بهدي الله فتستقيم على طريق. رسم يصور تقلبها وضعفها ومراءها وحبها للخير وجحودها للنعمة واغترارها بالسراء وجزعها من الضراء.

هذا الإنسان لايسأم من دعاء الخير ولايمل طلبه، وإن مسه الشر مجرد مس، فقد الأمل والرجاء...ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته، ذلك أن ثقته بربه قليلة، ورباطه به ضعيف!

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر استخفته النعمة فنسي الشكر واستطاره الرخاء فغفل عن مصدره، وقال: هذا لي، نلته باستحقاقي، وهو دائم علي، أو نسي الآخرة واستبعد أن تكون...وانتفخ في عين نفسه فراح يتألى على الله ويحسب لنفسه مقاماً عنده ليس له، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله، ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده! وهو غرور...

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه، استعظم وطغى، وأعرض ونآ بجانبه، فإذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ويصغر ويتضاءل ويتضرع ولايمل الضراعة، فهو ذو دعاء عريض[1].

٣ - وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/٣١٢٩،٣١٣٠.

نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰؤُلاَءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الزمر:٤٩،٥١] .

تأكيد لما ذكرناه آنفاً من نسيان الإنسان لربه وطغيانه وغروره عندما تصيبه السراء وتضرعه إلى ربِّه وتَذَلُّله بين يديه عندما تصيبه الضراء، ناسياً أو جاهلاً أن الأمر في الحالين راجع إلى الابتلاء والاختبار من الله تعالى لعباده .

وإن زعم صاحب النعمة أن الله أعطاه إياه لعلمه أنه مستحق لها فقد زعم هذا الزعم كثير ممن سلف من الأمم السابقة ، فهل كان زعمهم صحيحاً وهل نفعهم جمعهم وماكانوا يكسبون؟ كلا ﴿ **قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** ﴾[الزمر:٥٠] ، بل كما قال تعالى : ﴿ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰؤُلاَءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [الزمر:٥١] .

فما الحكمة إذاً من بسط الرزق وقبضه؟ وما الحكمة من السراء والضراء تصيب الإنسان؟

إنه الابتلاء والاختبار ليعلم الصابر من الجازع ، والشاكر من الكافر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الزمر:٥٢] .

يقول صاحب الظلال: « إن الضر يُسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعريها من العوامل المصطنعة التي تحجب عنها الحق الكامن فيها ، وفي ضمير هذا الوجود ، فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده ، حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء نسي هذا الإنسان ماقاله في الضراء ، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء ، وقال عن النعمة والرزق والفضل : ﴿ **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي** ﴾ ، ...قالها قارون، وقالها ويقولها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها مااتفق له من مال أو سلطان غافلاً عن مصدر النعمة ، وواجب العلم والقدرة ومسبب الأسباب ، ومقدار الأرزاق »[1] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٥٦.

ويقول: «هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم، فانتهت بهم إلى السوء والوبال ولم يغن عنهم علمهم ولامالهم ولاقوتهم شيئاً، وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين، فسنة الله لاتتبدل وماهم بمعجزين فالله لايعجزه خلقه الضعاف المهازيل.

فأما ماأعطاهم الله من نعمة، وما وهبهم من رزق، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ليبتلي عباده ولينفذ مشيئته كما يريد: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الزمر:٥٢]، فلايجعلوا آيات الله سببا في الكفر والضلال وهي جاءت للهدى والإيمان»[١].

إذاً فالشعور بالاستغناء الذاتي سبب من أسباب اختيال المترفين وتكبر الأثرياء الواجدين سابقاً ولاحقاً، وذلك حين يغرهم المال وتبطرهم النعمة، وحين يظنون كرامتهم عند ربهم، وأفضليتهم على غيرهم بما أوتوا، وحين يتصورون كنوزهم وأموالهم دائمة لاتفنى ولاتبيد، زاعمين أنها حصلت لهم بكدهم وجدهم وذكائهم وشطارتهم، ناسين أو متناسين أو غافلين عن أنها من الله سبحانه وتعالى والأمر فيها إليه تعالى، وإن كانوا هم قد بذلوا الأسباب فمن ذا هيأها لهم؟ من ذا الذي منّ عليهم بذكاء الأفهام، وصحة الأبدان، وقوة الأجسام؟ أفليس هو الله تعالى، الذي لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم وأوهى قواهم وهو على ذلك قدير؟

بلى إنه الله جلت قدرته وهو القائل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، والقائل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

فليعلم كل مغرور بماله فرح أشِرٍ بطر بكنوزه هذه الحقيقة وليُطامِن من غروره وكبريائه، فالكبرياء ليست له، بل لمن يستحقها، ولايستحقها إلا الممدوح بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقصان، ومن يكون كذلك سوى الله الواحد القهار، ذو العزة التي لاتضام والقوة التي لاترام سبحانه

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٣٠٥٧.

وتعـالى؟!

٢ – السبب الثاني من أسباب تكبر أربـاب الأمـوال هـو : النظـرة الماديـة السـائدة فـي المجتمعـات ، فإنـه يسـود المجتمعـات وبخاصـة المجتمعـات الكـافرة التـي لاتبنـي حياتهـا علـى شـريعة اللـه أو المجتمعـات المسـلمة حيـن تبتعـد عـن المنهـج الـذي ارتضـاه اللـه وترضـى لنفسـها اتبـاع كـل نـاعق مـن مشـرق أو مغـرب ، أقـول : يسـود هـذه المجتمعـات ويسيطر علـى نفـوس أهلهـا نظـرة معظمـة مقدسـة للمـال وصحبـه ، حتـى إنـه ليغـدو صـاحب المـال فيهـم ذو شـأن وقـدر كبـير ، وإن لـم يكـن ذا ديـن مكيـن وخلـق قويـم ، ولـذا فـإنهم يـتزلفون إليـه وينافقونـه ويُكبِرونـه ، بـل ويذلـون أنفسـهم بيـن يديـه طمعـا فيمـا يلقيـه إليهـم مـن فتـات مالديـه .

تلـك النظـرة الجـائرة التـي تعظـم المـال وترفـع مـن قـدر أصحابـه هـي التـي تجعلهـم إضافـة إلـى شـعورهم بالاسـتغناء الذاتـي يزيـدون فـي عتوهـم واسـتكبارهم ، وذلـك أنهـم عندهـا يتخيلـون علـوّ قدرهـم ورفعـة شـأنهم ، فينفـخ الشـيطان فـي نفوسـهم ، ويملأهـا غـروراً وخيـلاءً .

وتلـك النظـرة الجـائرة ليسـت وليـدة زمـن دون غيره بـل هـي مـيراث يتوارثـه أولـوا البصـائر المطموسـة والنظـرات القـاصرة ، والمثـل الزائفـة ، الذيـن غـابت عنهـم قيمـة الإيمـان أو حجبـت أفئدتهـم عنهـا ، فلـم يدركوهـا مـيراث يتوارثونـه جيلاً بعـد جيـل .

وفي كتـاب اللـه البيـان :

قـال اللـه تعـالى : ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقـرة:٢٤٦،٢٤٧] .

اختلـف فـي بيـان النبـي المذكـور هنـا علـى أقـوال ذكرهـا أهـل التفسـير ،

فليرجع إليها من شاء ذلك[1] .

وعلى كل حال فما يهمنا هو مغزى القصة وذلك يتحقق وإن لم يعرف من هو النبي المذكور فيها ، فلنأخذ بظاهر القرآن الكريم الذي لم يحدد ذلك لكونه ليس هو المقصود ، فهم جماعة من بني إسرائيل كان لهم هذا الطلب من نبيهم المبعوث إليهم .

لقد طلب هؤلاء القوم من نبيهم أن يملك عليهم ملكا يقاتلون معه وتحت رايته في سبيل الله ، فحذرهم نبيهم من ترك القتال إذا كتب عليهم ، فقالوا : لانفعل وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال نكثوا عهدهم إلاقليل منهم .

ولما أجيبوا إلى طلبهم أن يكون لهم ملكاً عليهم ، وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، وكان طالوت رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن طالوت من ذلك السبط ، ثم هو أيضاً فقير لايملك من المال ما يقوم به الملك[2] ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال .

وجاء الجواب من نبيهم : ﴿**قَالَ إِنّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[البقرة:٢٤٧] .

يقول لهم نبيهم : ذلك اختيار الله تعالى واصطفاؤه لااختياري أنا واصطفائي ، فالملك ملك الله تعالى يؤتيه من يشاء بعلمه وحكمته ، وهو سبحانه وتعالى واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، كما أنه تعالى عليم بمن يستحق الملك ممن لايستحقه ، ثم إن طالوت وإن لم يكن في بيت الملك فيكم ولم يكن من أهل الثراء منكم ، فإنه أعلم منكم وأنبل وأشكل وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة فيها ، أي هو أتم علما وقامة منكم[3] .

وهكذا نلحظ بل نرى النظرة المادية لدى هؤلاء القوم وهم يقفون هذا الموقف الرافض لمن ارتضاه الله سبحانه وتعالى واختاره ملكا لهم محتجين

---

(١) انظر على سبيل المثال : تفسير ابن كثير ٣٠٧/١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٠٨/١.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٣٠٨/١.

بأنه ليس من بيت الملك فيهم، كما أنه فقير لامال عنده، فكيف يملك عليهم؟ إنهم أحق بالملك منه بزعمهم لأنهم وُرَّاثُه، ولأنهم أصحاب الثراء والمال.

وفي قصة قارون نرى نفس النظرة المعظمة للمال وصحبه، فلقد خرج قارون على قومه في زينته مختالاً متبختراً بماله، فلما رآه القوم، قال أصحاب النظرة القاصرة التي لاتعدو الحياة الدنيا، قالوا وقد دُهشوا وبُهروا بحال قارون: ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:٧٩].

وشهد الموقف طائفةٌ من أولي البصائر التي نورها الله بالإيمان فعلمت أن المال قيمة أرضية ودنيوية دنيا، لاتقوم مقام الإيمان والعمل الصالح، فقالوا مذكرين أولئك المبهورين المشدوهين بزينة قارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠].

ولم يمض من الوقت إلا قليل، ويريد الله تعالى أن يحل عقابه بقارون فيخسف به وبداره الأرض يهوي في بطنها ذليلاً صاغراً لاناصر له من أحد، وليس بمنتصر بمال أو جاه[1].

ويشهد القوم هذه النهاية المخزية لقارون، فتستيقظ نفوس الذين بهرتهم قبل زينة قارون، فيقولون وقد عاد إليهم رشدهم: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلآ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص:٨٢].

إن المال ليس إلا رزق من الله تعالى يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء من عباده، وليس إعطاؤه أو منعه دليلا على حبه وبغضه، وإلا لما كانت هذه نهاية قارون المؤلمة المخزية.

ولما كان الأمر كذلك، قال الحق سبحانه وتعالى في نهاية قصة قارون: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

الدنيا فانية، والآخرة باقية، فليستكبر وليستعلي عُبَّاد الدنيا، فليس لهم في الآخرة من نصيب، وليصبر المتقون على ابتلاء الله لهم بالسراء والضراء،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣٠٨/١.

فإن العاقبة لهم ، فقد قال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتّقِينَ ﴾ [النحل:٣٠] .

وفرعون أعظم طاغية متكبر تطاول على مقام الألوهية وادّعى لنفسه مالم يدَّعِه إبليس عليهما لعنة الله ، فقال كما أخبر عنه الحق تعالى : ﴿ أَنَا رَبّكُمُ الأعْلَى ﴾[النازعات:٢٤] ، وقال كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص:٣٨] .

فرعون هذا عليه لعنة الله كان ملكه وجاهه وماله من أسبابه بغيه وتكبره ، فهو الذي يقول كما يقص القرآن الكريم : ﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مّنْ هَذَا الّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ . فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ . فَلَمّآ آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف:٥١،٥٦] .

هكذا تبجح فرعون بملكه مِصْرَ وتصرفه فيها مفتخراً زاعماً أنه خير من موسى عليه السلام الذي لايملك مثل ملكه ، ويصفه بأن مهين وكذب عليه لعنة الله إلى يوم الدين بل هو الذليل المهين الوضيع الحقير ، ولوجمعت له الدنيا من أطرافها .

ولقد لقي فرعون من قومه خفة في أحلامهم ونقصانا في عقولهم ، وميلاً إلى مظاهر الدنيا ، فخدعهم بقوله هذا ، واستمال به قلوبهم ، فمالوا إليه ، وأطاعوه ، وقبلوا قوله ، وكذبوا موسى ، ﴿ إِنّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ، أي : خارجين عن طاعة الله[1] ، ولذلك أغرقهم الله وجعلهم عبرة للمعتبرين إلى يوم الدين .

ونأتي ننظر حال كفار قريش ، فنرى كيف أن تلك النظرة المادية كانت من أسباب تكبرهم وكفرهم ، فهم الذين قالوا وقد بعث فيهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاءهم بكتاب الله : ﴿ لَوْلاَ نُزّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف:٣١] ، يعنون بالقريتين : مكة والطائف ،

---

(١) انظر : فتح القدير ٤/٥٦٠.

واختلف في الرجلين على أقوال[1] :

قال ابن كثير : « والظاهر أن مرادهم كبير من البلدتين »[2] ، وقال الشوكاني[3] : « وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه ، واسع المال ، مسود في قومه »[4] .

ومعنى قولهم هذا أنهم ينكرون أن يكون القرآن الكريم كلام الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم إذ لو كان من عند الله لنزل على رجل عظيم له الجاه والمال والرياسة كالوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي أو غيرهما ، ولما نزل على محمد وليس له من الرياسة والمال شيء .

هكذا قالوا ، وهكذا زعموا حينما غفلوا عن المثل العليا ، وركنوا إلى الدنيا وشغفوا بزينتها الفانية حباً ، وهم القائلون : ﴿**لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ [هود:١٢] ، والقائلون : ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ**

---

(١) قيل : عنوا الوليد بن المغيرة ومسعود بن عمر الثقفي ، وقيل : عنوا عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي ، وقيل : عنوا عتبة بن ربيعة ، وقيل : جبار من جبابرة قريش ، وقيل : الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، وقيل : عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف.

انظر : تفسير ابن كثير ١٣٧/٤

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٧/٤.

(٣) محمد بن علي بن محمد بن عبدالله ، إمام علامة ، بحر مجتهد ، عابد ، زاهد ، مصنف بارع . ولد في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة١١٧٣هـ في بلدة هجرة شوكان من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، نشأ بصنعاء ، وأخذ في طلب العلم وسماع العلماء الأعلام في مختلف العلوم ، وحفظ الكثير من المتون حتى صار إماماً يشار إليه ، ورأساً يرحل إليه . ولم يزل مكباً على العلم قراءة وتدريساً حتى جاء أجله ولقي ربه ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة١٢٥٠هـ.

انظر : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .

(٤) فتح القدير ٥٥٤/٤.

حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٠،٩٣] .

وهم القائلون: ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] ، يريدون دين الله الذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ويريدون أن لاخير فيه ، لأنهم سُبقوا إليه من قبل المستضعفين الذين ليس لهم مالهم وجاههم ، فلو كان خيراً إذاً بزعمهم ماسبقوا إليه ، فلايمكن أن يُسبَقوا إلى خير أبداً وهم أولى به ، لأنهم أهل الجاه والسيادة والمال .

ويلخص القرآن الكريم ويوجز ماسبق فيذكر أن تلك النظرة القاصرة إلى المال المعظمة له كانت سبباً من أسباب كبر المتكبرين ، وكفر الكافرين في كل أمة سابقة ، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤،٣٥] .

يكفرون بالله ربهم تبارك وتعالى ويكذبون رسله عليهم الصلاة والسلام ، ثم يزعمون أنهم ناجون من عذاب الله ، لماذا؟ ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ، فهل حقا كثرة المال والولد مع الكفر تنجي من عذاب الله؟

كلا! فلقد أهلكهم الله تعالى في الدنيا ، فلم تغن عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله وبطشه من شيء ، وفي الآخرة يردون إلى أشد العذاب ، ولن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله من شيء ، فيتصارخون في النار ، يقول أحدهم : ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَآ أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٧،٢٩] .

وها هنا مسألة ، وهي : أن ماذكرته فيما سبق يمثل جانب الكفر في نظرة أهله إلى المال وتقديسهم له ، وكونه ميزاناً من موازين القيم عندهم ، فهل يصيب المؤمن من ذلك شيء؟

والجواب : نعم ، وذلك حين يقل منسوب الإيمان لديه ، فينسى لقاء ربه ، وينشغل بزخرف الدنيا عن نعيم الآخرة ، ويفقد التصور للقيم الحقة المثلى .

أو حين يعيش في مجتمع مادي ، وسط بيئة مادية تقدس المال وتعظم

أصحابه ، أو حين يتربى مترفاً وينشأ متنعماً تتحقق كل رغباته وشهواته ، وهو يرى من أقرانه من يعيش في حاجة لأقل القليل عنده ، أو لنقل يعيش يكابد المصاعب لتوفير ضرورات الحياة ، وذاك قد توفرت له الضروريات والكماليات ، والفرق بينهما أن الأول بيده المال يحقق به رغباته وشهواته ، والآخر فقير لايملك من المال ما يحقق له ذلك .

حين يكون هذا حاله مع فقدانه المهذب والمربي الذي يقوم سلوكه ، فيصله بربه تبارك وتعالى ، ويقف به عند القيم الإيمانية ليغرسها في نفسه ، ويربيه عليها ويعرفه القيم الدنيوية الأرضية الزائفة ليحذر الركون إليها والانشغال بها وتقديمها على قيم الإيمان ، حين يكون هذا حال المؤمن فإنه لاشك سيجنح إلى الغرور والتكبر بالمال .

ومن هنا لزم الحرص الدائم على توثيق صلة المؤمن بالله تبارك وتعالى ليقوي إيمانه ويتهذب سلوكه وتصح مفاهيمه وترسخ القيم المثلى في نفسه .

ونذكر واقعة من العهد النبوي تدل دلالة واضحة على أن المؤمن قد يقع في هذه النظرة المادية الدنيوية ، هذا الواقعة أخرجها الإمام البخاري[1] في صحيحه عن سهل بن سعد[2] رضي الله عنه أنه قال : "مر رجل على رسول

---

(١) هو : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبه أبوعبدالله . ولد في شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، طلب العلم صغيراً ، سمع ببلخ ونيسابور والري وبغداد والبصرة والكوفة ومكة والمدينة ومصر والشام . وروى عنه خلق كثير منهم الترمذي وأبوحاتم... ، صنف التصانيف الحسان ومنها : كتاب التاريخ والأدب المفرد وكتابه الصحيح الذي اتفق على جلالته وصحته ، كان عجيباً في الحفظ وسعة العلم والذكاء ، وأثنى عليه العلماء بما هو أهله ، عرف بالورع والعبادة الصلاح والكرم والسماحة ، امتحن فصبر . وكانت وفاته يرحمه الله ليلة عيد الفطر عند صلاة العشاء سنة ست وخمسين ومائتين . وعاش اثنتين وستين سنة إلا بضعة عشريوماً .
انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ـــ٤٧١ .

(٢) ابن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري الساعدي ، من مشاهير الصحابة ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من حزن إلى سهل . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن أُبيّ وعاصم بن عدي... ، روى عنه ابن العباس وأبوحازم والزهري وآخرون ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة . مات سنة إحدى وتسعين . وقيل : قبل ذلك .

<=

الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **ماتقولون في هذا؟** » قالوا : حريّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يستمع ، قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين ، فقال : « **ماتقولون في هذا؟** » قالوا : حري إن خطب أن لاينكح ، وإن شفع أن لايشفع ، وإن قال أن لايستمع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **هذا خير من ملء الأرض مثل هذا** » ، وفي رواية : "مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل عنده جالس : « **ما رأيك في هذا؟** » ، فقال : رجل من أشراف الناس ، هذا والله حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر رجل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما رأيك في هذا؟** » ، فقال يارسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حري إن خطب أن لاينكح ، وإن شفع أن لايشفع ، وإن قال أن لايسمع لقوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا** »[1] .

إنه مقياسٌ ماديٌّ بحتٌ ، به يظهر الوجيه الغني خير وأفضل من الفقير ، لذا فهو أولى بأن لايرد له طلب ، فإن خطب زوج ، وإن شفع شُفِّع ، وإن قال يسمع قوله ، أما الفقير فلاشيء من ذلك .

وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد بهذا السؤال عن الرجلين أن يمتحن أصحابه ليرى مدى تخلصهم من مفاهيم الجاهلية وقيمها الزائفة ، فإن وجد في نفوس بعضهم شوائب لازالت عالقة بها ، سارع إلى تربيتهم ليتحرروا من سلطانها[2] ، وهذا دأبه صلى الله عليه وسلم في تربية أصحابه ، يوجههم ويرشدهم إلى القيم الحقيقية التي تقاس بها أقدار الناس ، وينتزع من نفوسهم كل مفهوم خاطئ ، وكل سلوك معوج ، وهاهو هنا صلى الله عليه وسلم يقول : « **هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا** » .

=

انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٣/١٤٠ .

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين ١٤/٧ ، وفي كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ٤٦٥/٨.

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية ٦٩٢/١.

وهو بهذا صلى الله عليه وسلم ينبه أصحابه ويرشدهم ويوجههم مبيناً لهم خطأ نظرتهم إلى الرجلين ، ووزنهم لهما بميزان الشرف والمال -ميزان أهل الدنيا- فيذكر لهم صلى الله عليه وسلم -وهو الذي زكاه ربه- فقال: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ [النجم:٣،٤] ، أن الرجل الفقير الذي رأوه دون الشريف هو عند الله وفي ميزانه خير وأعظم من ملء الأرض من مثل ذاك ، ذلكم أن الله تبارك وتعالى لايزن عباده بميزان القيم الدنيوية الزائفة ، بل يزنهم بميزان الإيمان والتقوى ، فمن رجحت كفة إيمانه وتقواه فهو الكريم عظيم القدر والشأن عنده ، وإن لم يكن له من حظوظ الدنيا وزخارفها نصيب .

ومن خفت كفة إيمانه وتقواه فلاكرامة ولاقدر وإن كان له من حظوظ الدنيا وزخارفها ماكان ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة** »(1) .

لماذا؟ لأنه ليس له من تقوى الله تعالى نصيب .

بينما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وكان نحيلاً أشد ما يكون النحل حتى ذكر أنه رضي الله عنه من نحالته لم يستطع يوم بدر حمل رأس أبي جهل ، فربطه بشيء وقام يجره جراً ، ومع هذا فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه -وقد عجبوا من نحالة قدميه- : « **إنها عند الله أثقل من جبل أحد** »(2) .

لماذا؟ لأنه يحمل في صدره : لاإله إلا الله ، كلمة التوحيد التي لو

---

(1) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير تفسير سورة الكهف ، باب قوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً** ﴾ [الكهف:١٠٥] ، ٤٤٧/٦.

وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٧/٤ . والحديث راويه أبوهريرة رضي الله عنه .

(2) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يجتني سواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مم تضحكون؟ » ، قالوا : يانبي الله من دقة ساقيه ، فقال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد » . ٤٣١/١ .

وضعت السموات والأرض في كفة ، ووضعت هي في كفة ، لرجحت بهن ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فقد ورد في الحديث « أن موسى عليه السلام قال : يارب علمني شيئاً اذكرك به وأدعوك به ، قال : قل : لاإله إلاالله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا . قال : قل : لاإله إلاالله . قال : إنما أريد شيئاً تخصني به ، قال : ياموسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ، ولاإله إلا الله في كفة ، مالت بهم لاإله إلاالله »[1] .

وفي حديث آخر أن نوحاً عليه السلام أوصى ابنه فقال : « أوصيك بقول لاإله إلا الله ، فإنها لو وضعت في كفة ووضعت السموات والأرض في كفة ، لرجحت بهن ، ولوكانت حَلْقَةً لقصمتهن حتى تخلص إلى الله »[2] .

وفي ختام هذه المسألة نخلص إلى أن هذه الأسباب هي أبرز الأسباب التي تؤدي إلى التكبر بالمال إضافة إلى الأسباب العامة المذكورة في مبحث أسباب الكبر ، وهو المبحث الذي يلي هذا المبحث .

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ٥٢٨/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٧٠/٢ ، ٢٢٥.

وأخرجه الحكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ٤٩/١ .

الداعي الخامس من دواعي الكبر : الحسب والنسب .

للحسب والنسب معان كثيرة خلاصتها : أن الحسب في الأصل : الشرف بالآباء ومايعده الناس من مفاخرهم[1] . والنسب : القرابة أو هو في الآباء خاصة[2] .

وعلى ضوء هذا فإن الحسب والنسب قيمة دنيوية يتطاول بها أهل الجاهلية قديماً وحديثاً الراكنون إلى دنياهم ، المخدوعون بقيمها الرخيصة ، الغافلون عن القيم المثلى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ** »[3] .

والمتكبرون بأحسابهم وأنسابهم تراهم يتكاثرون بآبائهم ، ويتفاخرون بهم أحياءً وأمواتاً . ويتطاولون بالأصل والفصل ، ويستعلون بالقبيلة والعشيرة أو باللون والجنس على من سواهم يفعلون ذلك ولسان حالهم ومقالهم (أنا خير منه) .

(أنا خير منه) كلمة آثمة تفوه بها رئيس حزب المتكبرين ووليهم : إبليس اللعين ، معللا بها استكباره عن السجود لآدم عليه السلام وعصيانه بذلك أمر ربه جل جلاله ، ولم أنت خير من آدم يالعين؟

قال اللعين معتزاً بأصل خلقته مستنقصاً أصل خلقة آدم عن ظن سيء وقياس فاسد : ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ [ص:٧٦] .

هذه الكلمة الإبليسية الآثمة ، والحجة الشيطانية الداحضة في التعظم والاستكبار هي مايتبجح به المتكبرون بأحسابهم وأنسابهم على وجه الخصوص ، وكل المتكبرين بأية صورة من صور الكبر سواها على وجه العموم .

يقول المتكبر بحسبه ونسبه لمن تكبر عليه : أنا خير منك أصلاً وفصلاً ،

---

(١) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٨١/١ ، والقاموس المحيط ص٩٤.

(٢) انظر : القاموس المحيط ص١٧٦.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، باب في النياحة ٦٤٤/٢.

وأشرف قبيلة وعشيرة، وأعلى حسباً ونسباً، أنا ابن الأكرمين من سلالة العز والشرف، أنا من بلد الأمجاد وموطن الأنجاد، وأنت من أنت؟ وأي حسب لك؟ وأي منقبة ومكرمة لآبائك..؟

ويظل ذلك المتكبر يفتخر بحسبه ونسبه، منتقصاً لغيره مزدرياً أصله وحسبه محتقراً جنسه نابزاً له به وبعشيرته وفصيله، يقول: ياهندي وياسندي، أو ياحجازي، أو يانجدي، أو يايمني...، ويقول: ياابن الحذاء، أو ياابن الحلاق، أو ياابن الغسال...، ويقول: ياوضيع النسب، يامنحط الأصل...، إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدل على استصغاره له وتعظمه عليه.

وكذلك من يرى نفسه حسيباً نسيباً فيتعظم بذلك، تراه يأنف غاية الأنفة من مجالسة أو محادثة أو مخالطة من يراه دونه حسباً ونسباً، ويتصف نحوه بسائر الصفات التي يتصف بها المتكبرون إظهاراً لعظم شأنهم وعلو قدرهم، من حيث لايعلمون أنها طريق لذلهم وهوانهم على الله تعالى وعلى خلقه.

والتكبر بالحسب والنسب نعرة جاهلية تقسم المجتمعات إلى طبقات وفصائل مختلفة، فتؤدي إلى التنافر والتناحر والافتراق، وذلك حين ينقسم الناس إلى ملإ مستبدين، ورعاع مستضعفين، فيظلم الملأُ المستضعفين ويغمطونهم حقوقهم ويستعبدونهم، ويحقد المستضعفون على الملإ فيكنون لهم كل عداوة وبغضاء، فيبقى الجميع لايأمن جانبٌ الجانبَ الآخر، وهمه محاربته وعداوته والقضاء عليه.

وبالعودة إلى ماقصه علينا كتاب الله تعالى من قصص المتكبرين نجده لم يغفل هذه الصورة من الكبر، فلقد ذكر لنا أن من أعظم أسباب استكبار الملإ عن الإيمان بالله تعالى والانقياد لرسله عليهم السلام هو: تعززهم بما كان عليه أباؤهم وتمسكهم به، يقولون كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٢]، ويعيرون الرسل بأنهم مااتبعهم إلا المستضعفون الذين ليسوا من ذوي الوجاهة والنسب.

قال الملأ المستكبرون من قوم نوح عليه السلام: ﴿**أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**﴾ [الشعراء:١١١]، : ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**﴾ [هود:٢٧].

وقال الملأ المستكبرون من قوم صالح لمن آمن من المستضعفين: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]، يكفرون بالله تعالى أنفة أن يتساووا والمستضعفين الذين سبقوهم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى.

كما أن وجهاء قريش وزعماءها طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله المستضعفين الذين آمنوا به، أمثال: بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي...، ليجلسوا إليه هم وحدهم، أنفة أن يجلسوا مع أولئك المستضعفين فيكونون سواءً مع أن الحقيقة أنهم ليسو سواء، لكن لا كما ظن وزعم أولئك الجاهلون، بل كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

فالمؤمنون في الجنة وأولئكم في النار.

وقفة مع حاضر الأمة (للذكرى)

لعله من المناسب الآن أن نتلفت حولنا متأملين أحوالنا، وسنرى كم نعاني من هذه الصورة من صور الكبر الطبقي الشيطاني الجاهلي، فلقد غدا أهل لا إله إلا الله يتمايزون ويتفاضلون لابمقدار ماحققوه من مفهوم هذه الشهادة العظيمة وطبقوه في واقع حياتهم، ولكن بأجناسهم وأحسابهم وألوانهم، وسائر قيم أهل الجاهلية، فأنى اتجهت ويممت وجهك تجد هذا التمايز، فأبناء البلد مواطنون لهم الحق في كل شيء، وإخوانهم في العقيدة من غير جنسهم وبلدهم أجانب لايحق لهم مقارنة أنفسهم بأبناء البلد في شيء، بل هم خدم لهم وأجراء!! وأنى للخادم والأجير أن يتساوى مع سيده؟!!

هذه النعرة الجاهلية وللأسف الشديد ليست على مستوى الأفراد، إذا لهان الخطب قليلاً، بل هي أيضاً على مستوى الجماعات والحكومات، تعمل وسائل الإعلام المختلفة على تضخيمها، ويرعاها ويذكي نيرانها من حملهم الله تعالى أمانة حفظ وحدة الأمة وترابطها.

وقد لايتوقف الأمر على هذا التمايز الجاهلي بين أبناء البلدان المختلفة، بل يتعدى ذلك إلى أن يكون بين أبناء البلد الواحد، فتوجد الطبقات المختلفة، فهذا يفخر بعشيرته وقبيلته، وغيره مثله، وسواهم كذلك، وكل

واحد منهم ينتقص الآخرين وينبزهم بعشائرهم وأصولهم معتقداً أنه خير منهم وأفضل .

إنها سلبية من سلبيات كثيرة ، دواهي أصابت المجتمعات الإسلامية ، فغدت القلوب متنافرة ، والأرواح متناكرة ، والصفوف متفرقة ، والكلمة مختلفة ، وبذلك غدت الأمة تقبع في مؤخرة ركب الأمم ، بعد أن كانت تحمل لواء التقدم وسائر الأمم تلهث تبغي اللحاق بها .

أقول : لقد اطلع أخ لي في الله تعالى على نحو من كلامي هذا في محاولة ربط واقعنا المعاصر بموضوع دراستي هذه ، فقال : ربما اعترض عليك ، إذ كيف يكون موضوع بحثك هو الكبر والمتكبرون في ضوء الكتاب والسنة ثم أنت تخرج إلى هذا المجال؟

فقلت : سبحان الله! وماجدوى أي دراسة وبخاصة في المجال الأخلاقي إذا لم يكن فيها التفات لمعالجة واقع الأمة المعاصر؟! ثم أيظن ظان أن القرآن الكريم والسنة المطهرة جاءا ليكونا مختصين بأهل زمان أو مكان معين؟! أم أنهما دستوران لأمة الإسلام قاطبة من لدن ولادتها وحتى يرث الله الأرض ومن عليها؟!

إن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يتناولا هذه القضية الأخلاقية ذات الأبعاد الخطير بقصد علاج قوم نوح أو قوم عاد... أو غيرهم من الأمم الغابرة ، أو فقط لمعالجة المتكبرين الذين وجدوا على عهد النبوة المحمدية وفي عصرها ، بل لمعالجة هذا الانحراف الخطير متى ظهر في أمة الإسلام سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو المجتمعات .

ومن هذا المنطلق فإن دراسة هذه القضية قضية الكبر ومحاولة البحث عن سبل علاجها وذلك في ضوء الكتاب والسنة ليست دراسة لها على أنها قضية كانت وولى زمانها ، بل على أساس أنها قضية مستمرة متواصلة ، لها في كل زمان ومكان وراثها الذين يرثونها عمن سبقهم من الجاهلين ، ولذا ينبغي أن لايغفل عنها أبداً .

وكذا الحال في كل قضية أخلاقية أو عقائدية تناولها كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتبيين والإيضاح ، ينبغي أن تأخذ الأمة منها العبر والعظات ، لتستفيد منها في حاضرها ومستقبلها ، كما أفادت منها في ماضيها . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وزبدة الكلام في هذا الداعي من دواعي الكبر وهو النسب والحسب أن المتكبر به شأنه أن يتعاظم على الدوام ويتفاخر بآبائه وأصوله، وبقبيلته وفصيلته، وماحازوا من الفضائل وماكان لهم من المآثر، ثم هو ينتقص الآخرين يغمزهم بأنسابهم ويلمزهم بأجناسهم، ناظراً لنفسه بعين الاستعظام ولهم بعين الاحتقار والاسترذال، ثم يؤدي به تعظمه هذا عليهم إلى غمطهم حقوقهم وإلى عدم قبول الحق منهم، وفي هذا الأمر ماقد علمت من الشر والفساد الذي يصيب الأمة أفراداً وجماعات.

فائدة:

لاينبغي علينا أن نتجاهل أمراً له وجوده، وهو: أن هناك من الأنساب ماتتطلع إليه النفوس لشرفه وزكاة سلالته، كما هو الحال في أنساب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن الله تعالى يصطفيهم من أكرم وأطهر وأنبل السلالات البشرية، ليكونوا موضع ثقة من أُرسلوا إليهم، وحتى لايجد المتعنتون فيهم مطعناً يطعنونهم به، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج:٧٥]، أي: يختار ويجتبي رسلاً من الملائكة ومن الناس يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لايكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق[1].

وفي الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[2].

وفي الحديث أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم»، قالوا يانبي الله ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا نعم. قال:

---

(١) انظر: تفسير السعدي المسمى بـ(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص٤٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم من حديث واثلة بن الأصقع ١٧٨٢/٤.

فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[1] .

وعند إجالة النظر في هذه النصوص التي بين أيدينا يتبين لنا أن الله تعالى يختار رسله وأنبياءه ويصطفيهم من أكرم وأزكى السلالات البشرية ، وهذا دليل على أن هناك أنساباً لها قيمتها وشرفها ، لكن ليس بها يكون التفاضل عند الله سبحانه وتعالى ، بل نكرر دائماً بالتقوى ، ولذا عندما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكرم الناس ، أجاب أول ماأجاب : « أكرمهم أتقاهم » ، وهو بهذا صلى الله عليه وسلم يقرر لهم القيمة السماوية للسمو والعلو ، لكنهم كانوا يسألونه عن أكرم الناس من ناحية أصولهم التي ينتسبون إليها ويتفاخرون بها ، وما خفي ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أراد تنبيههم إلى ماهو أسمى من ذلك وأعلى ، فلما تحقق له صلى الله عليه وسلم ماأراد بين لهم ماطلبوا بيانه ، فأكرم الناس يوسف النبي ابن النبي ابن النبي ابن الخليل ، وأكرم بهذا نسباً ، وأكرم الناس في زمن السؤال وبعده « من جمع بين الشرف في الجاهلية والشرف في الإسلام ، وكان شرفهم في الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع ومنافرته ، خصوصاً بالانتساب إلى الآباء المتصفين بذلك ، ثم الشرف في الإسلام بالخصال المحمودة شرعاً ، ثم أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك التفقه في الدين ، ومقابل ذلك من كان مشروفاً في الجاهلية ، واستمر مشروفاً في الإسلام ، فهذا أدنى المراتب .

والقسم الثالث : من شرُف في الإسلام وفقِه ، ولم يكن شريفاً في الجاهلية ، ودونه من كان كذلك ، لكن لم يتفقه .

والقسم الرابع : من كان شريفاً في الجاهلية ، ثم صار مشروفاً في الإسلام ، فهذا دون الذي قبله ، فإن تفقه فهو أعلى رتبة من الشريف الجاهل»[2] .

---

(١) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ [النساء:١٦٥] .٥٩٧/٤ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ** ﴾ [البقرة:١٣٣] ، ٦٠٦/٤ .

وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب من فضائل يوسف عليه السلام١٨٤٦/٤ .

(٢) فتح الباري شرح البخاري ٥١٢/٦.

الداعي السادس من دواعي التكبر : القوة .

وأعني بالقوة هاهنا قوة البدن ، لاقوة الجاه والمال والأنصار والأتباع والجنود... ، فهذه لها مكانها من هذا المبحث الذي بين أيدينا ، فأرجو من الله التوفيق لإيضاحها .

التكبر بالقوة :

يمن الله عزوجل على عباده بمنن لاتعد ولاتحصى ، فيقابل الموفقون تلك النعم بالشكر والعرفان ، والتواضع والإخبات ، ويقابلها المخذولون بالجحود والبطر والطغيان .

وإن من النعم التي يمن الله تعالى بها على من يشاء من عباده نعمة القوة والصحة والعافية ، فإذا بعضهم معجب بذلك ، أشر مختال فخور ، يتطاول بقوته على الضعفاء ، ويستعملها في أذيتهم وسلبهم حقوقهم ، كما يستعملها في نصرة الباطل وخذلان الحق وبخاصة إذا كان في الحق معارضة لهواه وتسفيه لرأيه ومسلكه .

وتظهر على المتكبر بقوته سائر الأخلاق الذميمة التي تظهر على المتكبرين كافة ، ومنها : الفخر والزهو بقوته وشدته ، والتباهي بصحته ، والهزء بالضعفاء والعاجزين والسخرية منهم ، والأنفة من صحبتهم ومعاشرتهم .

ولقد أبرز القرآن الكريم هذا الداعي من دواعي التكبر فيما قصه علينا من قصص المتكبرين الذين أمدهم الله تعالى ومتعهم بنعمة القوة ، فركنوا إليها غير شاكرين ، وأعجبوا بها مستكبرين .

ومن أبرز أولئك المستكبرين بما أوتوا من قوة ممن ذكر في كتاب الله تعالى خبرهم قوم عاد وثمود .

فأما عاد فلقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ**﴾ [الفجر:٦ــ٨] ، أي : لم يخلق مثلهم في زمانهم في الطول والقوة والشدة والبطش[1] . وهم الذين خاطبهم نبيهم هود عليه السلام بقوله كما جاء في كتاب الله ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً**

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٧٧/٣٠ ، وفتح القدير ٤٣٥/٥.

تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣٠]، وهذه نتيجة ماتمتعوا به من نعمة القوة التي ذكرهم بها هود عليه السلام فقال كما حكى القرآن ذلك ﴿ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاءَ اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف:٦٩]، أي: اذكروا نعمة الله عليكم أن جعلكم تخلفون قوم نوح في سكنى الأرض التي كانوا فيها[1]، ثم زادكم عليهم في أجسامكم طولا وعِظماً، وزاد في قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله واشكروه على ذلك بإخلاص العبادة له وترك الإشراك به[2].

فهذه الآيات البينات تدل على أن الله تعالى أنعم على قوم عاد بضخامة الأجسام وقوة الأبدان، فكيف قابلوه هذه النعمة؟

يقول الله تعالى في شأنهم: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥]، أي: تكبروا عن الإيمان بالله وتصديق رسله، واستعلوا على من في الأرض[3]، وقالوا في تعظم كبير ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، ومرادهم بهذا القول المقيت أنهم يمتنعون بقوتهم من بأس الله[4]، وأنهم قادرون على دفع ماينزل بهم من عذابه، ولهذا قال الله تعالى استنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم[5]: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥]، والمعنى: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة، فإنه الله العظيم الذي خلقهم وخلق سائر الأشياء، وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد[6]، وهو القادر على أن ينزل بهم من

---

(١) انظر: فتح القدير ١١٨/٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢١٦/٨.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ١٠٢/٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ١٠٢/٤.

(٥) انظر: فتح القدير ٥١٠/٤.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ١٠٢/٤.

عقابه ماشاء[1].

وأما ثمود فقد خلفوا عاداً، ومتعوا بالقوة، فكانوا يقطعون الصخر ويخرقونها وينحتون من الجبال بيوتاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُواْ الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩]، أي: خرقوا الصخر ودخلوه فاتخذوا بيوتاً، ونظير هذا قول الله تعالى عنهم: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٢].

وقال نبي الله صالح عليه السلام لقومه ثمود مذكراً ومرشداً: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاءَ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، يذكرهم نعمة الله عليهم مرشداً لهم أن يستعملوها في طاعته ولايعيثوا بها ولأجلها في الأرض فساداً.

وكذبت ثمود واستكبرت كما فعلت عاد، فأهلكهم الله وقطع دابرهم، كما فعل بعاد، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٤ـ٨].

وخلاصة القول: أن القوة البدنية وضخامة الأجسام وشدتها داع دعا أولئك القوم إلى الاستكبار والتعظم، ويدعو غيرهم على مر الأيام إليه، غير أنه ينبغي أن ندرك أن الغالب على التكبر بهذا الداعي أن يكون فردياً، إذ ليس كل الناس في سائر الأمم يتساوون في القوة المذكورة.

ثم أيضاً ينبغي أن ندرك أن ثمة قوى أخرى غير قوة البدن تدعو إلى ذلك الاستكبار والتعظم المقيت، كقوة الجند والسلاح والسلطان وقوة الاقتصاد، فإننا لونظرنا في واقعنا المعاصر لرأينا أن العالم تسيطر عليه دول قوية في هذه المجالات، وتلك الدول تشمخ بأنوفها فوق الدول التي لاتمتلك تلك القوى، وكم هي تلك المواقف والصور التي تبرز تعظم تلك الدول وخيلاءها ممالايخفى على المتبصر الفطن، بل وحتى على غيره، فكم تعتدي دولة قوية

---

(١) انظر: فتح القدير ٤/٥١٠.

على أخرى ضعيفة وتتدخل فيمالايعنيها من شئونها، وكم تسلب من حقوق وتزهق من أرواح؟ وكم تحارب أية محاولة من دولة مستضعفة لبناء نفسها؟ وكم تقف مع الظالم والقوى ضد المظلوم والضعيف؟ كم وكم...، كم تفعل ماتفعل من القبائح، وهي الآمرة الناهية، ليس لأحد أن يخالف أمرها ونهيها، وإن حاول أحد أن يدافع عن كرامته الممتهنة وحقه المسلوب أو يعبر عن رفضه للظلم والإذلال فالويل له من إرهابي متطرف يزعزع الأمن ويبث الرعب، ويظهر الفساد، وإن كان طفلاً ألقى حصاة في وجه عدوه الغاشم، فارتدت إلى صدره رصاصة مزقت أحشاءه.

إن تعظم تلك الدول بقواها المذكورة لاحدود له، فهي تنظر إلى الآخرين كخدام وجدوا لتحقيق مصالحها، وليس من حق أحدهم أن يرفع رأسه، بل عليه أن يظل مطأطئاً له ليسلم، وإلا لبقي جسداً بلارأس.

فليتعاظم أولئك المأفونون كيفما شاءوا لنرى إلى أي مدى سيصلون في خيلائهم وانتفاشهم، فلقد تعاظم غيرهم وتطاولوا فهووا من عليائهم أذلاء صاغرين، وماهي إلا سنة الله تعالى في خلقه يداول الأيام بينهم، ويذيق المستكبرين منهم عذاباً مهيناً وإن أملى لهم.

قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ . وَأَنذِرِ النّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الّذِينَ ظَلَمُوآْ رَبّنَآ أَخّرْنَآ إِلَىَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتّبِعِ الرّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوَاْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ . وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الّذِينَ ظَلَمُوَاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ [إبراهيم:٤٢ـ٤٦].

الداعي السابع من دواعي الكبر : العدد .

قصص المتكبرين في القرآن الكريم شواهد حية دالة غاية الدلالة على أن كثرة الأبناء والأنصار والأتباع والعشيرة والجنود.... ، داع رئيس لظهور التكبر .

قال الله تعالى مجملاً حال المستكبرين من سائر الأمم مبيناً منطقهم السقيم وهم يعللون كفرهم بالله ورسله ، واستكبارهم عن الانقياد للحق واتباع الهدى : ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ [سبأ:٣٤،٣٥] .

وقص علينا كتاب ربنا خبر صاحب الجنتين المتعظم بماله وولده على صاحبه الفقير ، وهو يقول له مزهوا عليه : ﴿**أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً**﴾ [الكهف:٣٤] ، أي : أعز عشيرة وأكثر خدماً وحشماً وولداً[(١)] .

نحن أكثر ، أنا أكثر وأعز ، منطق سقيم ينفث تعظماً واستعلاءً ، يردده كل مختال بكثرة ماله أو بنيه أو عشيرته أو أتباعه أو جنده... ، وهو منطق ليس بجديد ، بل هو من جنس قول المستكبر الأول إبليس اللعين ، وقد استكبر عن السجود لآدم عليه السلام ﴿**أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ**﴾ .

ولافرق بين ماقاله إبليس لعنه الله وماقاله صاحب الجنتين ، ويقوله من كان على شاكلتهم ، فكل ذلك يعني رفع النفس واحتقار الآخرين .

ومنذ أن خط إبليس طريق التكبر وإلى أن تفنى الحياة الدنيا يبقى المتكبرون « سلسلة واحدة بطريقة تفكيرهم وتقديرهم للنعم »[(٢)] ، وتعززهم وتعظمهم بما يَفْنى من القيم ، فهاهوذا أبوجهل يستعلي بكثرة قومه وعشيرته ، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند المقام ، فمر به أبوجهل بن هشام ، فقال : يامحمد! ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره . فقال يامحمد! بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فأنزل الله : ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُو**

---

(١) انظر : تفسير الطبري ٢٤٦/١٥ ، تفسير ابن كثير ٨٧/٣.

(٢) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق ص١٨١.

الزَّبَانِيَةَ ﴾ [العلق: ١٧، ١٨] .

ومتع الله تعالى الوليد بن المغيرة المخزومي بكثرة المال والولد ، فإذا به يُدبر عن الحق ويستكبر عن الانقياد للقرآن[١] ، بعد أن تبين له أنه الحق ، وفيه نزل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَـٰذَآ إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٣٠] .

وقد نزلت سورة من كتاب الله تشنع على أقوام شغلهم التفاخر والتكاثر بالأحياء منهم والأموات عن كل شيء يجب عليهم الاشتغال به من طاعة الله تعالى والعمل لحياتهم الآخرة[٢] ، حتى كانوا من سكان القبور .

قال الله تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** ﴾ [التكاثر: ١، ٢] .

قيل : نزلت هذه السورة في حيين من قريش : بني عبدمناف وبني سهم ، كان بينهما لحاء ، فتعَادُّوا السادة والأشراف أيهم أكثر؟ فقال بنوعبدمناف : نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً . وقال بنوسهم مثل ذلك ، فكثرهم بنوعبدمناف ، ثم قالوا نعد موتانا ، حتى زاروا القبور فعدوا موتاهم ، فكثرهم بنوسهم ؛ لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية[٣] .

وقيل : نزلت في اليهود ، قالوا : نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً[٤] .

وقيل : نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ، وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتن تقول : فيكم مثل فلان ، يشيرون إلى القبور ،

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٧٢.

(٢) انظر : فتح القدير ٥/٤٨٨.

(٣) انظر : أسباب النزول للواحدي ص٥٣٧.

(٤) انظر : أسباب النزول ص٥٣٧.

ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك[1] .

وليس هذا فحسب ، بل إن الآيات القرآنية في شأن المتكبرين ليجد المتأمل فيها دلالة واضحة على أن العدد عدد الآباء والأبناء... كان من دواعي استكبار المستكبرين ، فإن الآيات الكريمة تؤكد أن المستكبرين في الغالب هم الملأ من كل أمة ، والملأ هم السادة أولوا الجاه والمال والسيادة ، وهي أمور تستلزم كثرة الأتباع والأنصار... التي يغتر بها أولئك الجاهلون ، فإذا هم بها يتفاخرون ويتكاثرون ، حتى يبغتهم الأجل وهم في غفلة معرضون .

ولقد هلك أولئك الغابرون وماطويت صفحة التكبر بهلاكهم ، بل يبقى إرثاً لمن بعدهم من الجاهلين ، مابقيت الحياة الدنيا متاع الغرور .

فهذا ذو جاه وسلطان يطغى ويتفاخر بكثرة أنصاره وجيوشه... ، وهذا ذو مال يتكاثر بخدمه وحشمه... ، وهذا صاحب علم يستطيل بكثرة تلاميذه وقاصديه... ، وهذا ذو عيال يتعالى بكثرة بنيه ، وهذا مغتر بحسبه ونسبه يتفاخر بآبائه وأجداده وقبيلته وعشيرته... ، وكل ذلك متاع الغرور .

وصدق الله الجليل -ومن أصدق من الله قيلا- فهو القائل سبحانه وتعالى : ﴿**اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠] .

فالتكاثر والتفاخر باق في أهل الحياة الدنيا مابقيت تغرهم بزخرفها الزائل ولهوها الباطل .

يتفاخرون فيما بينهم ويتكاثرون بالأموال والأولاد والأنساب والأحساب[2] والقوة والخلقة... ، يتفاخرون بهذا وهو زينة دنيوية خادعة ، ومتاع قليل زائل مشتغلين به عن طلب الحياة الطيبة في دار القرار .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥٨٢/٤ ، وفتح القدير ٤٨٩/٥ ، ولباب النقول في أسباب النزول ص٢٣٤.

(٢) انظر : فتح القدير ١٧٥/٤.

الداعي الثامن من دواعي التكبر : الملك والسلطان والمنصب .

جرت سنة الله عزوجل واقتضت حكمته البالغة أن لايجعل عباده طائفة واحدة متساوية في الرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم والأشكال والمحاسن والألوان[1]... ، بل قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، فجعل منهم الغني والفقير والمأمور والأمير والراعي والرعية والقائد والمقود والسيد والمسود... .

ولهذا التفاوت والاختلاف الذي جعله الله تعالى بين عباده حكم وأسرار ، أجلها وأعظمها ماذكره الله تعالى في كتابه بقوله الحق : ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنعام:١٦٥] . وبقوله سبحانه وتعالى : ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف:٣٢] .

فالابتلاء هو أجل حكمة ربانية وسر إلهي في خلق الله تعالى عباده على هذه الصورة من التفاوت ، وهو على نوعين :

الأول أشارت إليه الآية الأولى وقول الله تعالى فيها : ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ ، أي : ليختبركم في الذي آتاكم حتى يعلم وهو الخلاق العليم الشاكرين منكم والجاحدين والصابرين منكم والساخطين والمتكبرين منكم والمتواضعين .

والثاني أشارت إليه الآية الثانية وقول الله تعالى فيها : ﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً**﴾ ، أي : يبتلي بعضهم ببعض ، فيستخدم الغني الفقير ، والرئيس المرءوس ، والقوي الضعيف ، والحر العبد ، والعاقل من هو دونه في العقل ، والعالم الجاهل... ، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا ، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ، ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين ، فجعل الله سبحانه وتعالى البعض محتاجاً إلى البعض لتحصل المواساة بينهم في الحياة الدنيا ومتاعها ، ويحتاج هذا إلى

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٠٨ ، ٤/١٣٧ ، وفتح القدير ٤/٥٥٤.

هذا ، ويصنع هذا لهاذا، ويعطي هذا هذا[1] . ولوكانوا طائفة واحدة لحصل الخلل والفساد في حياتهم ومعاشهم ، فسبحان الحكيم العليم .

وعندما تغيب هذه الحكم والأسرار عن أصحاب المناصب عاليها وواطيها ، ولايدركونها فإنهم يشعرون بعزة الجاه والسلطان فيتعظمون ويستعلون .

ويدفعهم بعد ذلك إلى هذا التعظم ويزيد من طغيانهم أمور أربعة :

الأول : شعورهم بالاستغناء عن العالمين ، وإحساسهم بحاجة الناس إليهم ، أماكون الناس بحاجة إليهم فحق جلي ، لكن شعورهم بالاستغناء عنهم شعور كاذب تخدعهم به نفوسهم المستعلية ، فالحق أن الناس جميعاً غنيهم وفقيرهم ورئيسهم ومرءوسهم... ، ... ، لاتنقطع حاجة بعضهم لبعض ، فبعضهم لبعض خدمٌ ، شعروا بذلك أم لم يشعروا ، وأقروا به أم لم يقروا ، فهكذا خلقهم ربهم تبارك وتعالى : ﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً**﴾ ، فالكل في حاجة الكل ، والكل بحاجة إلى الكل ، فلا الملك في غُنية عن المملوك ، ولاالرئيس في غُنْيةٍ عن المرؤوس...

الثاني : جهلهم بحقيقة مايعتزون به من الملك والجاه والمنصب .

فإنهم يظنون أن ذلك تشريف شرفهم الله تعالى به عن محبة لهم ورضوان عنهم .

وهذا مفهوم سقيم قد عرض الحديث عنه في أكثر من موضع لدحضه ، وبيان أن محبة الله تعالى لاتنال بقيم الدنيا وزخرفها ، إنما يحب الله المتقين الذين عرفوه رباً محموداً وإلها فرداً معبوداً ، ففروا إليه مخلصين ، وأقبلوا عليه مخبتين ، فنالوا بذلك محبته وإكرامه أبد الآبدين .

ثم إن ماهم فيه من جاه وسلطان إنما هو تكليف ومسئولية وأمانة عظيمة حُمّلوها ، وبحملها تنوء الجبال الراسيات ، وستشتد مساؤلتهم عنها ومحاسبتهم عليها ، فإن ضيعوها - والتكبر أقرب طريق لذلك - فستكون وبالاً عليهم ، وسيأتي الحديث عن هذا عند ذكر علاج التكبر بهذا الداعي ، في مكانه من البحث بإذن الله تعالى .

---

(١) انظر : فتح القدير ٤/٥٥٤.

الثالث : تملق المتملقين ونفاق المداهنين ودجل الدجالين وتصفيق الناعقين .

فذو السلطان والجاه يكثر حوله هؤلاء وأولئك طمعاً فيما عنده من زينة الدنيا ومتاعها ، فتراهم يخطبون وده بالتطبيل وكيل المديح بحق وبغير حق ، وقليل هو الحق من ذلك ، فكثيراً مايصفونه بما ليس فيه ، بل كثيراً مايعتدون في وصفه على صفات لاتليق إلا بجلال الخالق سبحانه وتعالى حتى ليخال نفسه في مقام غير مقام البشرية التي جبلت على النقص والضعف والخطأ ، فكيف بعد ذلك لايدخله من التعظم مايدخله؟

إن للمدح تأثيرا في النفس لايخفى ، فالنفس يعجبها أن تمدح ويثنى عليها ، وهي ضعيفة وأمارة بالسوء ، فإذا حصل لها من ذلك مارامت خيف عليها العجب ، ومن بعده التكبر ، وبخاصة حين يضعف سلطان الإيمان عليها فلايقوى على الصمود في وجه رغباتها وأهوائها ، ومن هذا المنطلق ورد النهي عن المدح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي .

ويشتد تأثير المدح ويعظم خطره على النفس إذا كان بغير حق ، ويزداد خطره ويعظم أكثر فأكثر إذا كان كذلك واجتمع مع عزة الملك والسلطان ، فلاتسل حينها عن طغيان النفس وخيلائها .

وسيأتي بإذن الله في المبحث القادم ذكر المدح كسبب من أسباب الكبر الاجتماعية وذلك بشيء من التفصيل .

الرابع : ذل الأتباع وخضوعهم .

وأعني به ذل المرءوسين والأتباع للرؤساء والقادة أعظم من ذلهم وخضوعهم لربهم ذي الجلال والكبرياء ، حتى يملكونهم نواصيهم يجرونهم بها حيث شاءوا ، محجوراً على عقولهم أن تفكر وألسنتهم أن تنطق ، وآذانهم أن تسمع ، وأعينهم أن تبصر إلا بما ومايشتهي السادة ويوافق أهواءهم .

ولست أرمي ههنا إلى سلب الولاة والرعاة مايجب لهم من الطاعة التي أمر بها الله عزوجل وهي الطاعة بالمعروف في المعروف ، وإنما رمت الطاعة العمياء التي لاتفرق بين حق وباطل ، وحلال وحرام ، ومعروف ومنكر ، وصالح وفاسد ، فهذه طاعة ماأنزل الله بها من سلطان ، لابل هي عبادة وتأليه لغير الله بنص كتاب الله تعالى وبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد

قال الله تعالى : ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾ [التوبة:٣١] .

وماكانت عبادة أولئك لأحبارهم ورهبانهم إلاطاعتهم واتباعهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام ، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ** »(١) .

فلما كان التحليل والتحريم من خصوصيات الربوبية ، كانوا في طاعتهم لأولئكم الأحبار والرهبان بمنزلة المتخذين لهم أرباباً ؛ لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب(٢) .

فهذا الانقياد على هذه الصورة من الذلة والصغار دافع للطغاة أن يزدادوا طغياناً إلى طغيانهم ، وعلواً في الأرض وفساداً واستكباراً ، فما الذي يمنعهم من ذلك ، وقد طأطأ الناس لهم رقابهم فما وجدوا فيهم من يقف في وجه طغيانهم راضياً بعبوديته لله رب العالمين خالعاً ربقة العبودية لمن سواه كائناً من كان؟

ولو وجد الطغاة رجالاً يأبون أن يقادوا كما تقاد الشياه للمسلخ بغير وعي ولاهدى متنازلين عن كرامتهم التي منحهم إياها ربهم جل وعلا ، فإنهم لن يجدوا متنفساً لطغيانهم واستعلائهم .

ولنضرب مثلاً بحقير الطغاة فرعون عليه لعنة الله فقد ادعى الربوبية وزعم الأولوهية فما وجد في الناس وهم يعرفون زور قوله وبهتان ادعائه من يقول له : ماأنت إلا عبد مثلنا ، مربوب لرب العالمين وإلههم ، الخالق الرزاق المحيي المميت ، لاتملك من أمرك شيئاً فضلا عن أن تملك الكون كله ، ولو وجد ذلك لتحطمت كبرياؤه وهوى من عليائه ، ولكنه وجد قوماً لهم قلوب لايفقهون بها ، وأعين لايبصرون بها ، وآذان لايسمعون بها ، فاستخفهم فأطاعوه ، فعلا ظهورهم واستذلهم ، كما قال تعالى : ﴿**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي**

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة التوبة ٢٧٨/٥ ، وقال : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث » .

(٢) انظر : فتح القدير ٣٥٢/٢.

قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ .فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ . فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٤] .

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ ، أي : حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله وكيده وغروره فأطاعوه فيما أمرهم به ، وقبلوا قوله وكذبوا موسى ، وقيل : استجهلهم فأطاعوه بخفة أحلامهم وقلة عقولهم ، وقيل : وجدهم خفاف العقول فاستخف بهم وقهرهم حتى اتبعوه(١) .

وهذا أمر يستوي فيه الطغاة المتجبرون جميعاً ، فلو ذل لهم الناس على هذه الصورة لازدادوا تجبراً واستكباراً ، ولو وجدوهم لايرضون بالعبودية إلا لله رب العالمين لتحطمت على أسوار إيمانهم نفوسهم المستعلية .

وخلاصة ماذكر هي : أن الجاه والسلطان والمنصب كما تبين من دواعي الكبر الأساسية بل هو أعظم الكمالات الدنيوية مدعاة له(٢) لدى المستكبرين الذين عرض علينا القرآن الكريم قصصهم وأمثالهم من المبهوتين بزخرف الدنيا وزينتها في كل زمان ومكان .

ولهذا كانوا يخشون أن يسلب منهم فيلجأون إلى الاستكبار عن اتباع رسل الله تعالى ليبقى ملكهم وجاههم ، كما كان حال فرعون وقومه الذين قالوا لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَآءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨] ، وقد فسرت الكبرياء هنا بالملك والسلطان ، فهم يخشون أن تكون لموسى وهارون عليهما السلام وتنزع منهم(٣) .

---

(١) انظر : فتح القدير ٤/٥٦٠.

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٧/١٩٤.

(٣) انظر : تفسير الطبري ١١/١٤٧ ، والمحرر الوجيز ٧/١٩٤.

الداعي التاسع من دواعي الكبر : الجمال .

اقتضت حكمة الله عزوجل الحكيم العليم أن يخلق عباده متفاوتين في صفاتهم الخَلقية ، فهذا طويل وهذا قصير ، وهذا أبيض وهذا أسود ، وهذا مكتمل الأعضاء وآخر يعتريه نقص فيها ، وهذا في خلقته وضاءة ووسامة ، وآخر في خلقته عيب ودمامة...

هكذا شاء الله عزوجل أن يخلق عباده ، وهكذا أراد لهم وله الحكمة البالغة في ذلك أدركها البشر أو قصرت أفهامهم عن إدراكها .

والحكمة التي نستطيع إدراكها من خلق الله عزوجل عباده على هذا الوصف هي الابتلاء والاختبار ، فإنه عزوجل يمتحن عباده ويبلو إيمانهم به ، وشكرهم له على نعمه ، وتسليمهم لقضائه ، فالمؤمن حقا يدرك هذا الحكمة الإلهية ، فيشكر الله عزوجل إن أعطاه حظاً من الجمال ، ويُسلِّم له ويصبر على ابتلائه إن لم يعط أو أُعطي خلافه ، وكلا الأمرين له خير ، فهو إما فائز بأجر الشاكرين ، أو بأجر الصابرين .

ومن ضعُف إيمانه فغابت عنه هذه الحكمة الإلهية فإنه يطغى ويبطر عندما يقسم له من الجمال ويجزع ويسخط عندما يُقدَر عليه فيه ، أو يبتلى بضده ، وكلا الحالين شر وبلاء ، فبطره بالنعمة حرمه أجر الشاكرين ، وسخطه عند البلاء حرمه أجر الصابرين ، وذلك هو الخسران المبين .

كيف يتكبر الجميل بجماله؟

المتكبر بما قسم له من صفات الحسن والجمال من شأنه أن تظهر عليه سائر الصفات الذميمة التي يتصف بها المتكبرون عموماً ، بيد أن هناك صفات منها تبدو أكثر ظهوراً على سلوكه ، ولعل أبرزها مايلي :

١ - الاختيال في المشي :

فالمتكبر بجماله يمشي متبختراً مختالاً مزهواً بنفسه ناظراً في عطفيه متأملاً قوامه ومحاسنه ، متصوراً نفسه أجمل من في الكون ، ينظر إلى ذاته نظرة علو وإلى غيره نظرة دون ، وقد يكون هو الأدنى وهم الأعلون ، بل هو كذلك ، والدليل تكبره وخيلاؤه ، فمايتكبر إلا خسيس وضيع أما الكريم الرفيع فلايرضى لنفسه إلا التواضع خلق الملائكة المقربين ، وصفة الأنبياء والمرسلين ومن اقتدى بهم من عباد الله المخلصين ، وفقنا الله لأن نكون على نهجهم

سائرين ، ومعهم في أعلى عليين .

٢ – الفخر والتباهي بالنفس وصفات جمالها واستصغار الآخرين .

فمن شأن المتكبر بجماله أن يتفاخر ويتباهى بأوصافه التي يراها جميلة ، فهو مثلاً : يتفاخر ويتباهى باعتدال قامته ، واكتمال خلقته ، وبهاء طلعته ، وبياض بشرته ، ونعومة جلدته ، ووضاءة صورته ، وعذوبة صوته ، وحلاوة منطقه ، وحور عينيه ، واستقامة أنفه...ونحو ذلك ، مما يتراءا له جميلاً وحسناً من صفاته الخَلْقية ، وفي المقابل لايفتر عن استصغار غيره وتحقيره وغمزه ونبزه له ببعض صفاته التي خلقه الله تعالى عليها ، وابتلاه بها ، كالقصر والعور والصمم والعرج والبرص والقرع...الخ ، يفعل ذلك جاهلاً بخطره العظيم عليه ، إذ كيف يسخر من صفات هي خلق الله تعالى ابتلاءاً لبعض عباده وهو الحكيم الخبير ، وليست هي من ذات الإنسان وكسبه ، فالسخرية منها واستصغار البشر بسببها هي في الحقيقة سخرية من خالقها ومن قدَره وحُكمه وحكمته ، ومن أظلم ممن يفعل ذلك؟ وأي جناية جناها على نفسه بإساءته الأدب مع ربه جل جلاله؟

إن الهزء بعباد الله والتنقص منهم كبيرة من الكبائر التي يعظم خطرها وشرها .

هذه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية أنها كذا وكذا ، تعني أنها قصيرة ، فيقول لها الرسول صلى الله عليه وسلم مربياً ومبيناً عظم ماقالت : « **لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ** »[1] ، أي : لأنتنته وغيرت ريحه[2] .

فإذا كانت أم المؤمنين رضي الله عنها جعلتها غيرة النساء تقول ذلك ، ومايُظَن بأم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق إلا خيراً ، فما يظن بها أن تقول ذلك تكبرا واختيالاً ، إذا كان هذا ظننا بأم المؤمنين ومع ذلك يوجهها الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التوجيه الشديد ، فيبين لها صلى الله عليه

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة ، عن عائشة رضي الله عنها ٢٦٩/٤.

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١٣/٢.

وسلم أنها قالت كلمة من الشر عظيمة من عظمتها أنها لومزجت بماء البحر لكانت سبباً في فساده وتكدره ونتنه وتغيره ، فكيف إذا بمن يقول ماهو أعظم من ذلك وأدهى ، ويقوله على سبيل التكبر والخيلاء على الآخرين والسخرية بهم والاستهزاء؟

٣ - الإسراف في الملبس :

المتكبر بجماله من شأنه أن لايلبس من الثياب ومختلف الملابس إلا ماكان جديداً دائماً ، أما مابلي فمن العار أن يعلو جسده ، وكذلك من شأنه أن لايلبس إلا ماغلا ثمنه ليباهي به ، وإلا ماكان مبرزاً للمحاسن والمفاتن ملفتاً للأنظار ليتباهى به .

ولايهم المتكبر أن يلبس مافيه مخالفة صريحة لشرع الله عزوجل كأن يكون طويلاً يجاوز الكعبين ، أو يلبس حريراً ، أو يلبس مايصلح للنساء فيكون متشبهاً بهن ، فكل ذلك ممانهى الشرع عنه وتوعد عليه ، ولكن المتكبر لايبالي بذلك إرضاء لشهوة نفسه المتعالية .

٤ - الاهتمام الزائد بشعر الرأس :

من شأن المتكبر بجماله المبالغة في العناية بشعر رأسه فوق ماهو مطلوب ومحمود ، حيث يبالغ في دهنه وتمشيطه وإطالته ويصرف في ذلك الأوقات الطويلة والأموال الطائلة ، ولربما قصه بطرق فيها تشبه بمن لاخلاق لهم في الآخرة من أعداء الله تعالى ، ثم هو يختال به ويزهو ، وهو أمر قد استفحل وفشى وانتشر في أيامنا هذه بين الرجال والنساء ، فكم هم أولئك الذين تشبهوا بأعداء الله تعالى في الشرق والغرب وقلدوهم في أمور كثيرة ، ومنها قص شعورهم بطرق وعلى أشكال تخالف أوامر الشرع الحنيف ، بل وتنفر وتتقزز وتتأفف منها النفوس السليمة والفطر المستقيمة والأذواق الصحيحة؟ وكم هن اللاتي حاكين الكافرات الفاجرات ، فقصصن أشعارهن وصففنها كقصهن وتصفيفهن؟ ومنهن من تقصه كالرجال حتى لتشبه الرجل ، فلايكاد يميز بينهما .

يفعلون ويفعلن ذلك بحجة التجمل ، والحقيقة أن البصير ليرى فيه تشويها للجمال وتقبيحاً للحسن ، ولكن القوم فسدت أذواقهم واعتلّت مفاهيمهم ، وسفلت هممهم فغدوا لشرع الله مخالفين ، ولخلقه مشوهين ،

وبأعدائه متشبهين ، صم بكم عمي ، لايعقلون الحق المبين ، ولايميزون بين الدر والطين .

كل ذلك حصل ويحصل بسبب انقطاع أو ضعف الصلة بين العباد وبين ربهم تبارك وتعالى يوم أن هجروا كتابه الكريم ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتركوا التربي عليهما ، وركنوا إلى غيرهما ، فتفرقت بهم السبل ، وتشاعبت الأهواء فضلوا عن سواء السبيل ، وبالعودة إليهما والنهل من سلسبيلهما سيكون صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، فعسى الله تعالى بمنه وكرمه أن يقيض لأمتنا علماء صالحين مصلحين مربين ، ويأخذ بأيديهم ويوفقهم للعودة بأبنائها إلى النبع الأصيل ليهدونهم بإذنه إلى صراطه المستقيم .

نعود إلى أساس حديثنا فنقول : قال الله تعالى : ﴿**وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾ [الإسراء:٣٧] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** » .

فمن هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث التي سبق ذكرها والتي ورد فيها النهي عن الاختيال وجر الثياب وإطالتها وكذلك العمامة على سبيل المخيلة نستشف مانستدل به على ماذكرته آنفاً من صفات التكبر بالجمال ، فالآيتان الكريمتان تنهيان عن المشي في الأرض على سبيل الخيلاء ، وكذلك الحديث الشريف ، ولايفعل ذلك إلا مزهوٌ بنفسه معجب بمالها من الصفات الحسنة ، والحديث الشريف قد أفصح عن ذلك فبين أن سبب ماحل بذلك الرجل من عقاب هو مشيه مختالاً معجباً بنفسه مزهوا بحلته التي لبسها وبجمته التي رجّلها ومشطها ، فكان جزاء تعاليه واختياله أن خُسف به ، فهوى في الأرض يتسافل فيها كما كان يتعالى على ظهرها إلى يوم القيامة

٥ – الأنفة من أهل البلاء :

من شأن المتكبر بجماله أن يأنف من مخالطة ومعاشرة المصابين بالآفات والبلايا المختلفة ، ناظراً إليهم لا بعين الرحمة والرفق والشفقة ، ولكن

بعين الاستخفاف والاستصغار ظناً منه أنه خير منهم ، وذلك الظن أرداه فهو من الخاسرين ، فالخيرية بالدين وفي دينه دخن ، إذ لوصفا دينه لما تكبر وتعظم ، واختال على غيره واستطال ، ولكان من الخاشعين المخبتين الهينين اللينين ، الذين لربهم خاضعون مستكينون ، ولإخوانهم متذللون متواضعون ، وأولئك حقاً هم أهل الكرامة وأهلٌ للإكرام ، وأولئك هم حقاً أهل الدرجات العلى ، وأهل الرفعة في الآخرة والأولى ، قال تعالى : ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص:٨٣] .

٦ - إخفاء المحاسن وإبراز المعايب :

فمن شأن المتكبر بجماله أن يشتغل بإبراز معايب الآخرين ، ويعمل جاهداً على إخفاء محاسنهم خاصة من كان مثيله أو أمثل منه في الجمال والحسن ، وهو يفعل ذلك لئلا يقال عن أحد إنه أجمل منه ، يريد بذلك دوام تعظمه واختياله بجماله .

وخلاصة القول : أن المتكبر بجماله يتصف بمايتصف به المتكبرون في أي صورة من صور التكبر ، وليست هذه الصفات المذكورة هاهنا هي كل صفاته ، بل هي كما بدا لي أقرب إليه من غيرها ، والله تعالى أعلم ، فعد إلى مبحث صفات المتكبرين ، فلعلي أكون قد ذكرت هناك من صفات المتكبرين مافيه الغنية عن إعادته هنا ، وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المبحث الثاني : أسباب الكبر.

بعد معرفة دواعي الكبر ، وهي الأمور التي يكون بها التكبر ، نأتي الآن لنتعرف على الأسباب التي جعلت المتكبر يتكبر بتلك الدواعي ، وهي إضافة إلى الأسباب الخاصة التي ذكرتها عند الحديث عن دواعي الكبر كلاً على حدة - تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - أسباب نفسية .

٢ - أسباب اجتماعية .

٣ - أسباب سلوكية .

أولاً : الأسباب النفسية[1] :

مجموعة من الرغبات الجامحة تكمن داخل النفس البشرية ، هذه الرغبات النفسية إذا أطلق لها العنان فلم تهذب ، وتركت دون رقيب من إيمان يحكم قيادها ، انحرفت بالنفس عن الطريق السوي ، وألقتها في مهاوي الردى ، ذلك أنها تحجب البصيرة ، بل وتطمسها ، فلاتعد تبصر الحقيقة مهما بدت واضحة جلية ، وذلك لمخالفتها هواها ، وتعارضها مع رغباتها وشهواتها .

ومن تلك الرغبات الكامنة في النفس البشرية ثلاث رغبات تؤدي بها إلى الاستعلاء المقيت والاستكبار الذميم ، وهي :

أولاً : الرغبة بعدم الخضوع لأحد[2] :

تود النفس البشرية أن تظل حرة طليقة مستقلة بذاتها ، غير خاضعة لغيرها ، وقد تتوقف هذه الرغبة عند أدنى مداها -أي إرادة عدم الخضوع للمخلوق- وقد تمتد -عند البعض- حتى تبلغ أقصى مداها ، وذلك حينما يتمرد العبد المخلوق الضعيف العاجز الفقير على أوامر الملك الديان الخالق العظيم ، القوي المتين ، الغني العزيز الحميد ، ويستنكف عن عبادته ، ومن ثم جاء الوعيد الشديد من الحق سبحانه وتعالى للمستكبرين المستنكفين عن عبادته بأن لهم عنده العذاب الأليم ، لايجدون لهم من دونه وليا ولانصيراً ، وبالمقابل جاء وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين به الخاضعين العابدين له بأن يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، قال تعالى : ﴿**لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً**

---

(١) ذكر هذه الأسباب النفسية الثلاثة التي نوردها الدكتور عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه "الأخلاق الإسلامية وأسسها" ١/٦٦٠،٦٦٢ - ط الأولى ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م ، دار القلم ، دمشق ، بيروت.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠.

أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً . يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [النساء:١٧٢،١٧٥] .

لقد كانت الرغبة بعدم الخضوع لأحد من أكبر الدوافع لدى المكذبين لرسل الله الجاحدين لآياته ، التي تدفعهم للتكذيب والاستكبار .

يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول مبينا مافي نفوسهم من استعظام شأنهم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [الفرقان:٢١] ، جاء في الظلال : «لقد عظم شأنهم في نظر أنفسهم ، فاستكبروا وطغوا طغياناً كبيراً...لقد عادوا مايحسون إلا أنفسهم وقد كبرت في أعينهم وتضخمت وعظمت حتى ليحسبونهم شيئاً عظيماً في هذا الكون ، يستحق أن يظهر لهم الله جل جلاله ليؤمنوا ويصدقوا...»[1] .

ونرى هذه الرغبة صريحة يعلنها فرعون وملؤه المستكبرون عن الإيمان بموسى وهارون كما ذكر القرآن الكريم عنهم : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ . فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون:٤٥،٤٧] ، إنهم هم الآمرون الناهون المتبوعون وقوم موسى لهم مسخرون خاضعون ، فكيف ينقلب الحال ويصبحوا تابعين خاضعين ، إن ذلك لايكون حتى ولو كان الثمن التكذيب والاستكبار ، وكانت النتيجة الخزي والهلاك : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٨] .

ومن قبل قال الملأ المستكبرون من قوم نوح : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٤] .

إنها نظرة قاصرة من القوم ، وذلك حسب قصور أنفسهم عن إدراك حقيقة الرسالة التي جاء بها نوح عليه السلام ، فلقد خافوا أن يتفضل عليهم نوح وتعلو منزلته على منزلتهم ، فيكون هو الآمر الناهي وهم له خاضعون ،

---

(١) في ظلال القرآن ٥/٢٥٥٨.

وهذا مالايريدون ، لذا ظلوا في طغيانهم يعمهون .

وخلفهم بعد هلكتهم قومُ مدين ، فقالوا لنبي الله شعيب عليه السلام : ﴿ يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾[هود:٨٧] ، يريدون : أنهم أحرار في عقيدتهم ، أحرار في أموالهم ، ولن يخضعوا لأحد يأمرهم بترك معتقد آبائهم ، وينهاهم عن التصرف في أموالهم حسب مايشاؤون .

وينشأ عن هذه الرغبة شعور نفسي بالاستغناء الذاتي(١) ، فمن يرغب في عدم الخضوع لأحد يداخله شعور مغرور كاذب بأنه مستغن بذاته لايحتاج لأحد حتى ولوكان الله رب العالمين سبحانه وتعالى .

ويتعاظم هذا الشعور المغرور حتى يستولى على جوانب النفس ، فإذا استولى عليها وملك قيادها تولد عنه في سلوك المتكبر الطغيان(٢) : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق:٦،٧] ، فهذا فرعون علا واستكبر وطغى طغياناً كبيراً ، حتى قال قولته الآثمة : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات:٢٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص:٣٨] ، وظن نفسه شيئاً فنادى في قومه متبجحاً : ﴿ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:٥١،٥٢] ، وحين كفر السحرة به وسجدوا لله رب العالمين قال لهم : ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى ﴾[طه:٧١] .

وكما ظن فرعون أنه مستغن بجاهه وسلطانه فبغى وطغى ، ظن قارون أنه مستغن بماله وعلمه فبغى ، وأكد استغناءه بذاته بقوله لمن نصحه من قومه وأرشده إلى الخير وذكره بحق الله تعالى في ماله : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾[القصص:٧٨] ، أي : لم أكن محتاجاً لأحد في وصول هذا المال إليّ ، بل أنا الذي جمعته وحصلته بجهدي وقوتي ، وذكائي وخبرتي ، وعلمي ودرايتي ، هذا ماقاله قارون موسى وما أكثر القوارين في زماننا هذا الذين

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠.

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠.

يقولون قوله!! فليحذروا من مصيره الذي آل إليه بسبب بغيه وطغيانه؛ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص:٨١] .

ذلك الشعور المغرور ، شعور المتكبر بالاستغناء بذاته ، هو الذي يجعل كل من تكبر بماله أو انتفش بسلطانه أو تعالى بعلمه أو تطاول بحسبه ونسبه ، هو الذي يجعل هؤلاء يجحدون الحق ولايقبلونه ، استعلاء بالباطل وتعظماً بغير حق ، فبئس مايصنعون ، قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل:١٤] ، « أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ، (ظلما وعلوا) أي : ظلما من أنفسهم سجية ملعونة ، (وعلوا) ، أي : استكباراً عن اتباع الحق »[١] .

ثانياً : الرغبة بالتفوق والامتياز على الآخرين ، والتقدم عليهم :

الرغبة بالتفوق والامتياز على الآخرين ، والتقدم عليهم ، وإرادة العلو في الأرض ولو بغير حق ، وينشأ عن هذه الرغبة شعور مغرور بالاستعلاء الذاتي[٢] .

ينبغي أن يعلم أن إرادة التفوق والامتياز ، والرغبة في نيل المراتب المتقدمة والتطلع لعلو المنزلة مما فطر عليه الإنسان ، وهو في حد ذاته أمر لاشيء فيه ، بل إن المرء يحمد عليه إن طلبه من وجهه الصحيح ، وكان أهلاً ومستحقا له ، فمثلا : الطالب المجد الذي أسهر ليله وأتعب نفسه وحفظ وقته وجد وثابر ، ولم يقصر في التحصيل ، هذا الطالب من حقه أن يتطلع للامتياز ، ويرغب في التفوق ، ذلك أنه سلك الطريق الصحيح لنيل التقدم والامتياز ، لكن بقي عليه بعد ذلك أن يحافظ على تفوقه وامتيازه بالتواضع وعدم التكبر ، فالعز والعلو الحقيقي يكون في التواضع لله تعالى الوهاب المتفضل ، ولين الجانب لخلقه ، وعدم التكبر عليهم .

أما الطالب الكسول الذي أضاع وقته وقصر في الجد ، ونام عن التحصيل ، فليس من حقه ، بل ومن الظلم أن يطلب التفوق ونيل المراتب

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٣٧٠.

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦٠.

الأولى ، ذلك أنه طلبٌ للعلو بغير حق ، ومن يطلب العلو بغير حق فهو المتكبر المغرور .

ولو كشفنا الغطاء عن نفوس المتكبرين وأزحنا الستار عنها لتبين لنا أن مما يدفعهم إلى الاستكبار والاستعلاء رغبتهم في العلو في الأرض بغيرالحق ، وإليك الأمثلة :

١ - نبدأ بالملأ أشراف قريش والعرب الذين طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله من ضعفاء المؤمنين وسخروا منهم ، وأرادوا أن يميزهم عليهم ويخصهم بمجلس خاص بهم أنفة واستكباراً أن يجلسوا إلى أولئكم الضعفاء فيتساووا معهم ، وهذه هي قاصمة الظهور -بالنسبة لهم- إذ كيف يليق بهم أن يهبطوا من علوهم المزعوم إلى منزلة أولئكم الضعفاء؟!

روى الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص[١] قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : أطرد هؤلاء لايجترؤن علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال[٢] ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عزوجل : ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَه...**﴾[الأنعام:٥٢] .

---

(١) سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري ، أبوإسحاق ، أحد العشرة ، وآخرهم موتاً . روى كثيراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وروى عنه جمع من الصحابة وكبار التابعين ، أحد الفرسان وأول من رمى بسهم في سبيل الله ، وهو أحد الستة أهل الشورى ، رأس من فتح العراق ، ولي الكوفة لعمر ، وهو الذي بناها ، كان مجاب الدعوة ، مات سنة إحدى وخمسين.
انظر : الإصابة في تميز الصحابة ٨٣/٣ .

(٢) بلال بن رباح ، يكنى أباعبدالكريم ، وقيل : أباعبدالله ، وقيل : أباعمرو . وأمه حمامة ، مولى أبي بكر الصديق ، وكان مؤذناً للرسول صلى الله عليه وسلم وخازناً ، شهد بدراً والمشاهد كلها . وكان من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذب في الله عزوجل فصبر . آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح ، وكان أول من أذن في الإسلام . مات سنة عشرين ، وهو ابن بضع وستين سنة.
انظر : أسد الغابة ٢٠٦/١ــ٢٠٩ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : مر الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب[1] وبلال وعمار[2] وخباب[3] وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يامحمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟! أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟! أنصير تبعاً لهؤلاء؟! اطردهم ، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فنزلت هذه الآية[4] : ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُوْنَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُواْ أَهَؤُلآءِ مَنّ اللّهُ عَلَيْهِم مّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ**﴾[الأنعام:٥٢،٥٣] .

ورُوي عن خباب في قول الله عزوجل : ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ...**﴾[الأنعام:٥٢] ، قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقّروهم في نفر في أصحابه ، فأتوه

---

(١) هو : صهيب ابن سنان بن مالك النمري ، أبويحيى ، الرومي ، من السابقين إلى الإسلام ، وممن عذب في الله ، هاجر إلى المدينة مع علي بن أبي طالب في آخر من هاجر تلك السنة . شهد بدراً والمشاهد بعدها . مات سنة ثمان وثلاثين وهو ابن سبعين سنة.
انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ٢٥٤/٣ .

(٢) هو : عمار بن ياسر بن عامر بن كنانة العبسي ، أبواليقظان ، حليف بن مخزوم ، من السابقين وممن عذب في الله هو وأبوه وأمه سمية رضي الله عنهم ، هاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها ، ثم شهد اليمامة وبها قطعت أذنه . استعمله عمر على الكوفة .قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين وله ثلاث وتسعون سنة .
انظر : الإصابة ٢٧٣/٤ .

(٣) هو : خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي ، مولى بني زهرة ، أبوعبدالله ، من السابقين الأولين ومن المستضعفين ، أول من أظهر إسلامه ، وعذب لأجل ذلك عذاباً شديداً ، شهد المشاهد كلها ، نزل الكوفة وبها مات سنة سبع وثلاثين . وعاش ثلاثاً وستين سنة.
انظر : الإصابة ٤١٦/١ ، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢١/١ .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠٠/٧.

فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعْبُد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ، قال فدعا بالصحيفة ، ودعا عليّا ليكتب ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل ، فقال: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ... ﴾[الأنعام:٥٢] ، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة من يده ، ثم دعانا فأتيناه[1] .

ورُوي عن سعد قال : نزلته هذه الآية في ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ابن مسعود ، وقال : كنا نستبق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وندنو منه ، ونسمع منه ، فقالت قريش تدني هؤلاء دوننا؟! فنزلت[2] : ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ... ﴾[الأنعام:٥٢] .

وباء القوم بالخسران ، وعادوا يقولون باستعلاء وغرور ذميم عن المؤمنين : ﴿لَوْ كَانَ خَيراً مَاسَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[الأحقاف:١١] ، إنهم يقولون -وهم كاذبون- لوكان هذا الدين الذي جاء به محمد خيراً لكنا نحن السابقين إليه ، نحن ذووا المكانة وأصحاب الجاه والمقام ، فكيف يمن الله على هؤلاء الفقراء الضعفاء من بيننا ويتركنا؟! وكيف يهديهم إلى الخير قبل أن يهدينا؟

هذا هو ميزانهم الباطل الذي يزنون به القيم ، أما ميزان الحق سبحانه وتعالى فلا مكان فيه لهذه القيم الأرضية الصغيرة التي يتعاظم بها الناس في جاهلياتهم[3] ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فلا الغنى ولاالجاه ولاالمكانة الاجتماعية هي التي ترفع قدر الإنسان وتعلي شأنه ، إنه الإيمان وحده ، به يكون التفاضل وعلى أساسه يكون التمايز ، ولهذا فقد كرم سبحانه وتعالى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١٢٩٧/٤ ، حديث رقم ٧٣٣١ ، وأخرجه ابن جرير في تفسيره ٢٠١/٧.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه ، وقال ؛ حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . انظر : المستدرك ٣١٩/٣.

(٣) في ظلال القرآن ١١٠١/٣.

أولئك الضعفاء وأعلى قدرهم، لإيمانهم وطاعتهم، فنهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطردهم استجابة لطلب الكبراء وتحقيقا لرغباتهم، كما أمره أن يصبر ويجلس معهم، لايتركهم ليجلس إلى أولئك الغافلين عن ذكره المتبعين أهواءهم، فقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾ [الكهف:٢٨].

وكرم الله تبارك وتعالى أولئك الضعفاء المؤمنين غاية التكريم، حينما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبتدئهم بالسلام ويبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم(١)، : ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الأنعام:٥٤].

٢ - ولم يكن هذا الأمر من مستكبري قريش بدعا، بل لقد حذوا في ذلك حَذْو المستكبرين من الأمم السابقة لهم، فها نحن نقرأ ماسطره القرآن الكريم عن الملأ المستكبرين من قوم نوح الذين سخروا من المؤمنين به ووصفوهم بالأراذل، أي: ناقصي المكانة، كما وصفوهم بالسفه في الرأي وخفة العقل، وطلبوا من نوح عليه السلام أن يطردهم وقالوا: ﴿**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾ [هود:٢٧].

هذه الصورة من الكبر هي صورة الكبر الطبقي، إذ يرى ذووا الرياسة والجاه والمال والحسب أن لهم الفضل على غيرهم، وأنهم أعلى منزلة وأرفع مقاماً، فيترفعون عن مجالسة الضعفاء، ويغمزونهم ويلمزونهم، ويسخرون منهم، ولايقبلون الحق إن صدر عنهم، وهي صورة قائمة تتكرر صباح مساء، نراها ماثلة أما أعيننا في ذلك الذي يفتخر بجنسه ويراه أعلى الأجناس، فتراه وتسمع فخره به، ونبزه لأصحاب الأجناس الأخرى بأجناسهم، يقول لهذا: ياهندي ولذاك يامصري ولآخر يايمني، وهكذا ينبز كلا بجنسه انتقاصاً لهم واستعلاءً بجنسه عليهم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/١٤٠.

وتمثل أمامنا هذه الصورة القائمة للكبر في من يفتخر بلونه وينتقص غيره لسواد بشرته أو لبياضها ، ويتطاول عليه وينبزه بلونه الذي خلقه الله عليه .

وإنها لموروث الجاهلية الضالة التي جاء الإسلام ليطهر النفوس منها ، ويخرجها من ظلماتها الكالحة إلى نوره الساطع ، ولذلك يوم أخطأ الصحابي الجليل أبوذر الغفاري[1] -رضي الله عنه وأرضاه- على بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه ، وقال له : يا ابن السوداء ، أدبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « طف الكيل ، أتعيره بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » ، قال أبوذر : على ساعتي هذه من كبر السن؟ قال : « نعم ، هم إخوانكم »[2] ، يذكره صلى الله عليه وسلم بحقوق الإخوة والتي منها ، « إلغاء فوارق اللون والعرق واللغة والطبقة الاجتماعية »[3] مبيناً له صلى الله عليه وسلم أن التفاخر باللون وبسواه هو من خصال أهل الجاهلية ، وقد وبخ رسول الله صلى الله عليه وسلم أباذر بهذا مع عظيم منزلته من الإيمان ، وإنما وبخه بذلك تحذيراً له عن معاودة مثله ؛ لأنه وإن كان معذوراً بوجه من وجوه العذر ، لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه[4] .

ولأن خير الخطائين التوابون فقد ندم أبوذر رضي الله وتاب وبلغ من توبته أن طلب من بلال رضي الله عنه أن يطأ على وجهه استرضاءً له مماعيره به من سواد أمه[5] ، وحتى يكسر شوكة نفسه فتسمو عن صفات الجاهلين .

---

(١) اختلف في اسمه والمشهور أنه : جندب بن جنادة ، قيل : كان إسلامه بعد أربعة ، وانصرف إلى بلاد قومه ، فأقام بها حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ومضت بدراً وأُحداً ولم تتهيأ له الهجرة إلا بعد ذلك ، وكانت وفاته بالرَّبذة سنة إحدى وثلاثين ، وقيل في التي بعدها وعليه الأكثر. انظر : الإصابة ٦٢/١ .

(٢) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية ٧٨/١ ، وأخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب إطعام المملوك مما يأكل ١٢٨٢/٣ ، ١٢٨٣.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٦٩٠/١.

(٤) انظر : فتح الباري ١١٦/١.

(٥) انظر : المصدر السابق ٦٩٠/١.

ثالثاً : الرغبة بإخفاء مايشعر به المتكبر من نقص في ذاته[1] أو في عمله :

إحساس المتكبر وشعوره بالنقص في ذاته أو في عمله يجعله يسلك طريق التكبر والتعالي رغبة منه في إخفاء هذا الإحساس ودفن هذا الشعور ، وذلك حتى لايكتشف الناس نقصه فيصغر في أعينهم وهو حريص أن يكون في أعينهم كبيراً ، ولكنه سلوك غبي منه به يفضح نفسه لايسترها ، ويكشف نقصه وعيبه لايخفيه ، وبه ينحط قدره لايعلو ، إذ بتكبره وانتفاخه يوجه إليه الأنظار وترمقه الأعين ، فيتبين لها مايحاول أن يخفيه بتعاليه واستكباره من نقص وعيب ، وعندئذ يحتقر ويستصغر ويفقد حب الناس وتقديرهم بعد أن حرم من محبة الله عزوجل والتي لاينالها المتكبرون ، قال تعالى : ﴿ **لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** ﴾ [النحل:٢٣] .

وكان الأجدر به إذا أراد أن يستر نقصه وينال محبة الله تعالى وحب خلقه وتقديرهم أن يتواضع ويستكين ويلين جانبه ، فالتواضع ولين الجانب طريق للعزة والسمو ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إن العبد إذا تعظم وعدى طوره ، وهصه الله إلى الأرض ، وقال : إخسأ خسأك الله ، فهو في نفسه كبير ، وفي أنفس الناس صغير ، حتى لهو أصغر عند الناس من خنزير »[2] ، وفي الحديث : « **مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ** »[3] ، وفي الحديث الآخر : « **مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ**

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٦١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩/٩٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البراءة من الكبر ، وقال البوصيري : انفرد به عن الكتب التسعة ، وفي إسناده دراج بن سمعان أبوالسمح البصري ، وفيه خلاف ، وثقه ابن معين وأبوداود وغيره ، وقال ابن عدي في الكامل : « أحاديث
<=

فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّـهَ وَهُـوَ عَلَيْـهِ غَضْبَـانُ»[1] .

=

دراج ممايتابع عليه» ، وضعفه أبوحاتم والنسائي والدارقطني .

انظر : سنن ابن ماجه وبهامشه كفاية الحاجة ٢/٥٥٧ ، وأخرجه أحمد في مسنده ٣/٧٦ .

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢/١١٨ ، قال أحمد شاكر : «إسناده صحيح ، وهو في الأدب المفرد ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد١/٩٨ ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٣/٥٦٩ ، وقال : رواه الطبراني في الكبير ورواته محتج بهم في الصحيح والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح على شرط مسلم» .

انظر : مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر ٨/١٩٢ .

ثانياً : الأسباب الاجتماعية

يعد الكبر من الأخلاق التي لها نوازع فطرية في نفس الإنسان ، مثل حب التسلط والتملك والعلو وإرادة التميز وغيرها ، فالإنسان بطبعه يحب ذلك لكنه إما أن يتربى ويتهذب فيطلب مايستحقه ويهذب هذه النوازع النفسية فلاتميل به إلى التكبر والخيلاء ، وإما أن تبقى هذه النوازع بلا توجيه وتعديل وتقويم وتهذيب فتجنح به إلى بطر الحق وغمط الخلق في سبيل تحقيقها ، وذلك هو التكبر .

والمجتمع بشقيه الصغير المتمثل في الأسرة الواحدة ، والكبير الذي يتعدى نطاقها له دوره البارز في إثارة هذه النوازع النفسية أو توجيهها وتقويمها ، إذ كل إنسان يكتسب من مجتمعه الذي ينشأ فيه معارف ومهارات وعادات وأخلاقاً كثيرة منها ماهو حق وصالح ، ومنها ماهو باطل وفاسد[1] .

ومن هنا فالكبر من الأخلاق الفاسدة التي للمجتمع بشقيه دوره المهم في تنميته وإظهار ماكمن منه في نفس الفرد الذي يعيش فيه .

ونبدأ بالمجتمع الصغير فنقول :

إن أهم عضوين في الأسرة هما الأب والأم ، وغير خاف ما للآباء والأمهات من تأثير بالغ على أبنائهم سلباً وإيجاباً ، فهما نقطة البداية والانطلاقة في العملية التربوية ، وأكبر مؤثر فيها ، وعليهما مدارها ، إذ يفتح المولود عينيه فيرى أول مايرى والديه ، ويسمع أول مايسمع كلامهما ، ويتلقى أول مايتلقى منهما ، ثم بين أيديهما يشب ويترعرع وعلى عينهما يصنع .

وهكذا فالوالدان هما واضعا اللبنة الأولى والأهم في تكوين شخصية ولدهما وتحديد معالم سلوكه ، حيث يتلقفانه صفحة بيضاء ، فيكتبان وينقشان في قلبه الغض وفؤاده الطري مايريدان ويريان من المعتقدات والأخلاق والسلوكيات ، فيشب ويكبر على ذلك الأساس متشبعا بماربي عليه من تلك المعتقدات والسلوكيات .

هذا مابينه المعلم والمربي الأمثل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية ٧٥٦/١.

بقوله : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُوهُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : واقرءوا إن شئتم : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[الروم:٣٠] »[١] ، ومعنى الحديث : أن كل مولود من بني آدم يولد على الفطرة السليمة المستقيمة ، وهي دين الإسلام ، فإن ترك وماولد عليه ، لم يعدل عنه إلى غيره ، ويوم أن ينحرف عنه إلى غيره فإن ذلك الانحراف ليس من ذات المولود ومقتضى طبعه ، بل حصل له بسبب خارجي لو سلم منه لاستمر على الحق[٢] .

والسبب الخارجي الأعظم الذي يعترض طريق هذا المولود فينحرف به عن فطرته هو مابينه الرسول الله صلى الله عليه وسلم هنا بقوله : « فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » ، فالوالدان إذا هما السبب في انحراف المولود عن الإسلام إلى الكفر ، إما بتعليمهما إياه أو بترغيبهما فيه[٣] .

ولزيادة بيان وتوضيح هذا الأمر فقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم له مثلاً ، وذلك حين شبه المولود يولد على الفطرة بالبهيمة تولد سليمة لم يذهب من بدنها شيء حتى يكون أهلها يفعلون ذلك ، فلاتكن مثلاً جدعاء ، أي : مقطوعة الأذن حتى يفعل بها ذلك أهلها .

وكذا المولود يولد على الفطرة المستقيمة لكنه لايبقى عليها إلا إذا كان أبواه مستقيمين عليها ، لأنهما سيرضعانه إياها ويربيانه عليها ، أما إن كان أبواه منحرفين عنها ، فسينشأ على دينهما ، ويشب على معتقدهما ، لأنهما سيربيانه عليه وسيعلمانه إياه .

إذاً فالحديث الشريف يبين عظم الأثر الذي يتركه الوالدان على ولدهما حتى إنهما لينحرفان به عن فطرته السليمة المستقيمة التي فطره الله تعالى وفطر

---

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ ٥٧٦/٢ .

وأخرجه مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطر٤/٢٠٤٧، ٢٠٤٨ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه .

(٢) انظر : فتح الباري ٣١٧/٣.

(٣) انظر : فتح الباري ٣٢٠/٣.

الناس جميعا عليها ، كما قال تعالى في معرض الأمر لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٣٠] .

فإذا كان للأبوين هذا التأثير على الابن في باب الدين والعقيدة ، فكذلك يكون تأثيرهما عليه في باب السلوك والأخلاق ، فالأب والأم ذا الخلق الفاضل والسلوك السوي ستكون ثمرتهما للأمة عضواً فاضلاً مستقيماً نافعاً غير ضار ، والأب والأم ذا الخلق الفاسد والسلوك المنحرف لن يخرجا للأمة إلامسخاً منهما ، حنظلة مرة لانفع فيها .

وكذلك الأبوان المهملان في تربية أبنائهم على الخلق القويم -وإن كانا غير منحرفين- سيكون إهمالهما هذا سبب في انحراف أبنائهم عن جادة الحق وسبيل الرشاد .

ومن ثم فإننا نرى بعض الصور التي تبعث في النفس الأسى والحزن من خلال صور أبناء بعض أهل الالتزام المعروفين بالدين والاستقامة ، حيث نرى أبناءهم في سبيل غير السبيل الذي سلكوه ، و ذلك سببه التقصير والإهمال في متابعة هؤلاء الأبناء تربوياً وترك الحبل لهم على الغارب ظنا من أولئك الآباء أن الابن قد لايتأثر أو لاتضره عوامل ومشاهد الانحراف التي يراها في مجتمعه ، ونتيجة هذا التقصير في هذا الجانب وانشغال الآباء بأنفسهم أو بأمور أخرى عن متابعة أبنائهم تربوياً ، نشاهد هذا الخلل في صور كثير من هؤلاء الأبناء ، وذلك على مدى رقعة العالم الإسلامي ، مما نتج عنه عدم استطاعة الأمة النهوض من كبوتها والقيام من عثرتها حتى الآن .

وما نريد أن نستفيده مماسبق ونخلص ونصل إليه هو أن التكبر من أعظم وأقبح السلوك المنحرف الذي يكون للأبوين دورهما في بروزه ونمائه لدى ولدهما ، وذلك بطريقين هما : الوراثة ، والتقليد ، وسوء التربية ، وسنعرض لها بشيء من التفصيل .

السبب الاجتماعي الأول : الوراثة والتقليد :

بعد أن عرفنا من خلال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الآنف الذكر، ماللوالدين من أثر بالغ على ولدهما عقيدة وسلوكاً، نصل إلى القول بأن الإنسان -إلا ماشذ- هو ابن أسرته وبيئته التي يعيش وينشأ فيها على أخلاقها ومعتقداتها وعاداتها يتربى ويشب، وذكرنا سابقاً أن الأبوين هما الأصل والمنطلق في العملية التربوية للابن.

ومن هنا فقد يولد إنسان في أسرة عرفت واشتهرت بالتكبر والتعالي، يتوارث ذلك أبناؤها عن بعضهم البعض جيلاً بعد جيل، كما يتوارث غيرهم أي خلق آخر ممدوحاً كان أم مذموماً، كالتواضع والسكينة والشجاعة أو البخل والشح والجبن...ونحوها.

هذا الإنسان الذي يولد وينشأ في هذه الأسرة المتعالية المتكبرة ووسط هذه البيئة المتعاظمة غالب أمره أن يصاب بهذا الداء الخبيث فينشأ متكبراً وارثاً الكبر عن أبويه وعمن حوله من أقاربه وأبناء أسرته، أو محاكياً ومقلداً لهم في ذلك.

وكيف يسلم من الكبر من يشب يراه في خلق والديه وأقاربه يراه في أقوالهم وأفعالهم، ويراه في حركاتهم وسكناتهم، ويراه في سلوكهم وتعاملهم مع الناس من حولهم؟

كيف يسلم من الكبر من يشب وسط أسرة تتفاخر وتتباهى وتتعاظم وتزهو بمالها من حسب ونسب أو بما تملك من جاه وسلطان، أو بغير ذلك مما يتفاخر به ويعتز أهل القيم الدنيوية الرخيصة؟

كيف يسلم من الكبر من يعيش وسط أسرة ترى نفسها فوق الآخرين فتتعالى عليهم وتنتقص من شأنهم وتحط من أقدارهم؟

كيف يسلم من الكبر من يُغرَس فيه الكبر غرساً؟ يقال له : أنت من بني فلان الذين فعلوا وفعلوا، وكان لهم من الأمجاد كذا وكذا، أنت ابن فلان سليل الشرف والعز، صاحب الجاه العظيم مالك المال الكثير، حامل الشهادات العالية، يجب ان ترفع برأسك وتشمخ بأنفك فلا أحد يساويك أو يدانيك، أترك مصاحبة فلان، ولاتحط من قدرك بمجالسة علان، فأين هم منك، وأين حسبهم من حسبك، ونسبهم من نسبك؟ فأنت أحسن منهم

نسبا، وأعرق جاهاً وأصالة، لايدانيك منهم أحد، وإنما هم في مقام الخدم لك، فلاتتدنى بنفسك لمخالطتهم أو مؤانستهم، بل وحتى تحية الإسلام لاتبدأهم بها وإن بدءوك فلك الخيار في ردها من عدمه.

وعليك أن تظهر وتبرز من نفسك في أقوالك وأفعالك وسائر أحوالك مايدل على تميزك على غيرك وعلوك عليه، ممن هو ليس من أبناء جنسك أو وطنك أو مجتمعك أو ممن ليس من أصلك وفصلك، فلايكون منك تواضع ولين لهم ولاسؤال ولاجلوس إليهم، بل وعليك أن تأنف حتى من وقوفهم معك في الصلاة متحرياً أن تقف بجانب من يشبهك قوة في النسب والقبيل والبلاد والجاه والمال.

فمثل هذا الذي ينشأ على مثل هذه المفاهيم الخاطئة والتربية المنحرفة مصيره أن ينال حظه من هذا الداء الخبيث داء التعالي والكبرياء، وقد نجده ينشأ مزدوج الشخصية، غريب الأطوار والسلوك، فهو على من هو أضعف وأقل منه قارون زمانه وفرعون عصره، ولكنه أمام من يحس بحاجته إليه أو بتفوقه عليه عبد يرتمي تحت قدميه، فبعداً وسحقاً لهؤلاء الأشباه.

فالوراثة والتقليد إذاً سبب من الأسباب الاجتماعية التي تعمل على إيجاد المتكبر وتساعده على إظهار ما كمن في نفسه من الكبر، وهو أمر مشاهد ومعلوم، فكم من أسرة وبيئة قرأنا أو سمعنا عنها، بل وعرفناها يتوارث الكبر أبناؤها ويظهر على سلوك صغيرهم وكبيرهم محاكين في ذلك ومتبعين ومقلدين آباءهم.

ولو عدنا إلى كتاب الله تعالى لوجدناه يقص علينا قصص الحق ويخبرنا خبر اليقين أن وراثة الآباء وتقليدهم واتباعهم كان من أعظم أسباب كفر الكافرين، واستكبار المستكبرين عن اتباع الحق المبين، والإيمان بالله تعالى وبأنبيائه والمرسلين.

قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ**

كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٣،٢٤] .

وحاصل القول في هذا السبب الاجتماعي ومن منطلق هذه الآية الكريمة أنه ليس خاصاً بالأسرة الصغيرة، لكنه البداية ليشمل بعد ذلك المجتمع كله كما قد تبين ذلك من خلال قصص المتكبرين في القرآن الكريم، وكيف أن الخلف منهم اتبعوا السلف وورثوا منهم ذلك الخلق الذميم وحاكوهم فيه .

السبب الاجتماعي الثاني : سوء التربية :

إذا وجد المتكبر وانحدر من أسرة لم تعرف بالكبر أو تذكر به فلا يمكننا في هذه الحالة أن نقول : إنه ورث الكبر عن أسرته، ولكن يمكننا القول : إن الإهمال وسوء التربية من تلك الأسرة كان له دروه المؤثر في مساعدة ذلك المتكبر على تنمية وإبراز ماكمن من الكبر في نفسه، بمعنى أن البناء التربوي كان هشاً على غير ما ينبغي أن يكون، وحدثت فيه أخطاء أدت بذاك المتكبر إلى أن يسلك هذا المسلك المنحرف .

وأبرز تلك الأخطاء على مابدا لي والله تعالى أعلم هي كالآتي :

أولاً : عدم توثيق صلة الابن بربه وخالقه سبحانه وتعالى وذلك من خلال هذه الصور :

أ - الإهمال في تعويده منذ نعومة أظفاره على أداء فرائض الإسلام، وتربيته على القيام بها على الوجه اللائق، لاتقليداً ومحاكاة، بل رجاء رحمة الله وخوفاً من عذابه عزوجل .

وأعظم الفرائض التي يجب تربية الابن عليها هي الصلاة عماد الدين وركنه الثاني بعد الشهادتين، وأجل وأعظم مايصل الإنسان بربه ومولاه جل جلاله .

فينبغي أن يحافظ الآباء على هذه الصلاة، وأن يقوموا بها خير قيام، وأن يربوا أبناءهم عليها طاعة لله تعالى، فقد قال الله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [التحريم:٦] .

وقد ذكر في معنى الآية وكيف يقي الإنسان أهله نار جهنم أقوالٌ عن

جماعة من الصحابة والتابعين[1]، ملخص هذه الأقوال ومفادها أن على الإنسان أن يلزم تقوى الله تعالى، وأن يؤدب أهله ويعلمهم مافرض الله تعالى عليهم ومانهاهم عنه، فيأمرهم بالقيام بأمر الله وينهاهم ويزجرهم عن معصيته ويعينهم ويساعدهم في الحالين[2].

قال ابن كثير -عليه رحمة الله- وفي معنى الآية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: «**مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ وَإِذَا بَلَغَ عَشْرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا**»[3]، قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعاصي وترك المنكر[4].

إن الصلاة من أعظم مايصل العبد بسيده، والمخلوق بخالقه سبحانه وتعالى، وبالتالي إذا أقامها الإنسان على الوجه الصحيح فإن سلوكه سيستقيم، وخلقه سيتهذب، ونفسه ستزكو، فقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، أي: «مواظبتها تحمل على ترك ذلك»[5]، وذلك لما فيها من الموعظة بقراءة القرآن، ولأنها تشغل بدن المصلي كله فإذا دخل فيها وخشع وأخبت لربه وتذكر أنه واقف بين يديه وأنه يراه ومطلع عليه صلحت ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، فلا يأتي الفحشاء من هذا حاله[6].

---

(١) منهم علي بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير ابن كثير ٤١٧/٤.

(٣) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، عن عبدالملك بن الربيع بن سبره، عن أبيه عن جده مرفوعاً، وأخرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع». انظر: سنن أبي داود ١٣٣/١.
وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبي على شرط مسلم. انظر: المستدرك ٢٥٨/١.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤١٧/٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٤٢٥/٣.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٣٠/١٣/٧، ٢٣١.

جاء في الظلال عند ذكر هذه الآية : «(وأقم الصلاة) إن الصلاة حين تقام تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهي اتصال بالله يخجل صاحبه ويستحيي أن يصطحب معه كبائر الذنوب وفواحشها ليلقى الله بها ، وهي تطهر وتجرد لايتسق معها دنس الفحشاء والمنكر وثقلتهما»[1] .

ولعظم أمر الصلاة أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأمر أهله بها والاصطبار على القيام بها ، فقال تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [طه:١٣٢] .

وامتدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بأمره لأهله بالصلاة فقال : ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً** ﴾ [مريم:٥٥] .

إذاً حين يأمر الله تعالى بالقيام بالصلاة وبأمر الأهل ومنهم الأبناء بذلك ، وحين يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الآباء أن يعلموا أبناءهم الصلاة ويأمروهم بها إذا بلغوا سبع سنين ، وأن يضربوهم على التقصير فيها إذا بلغوا عشر سنين ، فإن الله تبارك وتعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم يريدان بهم جميعاً الخير كل الخير ، فعليهم الامتثال لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن الملاحظ وأعني في أزمنتنا هذه خاصة ، أن الآباء معظمهم مقصرون في هذا الجانب كثيراً ، فأصبح كثير منهم لايهتم بأمر الصلاة في ذات نفسه فضلاً عن أن يربي عليها أبناءه ، بل الطامة الكبرى أن تجد من الآباء من يطلب منهم أبناؤهم إيقاظهم للصلاة إذا ناموا فلايفعلون بحجة الرحمة بهم والشفقة عليهم ، فلا يودُّون أن يُقْلِقُوا راحتهم ويزعجوا هناءهم ، وبئست الرحمة والشفقة هذه!! ألا رحموهم وهم يقبعون أمام أدوات اللهو الباطل المحرم الساعات الطوال ، يرون ويسمعون ويقرءون مايهدم الدين والأخلاق ويقتلعهما من جذورهما؟ وأفلا رحموهم وهم يصادقون من لاخير فيهم فيجلسون إليهم الأوقات الطويلة ويتعلمون منهم مايوردهم موارد الهلاك في الدنيا قبل الآخرة؟

إن الرحمة الحقيقية بالأبناء تكون في تربيتهم على طاعة الله تعالى والقيام بفرائضه وامتثال أوامره والوقوف عند حدوده لينالوا بذلك رضاه وينجوا من سخطه وعذابه ، أما أن يُرَبوا على غير ذلك فهو غاية الضرر بهم ، ومنتهى

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٣٨/٥.

الظلم لهم، من حيث لايشعرون، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

ما أودّ أن أقوله بعد هذا هو: إن الصلاة تزكي النفوس وتطهرها من كل فحشاء وكل منكر وتغرس فيها كل خير ومعروف، ومن أعظم المنكر والفحشاء الذي تطهر الصلاة منه نفوس المصلين الكبر والخيلاء.

ففي الصلاة ذل وسكينة وخضوع وخشوع وإخبات لله رب العالمين، فالقلب خاشع والعين دامعة، واللسان له ذاكرة وبحمده لاهجة، والأعضاء والجوارح بين يديه راكعة ساجدة، والجباه والأنوف له على التراب راغمة، والظهور لعظمته منحنية.

وكل شيء في الصلاة يوحي للعبد المصلي بضعفه وقلة حيلته، وعظمة وعزة مولاه ومالكه، فيعلن خضوعه وإخباته واستكانته له جل جلاله وعز ثناؤه وتقدست أسماؤه.

وفي الصلاة إشعار للإنسان بمساواته لإخوانه في دينه فقيرهم وغنيهم أميرهم ومأمورهم ذكرهم وإناثهم، فالجميع من أصل واحد ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾ [الحجر:٢٦]، ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَآءً**﴾ [النساء:١]، والجميع خلقوا لشيء واحد، ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، والجميع مصيرهم واحد ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ**﴾ [المؤمنون:١٥]، ثم يكون الموعد واحداً ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ**﴾ [المؤمنون:١٦]، وهناك تجازى كل نفس بما كسبت، فيحصل التمايز والتفاضل، فريق في الجنة يُنادَوْن: ﴿**أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:٤٣]، وفريق في السعير، يُكبتُون بالقول ﴿**فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ [النحل:٢٩].

عندما يشعر المرء بمساواته لإخوانه الذين يصُفُّون أقدامهم إلى قدميه بين يدي ربهم، ويضعون جباههم على الأرض بجوار جبهته سُجداً لله، ويحنون ظهورهم كما يحني ظهره رُكعا لله، فإنه لن يتعالى عليهم، بل سيلين ويتواضع لهم.

وعندما يعلم أن النار مأوى المتكبرين ويتيقن ذلك، فسينفذ بجلده ولن يتكبر إنقاذاً لنفسه من عذاب السعير.

نخلص أخيراً إلى أن إهمال تربية الأبناء على المحافظة على الصلاة والقيام بها وتعميق آثارها في نفوسهم يجعل صلتهم بالله تبارك وتعالى منقطعة، ومن تنقطع صلته بالله تعالى فلاعجب إن انحرف عن الطريق السوي إلى غيره المعوج تحت أية صورة من صوره، والتي منها التكبر والخيلاء.

وكذلك الشأن في سائر فرائض الإسلام ينبغي أن يربى الأبناء وينشأون عليها، فكلها مطهرة للنفوس من التكبر والخيلاء ومن أي انحراف آخر متى ماأقيمت على الوجه الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى، فيجب على الآباء تربية الأبناء على القيام بها وتعظيمها، وقبل ذلك يجب عليهم أن يكونوا هم القدوة والأسوة لهم في هذا الشأن، وبالله التوفيق.

وثمة أمر ينبغي أن نلحظه ولايغيب عن أذهاننا ونحن في هذا الصدد، وهو أننا لم نخص الصلاة بمزيد ذكرها هنا إلا لأن من أعظم آثارها إذا أقيمت كما ينبغي، قيام العبد بأداء الفرائض والواجبات الأخرى التي فرضت وأوجبها عليه ربه الحكيم العليم، وابتعاده عن سائر الفواحش التي نهاه تعالى عنها.

ولهذا فإن الله تعالى حين أمر بإقامة الصلاة أتبع ذلك ببيان أثرها على حياة مقيمها، فقال تعالى: ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وحين نتتبع النصوص القرآنية والنبوية حين الأمر بالصلاة نجد أنها كثيراً ماتقرن الصلاة بالزكاة، وهذا أمر له مدلوله، وهو أن الإسلام لايربي أتباعه على أن يعيشوا لأنفسهم وخاصتهم، بل يربيهم على أن يعيشوا لأنفسهم ولغيرهم.

فإذا كانت الصلاة هي مسئولية المسلم فيما بينه وبين ربه، وهي تعني غاية الخضوع والخشوع والذل والإخبات والتواضع له سبحانه وتعالى، فإن الزكاة هي مسئوليته في الإحسان فيما بينه وبين خلق الله، وهي تعني التواضع لهم بإعطائهم حقوقهم، فإن المتكبر بخيل مختال، يمنع أصحاب الحقوق حقوقهم، ولهذا فقد ورد الجمع بين البخل والخيلاء في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ **وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن**

كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ [النساء:٣٦،٣٧] .

هذان المعلمان العظيمان ، إحسان العبد فيما بينه وبين ربه ، وإحسانه فيما بينه وبين الخلق اشتملت عليهما النصوص الشرعية عند ذكر الصلاة والزكاة ، وعند ذكر الثناء على المؤمنين ، وهذه أمثلة على ذلك :

١ - قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال:١،٢] .

فلو أن النص القرآني الكريم وقف بعد تعديد صفات هؤلاء المؤمنين عند قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ ، لأمكن لقائل أن يقول : إن الإسلام يربي أصحابه على مسئوليتهم الخاصة التي لاتتعدى نطاق الاهتمام بالنفس ، ولكن لما ذكر الصفة التالية في قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، دلّ على أن مسئولية المسلم تتعدى نطاق المسئولية الخاصة ، فهو مطالب بهذا وذاك[1] .

٢ - وهذا المدلول قد جاء عند ذكر صفات المؤمنين في أول سورة المؤمنون[2] ، وأواخر سورة الفرقان[3] ، وفي سورة المعارج[4] ، وفي كثير من نصوص القرآن الكريم .

فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتواضع وأداء الأمانات وحفظ الفروج والإعراض عن اللغو والإحسان إلى المساكين واليتامى ، وعدم الإسراف ، وعدم البخل ، وإتيان كل حَسَن ، وترك كل سوء ، هي من صفات المؤمنين الذين أمرهم الله تعالى بها وامتدحهم عليها ، وتدل كل الدلالة على أن الإسلام يربي أصحابه على الإحسان فيما بينهم وبين ربهم ، والإحسان فيما بينهم وبين خلقه .

---

(١) مستفاد من توجيهات د/سليمان الصادق ، أثابه الله.

(٢) من الآية رقم ١ وحتى الآية رقم ١١.

(٣) من الآية رقم ٦٣ وحتى الآية رقم ٧٧.

(٤)من الآية رقم ١٨ وحتى الآية رقم ٣٥ .

٣ - ومن الحديث الشريف الدال على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»(١).

فالصلاة والزكاة ركنان من أركان الإسلام التي لايقوم بناؤه إلا بإقامتها، والصلاة تعني الإحسان فيما بين العبد وربه، والزكاة تعني الإحسان فيما بين العبد وإخوانه، ولذا كانتا قرينتين لاتفترقان في معظم النصوص الشرعية الواردة بشأنهما، ومن هنا وقف الصديق أبوبكر رضي الله عنه وأرضاه ذلك الموقف الحاسم من الذين امتنعوا من أداء الزكاة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»(٢).

ودائماً تقدم الصلاة على الزكاة في النصوص الشرعية، وذلك لأنها حق الله تعالى، بينما الزكاة حق العباد، فيقدم حق الله تعالى على حق العباد، وكذلك لأن الزكاة أثرٌ من آثار إقامة الصلاة على وجهها، وكذا بقية فرائض الإسلام وشرائعه كما سبق وأشرت إلى ذلك.

لذا كان من الواجب تربية النفس والأهلين على القيام بفرائض الإسلام وتعميق آثارها في النفوس، حتى يبقى الإنسان محسناً فيما بينه وبين ربه، ومحسنا فيما بينه وبين الخلق، في غاية الذل والخضوع لربه، وغاية اللين والتواضع لإخوانه، وبهذا تستقيم الحياة وتحسن في الدارين.

ب - عدم تربية الأبناء على حب الله تعالى، والخوف منه، وتعظيم أوامره ونواهيه، فالابن قد يسيء فيكذب ويشتم ويلعن ويسخر ويغتاب ويؤذي ويتكبر ويقصر في الحقوق والواجبات، وقد يحسن فيصدق ويتواضع ويحافظ

---

(١) الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس ٦٧/١، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب أركان الإيمان ودعائمه العظام ٤٥/١.

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة ٥٩٣/٢، وفي كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧٤٨/٩، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لاإله إلاالله ٥١/١.

على جميل الأخلاق وحميد الخلال، ويؤدي ماعليه من حقوق وواجبات، قد يفعل هذا وهذا فلايجد في الحالين الموجه له التوجيه السديد، بحيث يربطه بربه تبارك وتعالى مبينا له أن فعله الخير يرضاه الله له ويحبه منه، ويثيبه عليه، لأنه هو الذي أمره به، وأن فعله السوء حرام، لايحبه الله تعالى ولايرضاه، وسيعاقبه على فعله، لأنه قد نهاه عنه وحذره منه.

فإن وجد هذا التوجيه السديد تربى على حب الله وخشيته، ونشأ معظماً أوامره ونواهيه، لكنه لن يتربى وينشأ على ذلك، إن لم يجد توجيهاً، أو وجده ولكنه لايربطه بربه تبارك وتعالى، بل يظهر له الأمر على أنه دنيوي اجتماعي، كأن يقال له عند فعله السوء: هذا عيب، سيقول الناس عنك: كذا وكذا، وسوف لن يحبوك، لأنك فعلته، أو يقال عند فعله الحسن: أحسنت، هذا أمر يحبك الناس لأجله ويحمدونك عليه، وغير ذلك من الأقوال والتوجيهات التي لاتربطه بالله تعالى، بل بالعبيد.

والتوجيه بهذا الشكل لابأس به، متى ماكان بعد ربط تلك الأفعال بمحبة الله تعالى ورضاه أو ببغضه وسخطه، حتى يكون الدافع لفعل الخير حب الله وابتغاء مرضاته، ولترك السوء حب الله كذلك وخوف عقابه، وحتى ينشأ معظماً أوامر ربه تعالى ونواهيه.

أقول: لو تربى على تعظيم الله تعالى وتعظيم أوامره ونواهيه لما تكبر واختال لأنه حينها يخالف أمر الله تعالى له بالتواضع، ويؤتي مانهاه عنه من التكبر منازعاً له في صفة من صفاته المتفرد بها سبحانه وتعالى، وهو بذلك يعرض نفسه لما لايطيقه من سخطه تعالى وعقابه.

ج - عدم تربيتهم على تذكر اليوم الآخر الذي يثاب فيه المحسن على إحسانه، ويجازى فيه المسيء على إساءته، فتذكُّرُ هذا اليوم العظيم له وقعه وأثره على النفوس، حيث تبقى دائمة الصلة بالله تعالى والمراقبة له في كل أحوالها، تأتي وتفعل ما أحب ورضي لتنال ثوابه ورضاه يوم تلقاه، وتذر ماكره وسخط لتأمن من سخطه وعذابه يوم العرض عليه والوقوف بين يديه.

أما نسيان ذلك اليوم العظيم والغفلة عن هوله يوم يقف العبد الضعيف ذليلاً منكسراً، بين يدي الواحد القهار ليلقى جزاء ماقدمت يداه، نسيان ذلك اليوم العظيم والغفلة عنه وعن هوله، يقطع صلة العبد بربه تعالى، وينسيه

مراقبته له واطلاعه عليه وإحصاءه كل صغيرة وكبيرة من أمره، وعندها لايبالي أبات أمسخطاً له أم مرضيه، ولذا نجد أن جل المستكبرين المذكورة قصصهم في كتاب الله تعالى ينكرون ويجحدون اليوم الآخر.

فلو تربى الإنسان منذ صغره على تذكر اليوم الآخر ومايقع فيه على المتكبر من ذلة وصغار حين يبعثه ربه على صورة ذرة تداس بالأقدام ثم يساق إلى جهنم لتكون مسكنه ومأواه، لو تربى الإنسان على تذكّر ذلك وتذكّر الجزاء للمتواضعين، لأدرك قبح الكبر وسوء عاقبته فعمل على تطهير نفسه وتزكيتها منه ابتغاء مرضاة الله وخوف عذابه يوم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون.

فعلى الآباء تربية أبنائهم على تذكر اليوم الآخر يوم لقاء الله تعالى ليأمنوا عليهم من الزيغ والضلال والانحراف عملاً بقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾[التحريم:٦].

ثانياً: الدلال الزائد المفسد للأبناء:

ومن صور ذلك الدلال:

أ - تنفيذ كافة رغباتهم وتحقيق جميع شهواتهم وإن كانت أحياناً فوق طاقتهم، وأحياناً غير ضرورية، بل قد تكون أحياناً ضد مصالحهم ومصالح أبنائهم وخطراً عليهم، كأن يترك للابن الحرية المطلقة في اختيار أصدقائه وجلسائه وخبرته في الحياة قليلة فلايحسن الاختيار، فيعود ذلك عليه وعلى أسرته بل وعلى المجتمع بالوبال، أو كأن يطلب الولد من أبيه شراء سيارة -حالياً- وهو لازال فتى مراهقا، غائبة عنه الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها أو يعرض غيره لها إن لم يحسن القيادة، فيجيبه الأب إلى طلبه فينطلق يعبث يلهو يسابق الريح في سيره غير عابيء بما قد يلاقيه من الأخطار، وكم من فتى أزهق روحه أو روح غيره بسوء تصرفه في قيادة سيارته.

إن حب الآباء لأبنائهم وسعيهم لإسعادهم لاينكر عليهم، فتلك فطرة الله التي فطر عليها خلقه، وإنما الذي ينكر عليهم أن يتحول ذلك الحب إلى دلال مفسد يشقى معه الآباء والأبناء والمجتمع.

ولسائل أن يسأل الآن، ماعلاقة الدلال بالكبر؟

والجواب : إن الابن المدلل المجابة جميع مطالبه ، المحققة كل شهواته ، المنفذة كل رغباته ، المطاعة كل أوامره دون تبصر وحكمة وتوجيه ، يجعله ذلك يشعر بأنه خير وأحسن من غيره ، ويظل ينمو لديه ذلك الإحساس حتى يصل به إلى مرحلة التكبر والخيلاء على من حوله خاصة من الذين ليس لهم ماله لظنه أنه خير منهم وأنهم أدنى منه .

ب - والصورة الثانية من صور الدلال المفسد للأبناء تتمثل في جانب السكوت عن أخطائهم صغيرة كانت أو كبيرة ، فلايلقون عليها العقاب المناسب ولاتواجه تلك الأخطاء بحزم وحكمة ، بل وفي بعض الأحيان تجد من الآباء من يقف إلى جانب ابنه حين يخطئ على غيره .

وهذا الأمر يجعله يشعر بأهميته ومكانته التي خولته أن لايحاسب على أخطائه في حق الآخرين وسوء تصرفاته معهم ، بل قد يوقف إلى جانبه ، ومن ثم يشعر بأفضليته عليهم فتعظم نفسه لديه فيختال ويتكبر عليهم .

وأود أن أذكر بعض قصص من الواقع في هذا الجانب نظرتها عيناي وسمعتها أذناي ، سائلا الله تعالى مغفرته وعفوه عني وعن أصحابها وعن كل مسلم .

١ - ذات مرة طفل لم يتجاوز عمره الحادية عشرة من السنين يدخل مع أبيه أحد المساجد لأداء الصلاة فيحمل الابن حذاءه ويضعه أمامه في أول المسجد قرب حافظة للمصاحف الشريفة ، فينصحه أحد المصلين وهو في سن أبيه بأن يخرجه إلى المكان المخصص للأحذية عند باب المسجد ، فما كان من الصغير إلا أن ذهب إلى أبيه الذي كان قد أخذ مكانه في الصف ، شاكياً له ذلك الناصح ، وإذا بالأب يشتط غضباً ويقوم إلى ذلك الناصح مخاصما له على مرأى ومسمع الصغير ومن هم في المسجد من المصلين ، يقول له : مادخلك بالولد؟ دعه يضع حذاءه في المكان الذي يرغب أو نحوا من هذا القول ، وكلما أراد ذلك الناصح أن يتكلم قال له : اسكت ولاتتكلم ، وأقيمت الصلاة في هذا الوقت ، فما كان من ذلك الناصح وقد تملكه الغضب إلا أن خرج من المسجد دون أن يصلي ولسان حاله ومقاله : تركت المسجد لك ولابنك .

إني لست مع هذا الذي خرج من المسجد وقد أقيمت الصلاة ، فهذا

خطأ ماكان ينبغي له فعله، في ذات الوقت لست مع ذلك التصرف السيء من الأب، فالأمر بسيط، ولايستدعي كل ذلك الغضب والخصام داخل بيت من بيوت الله تعالى والتي لها حرمتها وجلالتها.

لقد أخطأ الابن حينما ذهب شاكياً لأبيه ذلك الرجل لمجرد أنه قال له: أخرج حذاءك من المسجد، فكان على الأب أن يواجه هذا الأمر بحكمة تحفظ للرجل هيبته ووقاره، وتوجه الصغير إلى حسن الخلق مع الناس واحترام الكبار منهم وتقديرهم، لكن أن يحصل منه ماحصل، فإن ذلك قد يجعل الابن يتطاول على الآخرين لأنه لم يشعر بخطئه بل قد يظن أن الحق كل الحق معه، وهذا يجعله يشعر بقيمته وقدره، فيتعظم ويختال.

٢ - وذات مرة رأيت رجلاً قد تجاوز الستين من عمره يلاطف ولداً صغيراً لايتجاوز الخامسة يقف إلى جوار أبيه فيرفع الولد رجله محاولاً رفس ذلك الرجل الذي يعرفه ويعرف أباه ويجاورهم في السكن، فغضب الأب وواعجباً لم يغضب من ولده، وإنما من الرجل، وقال له بحدة: لاتمزح معه، فهو سريع الغضب قد يؤذيك، وعندها ماأفعل لك؟

عجبا كل العجب لهذا الأب، أفما كان من اللائق والأجدربه أن يلتفت إلى صغيره ويقول له: كيف ترفس من هو أكبر منك ويمزح معك؟ لاتفعل ذلك مرة أخرى، وعليك باحترام الناس وتقديرهم، فهذا هو التوجيه السليم في مثل هذا الموقف، لامافعله ذلك الأب عن غفلة منه، إنه سوء تربية ربما غرست في نفس صغيره خلقا سيئاً، هو التطاول على الآخرين وعدم اللين لهم مادام أنه يجد من يقف معه في خطئه.

ربما أكتفي بهاتين القصتين كإشارة إلى مايعج به واقعنا من مواقف سلبية تدل على سوء التربية التي تؤدي إلى أوخم العواقب والنتائج داعياً الآباء إلى غرس الفضائل في نفوس أبنائهم بحكمة في القيادة وحسن وسداد في النصح والتوجيه، ليقطف الجميع ثمار ذلك خيراً وفلاحاً وبراً وصلاحاً.

وخلاصة القول: إن الدلال الزائد الذي لاطائل تحته يفسد الأبناء وربما أدى بهم إلى الانحراف عن السلوك المستقيم والخلق الأمثل القويم، فعلى الآباء أن يقودوا سفينتهم بحكمة وحنكة ودراية ليقووا على مواجهة أمواج الحياة الهائجة المتلاطمة.

ثالثا : ومن الأخطاء في تربية الأبناء : تفضيل بعضهم على بعض ، وعدم العدل بينهم في الإعطاء والمنع ، والثواب والعقاب ، فمن الملاحظ أن بعض الآباء يعمد إلى تفضيل أحد أبنائهم على إخوانه ، فينال منهم كل رعاية وعناية ودلال ، إن طلب وجد دون إبطاء ، وإن قال صُدق دون روية وخاصة فيما يجري بينه وبين إخوته من مخاصمات ومشاجرات تجري بين كل الصغار ، وإن أخطأ أو قصر لايعاقب ، في المقابل غيره من إخوانه إن طلب لم يجب ، وإن أجيب فبعد تضجر وتعنيف ، وإن قال لايصدق ، وإن صدق فبعد شك وارتياب ، وإن أخطأ فما أسرع مايقع عليه العقاب ، هذا وإن أتى ذلك حسنا نال عظيم المديح وجزيل الثواب ، وإن أحسن غيره لايشجع ولايثاب .

إنه لأسلوب سيءٌ في التربية فيه من الظلم والإجحاف مافيه وبالتالي فضرره كبير وخطره جسيم ، فهو يزرع الحقد والحسد والعدواة والبغضاء والتنافر في نفوس الأبناء الذين يرون هذا الميل الواضح من آبائهم نحو أخ لهم وتفضيلهم له عليهم ، ويشعرون بالجور الواقع عليهم منهم .

لقد آثر يعقوب النبي عليه السلام في حبه ولده يوسف وشقيقه على إخوتهما ، -أو هكذا ظن الأبناء- ويعقوب نبي من أنبياء الله تعالى لايمكن أن يظلم بقية أبنائه أو يجور عليهم ، وإن أحب يوسف ومال إليه قلبه أكثر منهم فلشيء أراده الله تعالى ، ومع هذا فقد غلا الحقد والحسد في نفوسهم ونزغ الشيطان فيها من كيده وتسويله حتى سوّل لهم قتل أخيهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿**لّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لّلسّائِلِينَ . إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبّ إِلَى أَبِينَا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ . اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ . قَالَ قَآئِلٌ مّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السّيّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾[يوسف:٧ــ١٠] .

هكذا زين الشيطان لهم قتل أخيهم ، فألقوه في قاع البئر ليتخلصوا منه فيخلص لهم حب أبيهم ، فإذا كان هذا فعل الحقد والحسد الذي زرعه الشيطان في نفوس أبناء نبي ، فغيرهم أولى أن يفعل بهم ذلك ، خاصة إذا أدركنا أن تفضيل نبي لأحد أبنائه على إخوته ليس بحال من الأحوال كتفضيل غيره من أفراد الناس غير المعصومين .

وبالإضافة إلى كون هذا الأسلوب الخاطئ يزرع الحقد والحسد...فإنه ينمي في نفس ذلك الابن المفضل المدلل بغير وجه حق، الإحساس بالخيرية والأفضلية على إخوانه أولاً ثم على سائر من حوله فإذا ما أحس ذلك تعظم في نفسه ثم تكبر وتعالى على الآخرين.

ومن هنا فقد جاء الأمر النبوي التوبوي من رسول الله صلى الله عليه وسلم للآباء بالعدل بين أبنائهم.

فعن النعمان بن بشير[1] رضي الله عنه قال: إن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أكل ولدك نحلته مثل هذا؟**»، فقال: لا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فأرجعه**».

وفي رواية قال: تصدق عليّ أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**»، قال: لا، قال: «**اتقوا الله وأعدلوا في أولادكم**»، فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وفي رواية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا بشير ألك ولد سوى هذا؟**»، قال: نعم، قال: «**أكلهم وهبت له مثل هذا؟**»، قال: لا، قال: "**فلاتشهدني إذاً، فإني لا أشهد على جور**»[2].

يأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد على هذه الهبة لأنه صلى الله عليه وسلم رأى أن فيها جوراً على بقية الأبناء وظلماً لهم، ومن ثم يقول صلى الله عليه وسلم معلما ومربياً: «**اتقوا الله وأعدلوا في أولادكم**».

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد الأنصاري، الخزرجي، أبوعبدالله، أول مولود في الإسلام بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً، كان قاضي دمشق، واستعمله معاوية على الكوفة ثم حمص. قتل سنة خمس وستين.
انظر: الإصابة ٦/٢٤٠.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب الهبة للولد ٣/٣١٨، وأخرجه مسلم في كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة٣/١٢١ــ١٢٤٤، روايات متعددة منها عن جابر رضي الله عنه٣/١٢٤٤.

وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم للآباء بتقوى الله تعالى، وبالعدل بين أبنائهم، وكانت الأولى كافية، فتقوى الله تعالى تستلزم العدل بين الأبناء، ولكنه صلى الله عليه وسلم أراد التأكيد على هذا الأمر، لعلمه وإدراكه بما فيه من الخير والصلاح في توفير الأمن والاطمئنان داخل الأسرة والمحافظة على تآلفها وترابطها، وبما في ضده من الظلم من المفاسد والشرور المقوضة للبناء الأسري، والمقطعة لروابطه العظيمة التي أمر الله تعالى بالمحافظة عليها.

فعلى الآباء توخي العدل بين أبنائهم في كل أمر مادي أو أدبي قدر المستطاع، حتى لايشعر المفَضَّل باستعلائه والمهضوم بالظلم الواقع عليه، فيتولد من ذلك شر وفساد كبير.

رابعا: ومن الأخطاء في تربية الأبناء، مايقع من الآباء من إهمال مراقبة سلوك أبنائهم لتقويم معوجه أولا بأول، فعلى الآباء أن لايغفلوا عن مراقبة سلوك صغارهم حسنه وسيئه، فما ظهر منه حسن عملوا على رعايته وتثبيت جذوره في نفوسهم لينمو بنموهم ويكبر بكبرهم، وماظهر منه معوج ومنحرف عملوا على تقويمه وتهذيبه وقلعه من جذوره، قبل أن يستفحل أمره فيصعب علاجه.

ومما يمكن أن يظهر من السلوك المعوج على الصغير وينبغي إصلاحه فور ظهوره خلق الكبر الممقوت المذموم، لذا فإن تربية الولد منذ حداثة سنه على كرهه وعدم الاتصاف به أمر هام، لأنه إن تعوّد الولد على ازدراء الناس والتكبر على أقرانه والتعالي عليهم في صغره فإن هذه الخصلة الممقوتة لن تتركه عند كبره وبلوغه سن التكليف"(١).

والكبر كما نعلم من أعظم أمراض القلب، «ومسئولية الأب في متابعة ولده ومراقبته ومعرفة أمراض قلبه وعلاجها لايقف عند حدود التعريف بالمرض والتوجيه بالعبارة فقط، بل يسلك معه الأسلوب التربوي العملي الذي يستأصل الداء من داخل النفس حتى لايبقى له أثر يحرمه من دخول الجنة، فإن الكبر وإن قل يحرم صاحبه الجنة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: « **لَايَدْخُلُ الجَنَّةَ**

---

(١) مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨.

مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[1] .

والأسلوب التربوي العملي في علاج الابن من داء الكبر يكون حسب مايظهر عليه من صوره وآثاره وذلك على النحو التالي :

أ - قد يكون الابن ممن يميل إلى رأيه ويراه أنه الحق الذي لاحق سواه ، ومن ثم فهو لاينصاع للحق إذا جاء على لسان إخوته أو من يخالطهم من أقرانه وأصدقائه خاصة إن كان الولد قد وصل سناً مناسبة للفهم والإدراك كأن بلغ عشر سنين فما فوق ، فإنه في هذه الحالة إن مال إلى رأيه ولم ينصع للحق لأنه جاء على لسان غيره ، مستعظم لنفسه مسفه للآخرين ، فينبغي على الوالد أن يحذره من هذا السلوك وينفره منه بأن يبين له مقت الله تعالى لمن يفعله وحرمانه من دخول جنته وغضبه عليه وإذلاله له .

ولايكتفي بهذا التوجيه ، بل يلزمه بأن ينصاع للحق ويقبله ويعلن ذلك أمام أصدقائه معتذراً عن خطئه حين رد الحق ، وماكان ينبغي له أن يفعل .

فإن فعل الابن ذلك كان له درساً عملياً جيداً يستفيد منه عدم الوقوع في مثله مستقبلاً ، فإن عاد أعيد معه الدرس حتى يتدرب فلايعود لمثله أبداً[2] .

ب - وقد يظهر على الابن حب التسلط والتصدر على إخوته وأصدقائه ، فيرغب ويحب أن يظهر بصورة القائد الآمر الناهي لهم ، ولايرضى بغير ذلك ، ولايقبل إلا الصف الأول ، والسير في الأمام ، وفي هذه الحالة فإنه يدرب على ترك هذا السلوك بضده ، فيؤمر بالتزام التوسط في المجلس والسير بين الزملاء أو خلفهم ، وأن يقدمهم على نفسه ، فإن دعاهم إلى البيت أمر بالقيام على خدمتهم....في تواضع دون كبر ، أو إحساس بالتفضل وأجلسهم في صدر المكان[3] ، وجلس بينهم مبتسما مرحبا حريصا على أن لايتميز عنهم بأكل أو شرب أو مجلس وأن لاينفرد برأي كما يحرص أن يسمع أكثر من القول.....الخ .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ٩٣/١ ، من حديث عبدالله بن مسعود ، وسنن أبي داود ، كتاب اللباس ، باب ماجاء في الكبر٥٩/٤ ، وسنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر٦١/٤ .

(٢) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨.

(٣) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٨.

ج - وقد يظن الولد أنه أفضل من إخوانه وأصحابه وأنه متميز عنهم ، فعلى الأب أن يسعى لاستئصال هذا الاعتقاد بأن يبين له مميزات إخوته وأصدقائه ، ويذكر له الجوانب التي يتفوقون بها عليه ، ليتبين له أنه كغيره من إخوته وقرنائه لديه مميزات وعنده نواقص وأنه إن تفوق في جانب من الجوانب فإن غيره يتفوق عليه في جوانب أخرى ، فلايتكبر ولايتعالى .

وحين يسلك الأب هذا المسلك فإنه يحذر أن يتعدى حدود الاعتدال في بيان نواقص الابن ومميزات الآخرين ، فإنه إن تطرف في هذا الأسلوب وبالغ فلربما ساق الولد إلى الشعور بالنقص ، وهذه آفة أخرى لها مساوئ خطيرة وتحتاج إلى علاج آخر[1] .

فالمطلوب أن يعطيه من البيان مايحتاج إليه لتستقيم نفسه ، وتعتدل تصرفاته .

وقد يغتر الابن بقوته ، فعلى الأب أن يبين له أن هناك من هو أشد منه قوة من قرنائه ، وإن تمادى في الاغترار بقوته فلابأس بأن يلقنه درسا عمليا من خلاله يتعلم أن هناك من هو أقوى منه ، بأن يطلب منه أن يتصارع مع أحد أقرانه الذي يرى الأب أنه سيصرعه ويتغلب عليه ، فحين يصرعه سيكون ذلك درساً له ، فلن يغتر ويفتخر بقوته على أقرانه ، ولايختار له من لايستطيع التغلب عليه ، لأنه حينئذ سيصرعه ، وذلك سيجعله يزداد غروراً إلى غروره وكبراً إلى كبره[2] .

هـ - وقد يخجل الابن ويترفع عن خدمة أهله خاصة إذا كان من أسرة ثرية ، فيأنف أن يرى حاملا مشتريات أهله ، أو خارجا بالنفايات من البيت لوضعها في مكانها المخصص في الشارع .

وعلاج ذلك يكون بضده ، أي : بأن يؤمر بالنزول إلى السوق وشراء الحاجيات وحملها ، كما يؤمر بإخراج النفايات من البيت[3] ، بل والمشاركة في أعمال البيت المناسبة له والتي في مقدوره ، فإن ذلك ممايساعده على

---

(١) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩.

(٢) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩.

(٣) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩.

التخلص من الكبر والتعالي .

و - وقد يلاحظ على الابن الترفع على الفقراء والضعفاء والمساكين والأنفة من مخالطتهم ومعاشرتهم لإحساسه بأنه خير منهم ، ففي هذه الحالة يؤمر بالجلوس معهم والإحسان في معاملتهم ، ويكون الأب قدوة له في ذلك ، حيث يزورهم ويصطحبه معه ، ويدعوهم إلى منزله ويجلس بينهم ويكرمهم ، ويأمر ولده بتقديم الطعام والشراب لهم والجلوس والأكل معهم....وبهذا يذهب عنه مايجده في نفسه من الترفع والتعظم[1] .

ي - وقد يفتخر الابن على أقرانه بمميزات خَلْقيَّة كالجمال أو الطول أو القوة أو فكرية كالذكاء والفهم والنباهة ، فدور الوالد في علاج هذا هو : أن يبين له أن هذه الصفات التي يفتخر بها هي من نعم الله تبارك وتعالى عليه ، ولسيت من كسبه وليس له حفظها وبقاؤها ، بل إذا شاء الله تعالى حرمانه منها فعل دون أن يملك لنفسه شيئاً ، فالواجب عليه أن يشكر ربه تعالى عليها ، ومن شكره عليها عدم الافتخار والتعالي بها على عباد الله تعالى الذين لم يؤتهم الله تعالى إياها لحكمته سبحانه وتعالى ، كما يبين له أن من أصيب بعاهة في جسده أو بلاهة في طبعه وبلادة في فهمه فإن ذلك قدر الله تعالى عليه لادخل له فيها ، فلايذم بسببها ولايستنقص ، والذي ابتلاه وعافا غيره قادر على أن يعافيه ويبتلي الآخر ، فالكل تحت مشيئة الله وقدره وحكمه وأمره وله الحكمة البالغة سبحانه وتعالى[2] .

عندما تتبين للابن هذه الحقائق وتستقر في نفسه لاشك أنه سيذهب عنه مايجده في نفسه من الكبر والتعالي والخيلاء .

وهكذا يظل الأب متيقظا لخلق ابنه ، كلما بدا منه مظهر من مظاهر الكبر عالجه بضده ، وهذبه بالقول السديد ، والفعل الرشيد ، والقدوة الحسنة ، ويفعل هذا معه في غرس كل الفضائل في نفسه واستئصال كل الرذائل منها .

السبب الاجتماعي الثالث من أسباب الكبر هو : المدح .

والمدح هو الثناء بالذكر الحسن الجميل ، وهو ممدوح ومذموم :

---

(١) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة ١٩٩.

(٢) انظر : مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة٢٠٠،٢٠١.

فالممدوح ما كان حقاً لمن يستحقه ، فهو من باب إنزال الناس منازلهم ، والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم ، لكن ينبغي أن يكون قصداً ، حتى لا يجد الشيطان ثغرة ينفذ منها إلى نفس الممدوح فيزين لها العجب وليس بعده إلا التكبر .

والمذموم : ماكان بغير حق ، بحيث يمتدح من لا يستحق المدح ، ويثني على من ليس أهلاً للثناء ، إما بزيادة على ما فيه ، أو بما ليس فيه أصلاً ، زوراً ونفاقاً لهوىً في نفس المادح .

وقد جاء في النصوص الشرعية ما يدل على وجهي المدح هذين ومنها :

١ - قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ﴾[النساء:٤٩،٥٠] .

هذه الآية الكريمة جاءت في ذم اليهود والنصارى الذين زكوا أنفسهم بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . .إلخ ، وزعمهم أنهم لا ذنوب لهم ، وكل ذلك كذب وزور يختلقونه على الله تعالى ، وهو بيِّن لا يخفى كذبه على سامعيه[1] .

والآية الكريمة وإن نزلت في أهل الكتاب إلا أنها عامة في كل من نحى هذا المنحى ، فزكى نفسه بما ليس فيه[2] ، وعلى هذا ففيها ذم التمادح والتزكية[3] ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : - إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء ، يلقى الرجل ليس يملك له نفعاً ولا ضراً فيقول : والله إنك لذيت وذيت فلعله أن يرجع ولم يحظ بحاجته بشيء وقد أسخط الله عليه[4] ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ﴾[النساء:٤٩] .

قال في فتح القدير -بعد ذكره اتفاق المفسرين على أن المراد بالآية اليهود ، واختلافهم في المعنى الذي زكوا به أنفسهم : واللفظ يتناول كل من

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ١٣٠/٥ .

(٢) انظر : تيسير الكريم المنان ، للسعدي ، ص١٤٧.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير١/٥٢٤.

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٨/٥.

زكى نفسه بحق أو بباطل من اليهود وغيرهم ، ويدخل هذا في التلقب بالألقاب المتضمنة للتزكية ، كمحيي الدين ، وعز الدين ونحوهما ، ومرد التزكية إلى الله تعالى ؛ فهو العالم بمن يستحقها من عباده ومن لا يستحقها ، فليدع العباد تزكية أنفسهم ويفوضوا أمر ذلك إليه سبحانه ، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس وطلب العلو والترفع والتفاخر[1] .

٢ - ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[آل عمران:١٨٨] .

وقد اختلف أهل التفسير في مَن المراد بهذه الآية ، فذكر بعضهم أنهم قوم من أهل النفاق كانوا يقعدون خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا العدو ، فإذا انصرف اعتذروا إليه وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

وقال آخرون : هم قوم من أحبار اليهود كانوا يفرحون بإضلالهم الناس ونسبة الناس إياهم إلى العلم .

وقال آخرون : هم قوم من اليهود فرحوا باجتماعهم على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحبون أن يقال لهم أهل صلاة وصيام .

وقال آخرون : هم من بدل كتاب الله وفرحوا بذلك ويحبون أن يحمدهم الناس على ذلك .

وقيل : غير ذلك[2] .

قال في فتح القدير : والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملاً بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل

---

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ، ١/٤٧٧.

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ٤/٢٠٥-٢٠٨.

وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل ، فلا تحسبنه ناج من عذاب الله[1] .

٣ - وقال الله تعالى في معرض النهي عن تزكية النفس ومدحها وتبرئتها من الآثام والثناء عليها[2] : ﴿ **فَلاَ تُزَكّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتّقَى** ﴾[النجم:٣٢] .

٤ - وجاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدح فقال : « **أهلكتم- أو قطعتم ظهر الرجل** » وفي رواية : « ويلك ، قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك » مراراً ، ثم قال : « **من كان منكم مادحاً أخاه لامحالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه** » ، وفي رواية : أنه عندما ذُكر عنده رجل ، فقال رجل : ما من رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه في كذا وكذا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **ويحك ، قطعت عنق صاحبك** . . .الحديث »[3] .

« **يطريه** » : من الإطراء وهو المبالغة ومجاوزة الحد في المدح[4] ، « **أهلكتم- أو قطعتم ظهر الرجل . . . قطعت عنق صاحبك** » ، والمراد بكل منها الهلاك لأنه من يقطع عنقه يقتل ومن يقطع ظهره يهلك[5] .

---

(١) انظر : فتح القدير ، ٤٠٩/١ .

(٢) انظر : فتح القدير ، ١١٣/٥.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، في كتاب « الشهادات » باب « إذا زكى رجلٌ رجلاً كفاه » ٣٥١/٤ .

وفي كتاب « الشهادات » باب « مايكره من التمادح » ٣٤١/٨ ؛ وباب « ما جاء في قول الرجل ويلك » ٣٧١/٨ ؛ وعن أبي موسى رضي الله عنه في كتاب « الشهادات » باب « مايكره من الإطناب في المدح وليقل مايعلم » ٣٥١/٤ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « مايكره من التمادح » ٣٤٠/٨ .

وأخرجه مسلم عنهما في كتاب « الزهد والرقائق » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط ، وخيف من فتنة الممدوح » ٢٢٩٦/٤ .

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٧/١٨ ؛ فتح الباري ، ٥٨٤/١٠.

(٥) انظر : فتح الباري ٥٨٤/١٠.

« ويحك » كلمة رحمة وتوجع ، « ويلك » كلمة عذاب .

« لامحالة » لاحيلة له في ترك ذلك ، بمعنى : لابد ، ويحتمل أن يكون من الحول أي القوة والحركة ، « حسيبه » كافيه ، ويحتمل أن يكون من الحساب أي محاسبُهُ على عمله الذي يعلم حقيقته .« لاأزكي » أي لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميره لأنذلك مغيب عني ، وجيء بذلك بلفظ الخبر ومعناه : لا تزكوا أحداً على الله لأنه أعلم به منكم[1] .

وفي الحديث الصحيح أيضاً : « **أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحثي في وجوه المداحين التراب** » .

وفي رواية : « **إِذَا رَأَيْتُم المَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِم التُّرَابُ** »[2] .

وفي الحديث الآخر الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « **لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ** »[3] .

ينهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يمدحوه بالباطل ، كما أفرطت النصارى وبالغت في مدح عيسى ابن مريم -عليه السلام- فقالوا : ابن الله ، بل زعموا أنه إله[4] .

فهذه النصوص الشرعية جاءت في معرض ذم المدح والنهي عنه ، وقد جاءت نصوص أخرى تفيد أنه لا يذم مطلقاً بل منه ما يمدح .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مُدح في الشعر والخطب والمخاطبة فلم يحث في وجه مادحه تراباً .

---

(١) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب « الزهد والرقائق » باب « النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة الممدوح » ٤/٢٢٩٧ .

(٣) أخرجه البخاري عن عمر -رضي الله عنه - في كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « قول الله : ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾(مريم : ١٦) » ٤/٦٣٢ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما -في كتاب « الحدود »باب« رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت » ٥/٥٧٨.

(٤) انظر : فتح الباري ، ٦/٦٠٦.

وهو صلى الله عليه وسلم قد مدح كثيراً من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، كقوله لأبي بكر رضي الله عنه حين ذكر في الإزار ما ذكر : « **إنك لست ممن يفعل ذلك خيلاء** »[1] .

وغير ذلك مما مدح به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه[2] ، وهو من جملة المدح لكنه لما كان صدقاً محضاً وكان الممدوح يؤمن معه الإعجاب والكبر مُدِح به .

قال النووي : قال العلماء : وطريق الجمع بين نصوص النهي ونصوص المدح أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف ، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لايخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحباً والله أعلم[3] .

وذكر الغزالي أن في المدح ست آفات ، أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح ، فأما التي في المادح : فالأولى : أنه قد يفرط فيه فينتهي به إلى الكذب .

والثانية : انه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لكل ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً .

والثالثة : أنه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل إلى الاطلاع عليه .

والرابعة : انه قد يُفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق .

وأما التي في الممدوح ، فالأولى : انه قد يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما

---

(١) أخرجه البخاري عن عمر رضي الله عنهما في كتاب « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » ، باب « قول النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذاً خليلاً » ٦٥/٥ ؛ وفي كتاب : « اللباس » باب « من جر إزاره من غير خيلاء » ٢٦٤/٧ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « من أثنى على أخيه بما يعلم » ٣٤١/٨ .

(٢) وهو كثير ، انظر : ما ذكر في مناقب الصحابة وفضائلهم على سبيل المثال ، انظر : كتاب : « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » في صحيح البخاري ٦٠/٥-٩٨ ؛ وكتاب « فضائل الصحابة » في صحيح مسلم ١٨٥٤/٤-١٩٧٣ .

(٣) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٢٦/١٨.

مهلكـان .

والثانيـة : انـه إذا أثنى عليه بـالخير فـرح بـه وفـتر ورضـي عـن نفسـه ، ومـن أعجـب بنفسـه قـل تشـمره ، وإنمـا يتشـمر للعمـل مـن يـرى نفسـه مقصـراً ، فأمـا إذا انطلقت الألسـن بالثنـاء عليـه ظـن أنـه قـد أدرك[1] .

وحـاصل القـول في هـذه المسـألة : إن مـن مـدح بمـا فيـه وأمـن عليـه العجـب والكبر وسـواهما مـن الفتـن فلابـأس ، بـل يسـتحب إذا تحققـت منـه مصلحـة -كمـا ذكر النـووي رحمـه اللـه تعـالى .

وأمـا المـدح بالبـاطل فمنهـي عنـه لأنـه كـذب وزور ونفـاق ، ويدخـل فـي النهي ، المـدح إذا كـان حقـاً لكـن خيـف معه علـى الممـدوح أن يداخلـه عجـب وكـبر أو يَحْـدُث فيه فتور عـن العمـل وتقصير عـن السـعي في الطيبـات والازديـاد من الخيرات اتكـالاً علـى مـا وصـف بـه[2] .

فـائدة :

فـي قـول رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم : « **احثـوا فـي وجـه المداحيـن التراب** » السـابق ذكـره ، للعلمـاء فـي المـراد بهـذا الحديـث خمسـة أقـوال :

الأول : حملـه علـى ظـاهره[3] ، فيحثـى الـتراب فـي وجـوه المداحيـن ، وقـد فعـل الصحـابي راوي الحديـث هـذا[4] ، فجعـل يحثـو الحصبـاء فـي وجـه رجـل مدح عثمـان رضـي اللـه عنـه ، فقـال عثمـان : ماشـأنك؟ فذكـر الحديـث[5] .

---

(١) انظـر : إحيـاء علـوم الديـن ٣/٣١١ ، ٣١٢.

(٢) انظـر : فتـح البـاري ، ١٠/٥٨٥.

(٣) انظـر : فتـح البـاري ، ١٠/٥٨٥ .

(٤) وهـو المقـداد بـن عمـرو بـن ثعلبـة بـن مـالك بـن ربيعـة النهرانـي ، وقيـل : الحضرمـي ، يكنى أبو الأسود ، وقيـل : أبـو عمـرو ، أسـلم قديمـاً وتـزوج ابنـة عـم رسـو اللـه صلـى اللـه عليه وسـلم ضباعـة بنـت الزبيـر بـن عبدالمطلـب ، هـاجر الهجرتيـن وشـهد بـدراً ومـا بعدهـا من المشـاهد ، وكـان أول مـن قـاتل علـى فـرس فـي سـبيل اللـه ، مـات سـنة ثـلاث وثلاثيـن فـي خلافـة عثمـان رضـي اللـه عنهـم أجمعيـن ، وكـان ابـن سـبعين سـنة . انظـر : الإصابـه ، ٦/١٣٣ .

(٥) انظـر : صحيـح مسـلم ، ٤/٢٧٩٧ ، وقـد سـبق قريبـاً .

الثاني : يعني الخيبة والحرمان[1] ، أي خيبوهم فلا تعطوهم شيئاً[2] .

الثالث : قولوا له : بفيك التراب ، إعلاماً له بكراهية قوله ، والعرب تقول ذلك لمن تكره قوله[3] .

الرابع : ذلك يتعلق بالممدوح ، كأن يأخذ تراباً يبذره بين يديه ويتذكر بذلك مصيره إليه فلا يطغى بالمدح الذي سمعه[4] ، ويتواضع ولا يعجب ، قال النووي : وهذا ضعيف[5] .

الخامس : المراد إعطاء المادح ما طلب بقصد قطع لسانه عن عرضه بما يرضيه من الإعطاء[6] .

وعلى ضوء ماسبق فإن المدح سبب يفضي إلى العجب والكبر ، وبخاصة إذا كان مدحاً بالباطل ، فحينئذ يشعر الممدوح بقيمة وقدر أُعطيه ، ولم يك جديراً به وأهلاً له فيتكبر ويتعاظم ليبقى له ذلك .

فالظالم والفاسق حين يمدحان زوراً ونفاقاً ، أو جبناً وخوراً يشعران بالاستعلاء ، فيزدادون عتواً وطغياناً ، والسبب أن المادحين قد زينوا لهم أفعالهم الباطلة الفاسدة وألبسوها لباس الحق والصلاح وأنزلوهم مقاماً هم أحقر من أن يبلغوه ، فلا عجب حينها أن يتعظموا وينتفشوا .

السبب الاجتماعي الرابع من أسباب الكبر : التهمة لمجرد الظن .

قد يظلم المجتمع شخصاً فيتهمه بالكبر وهو منه براء ، وذلك لأن أعين الناس في المجتمع تظل تتلصص وترقب الآخرين لعلها تظفر بهنة أو تلحظ زلة ، وهنا قد يبدو على شخص ما بعض المظاهر التي تظهر على المتكبرين ، فيرمى ويتهم بأنه منهم وهو ليس كذلك .

---

(١) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٥ .
(٢) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨/١٢٨ .
(٣) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٥ .
(٤) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٥ .
(٥) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨/١٢٨ .
(٦) انظر : فتح الباري ، ١٠/٥٨٦ .

فمثلاً قد يطيل ثيابه ويلبسها وذلك من مظاهر الكبر وقد ورد النهي عنه والوعيد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي في الفصل الرابع بإذن الله ، ولكنه بفعله هذا ما قصد الخيلاء ، ولعل له عذراً فيه ، فلعله جاهل بالنهي ، أو لعله غير متعمد للفعل ، أو لعل له عذراً آخر كمن يتأذى من برد أو سواه ، ولكن الناس لم يطلعوا على عذره فرموه لمجرد الظن والتخمين .

ولهذا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامه** » .

قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله إن أحد شقي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « **لست ممن يصنعه خيلاء** »[1] .

ففي هذا الحديث إنه لا حرج على من جر إزاره بغير قصده مطلقاً ، وفيه اعتبار أحوال الأشخاص في الأحكام باختلافها[2] .

وعلى هذا فليس كل من انجر ثوبه عُد متكبراً ، ولكن من انجر ثوبه بغير اختياره فعليه أن يتعاهده بالإصلاح ، ولا يتمادى في إسباله كما كان الصديق رضي الله عنه يفعل ذلك .

ومثل آخر لمن يتهم بالكبر وهو بريء منه فقد يحب إنسان أن يكون مظهره حسناً وملبسه حسناً ومسكنه حسناً ومركبه حسناً فيوصم جهلاً من قبل مجتمعه بالكبر ، وهذا من الجهل ، فإن للإنسان أن يتمتع بطيبات ما أحل الله له غير مسرف مختال ، يشهد لهذا الحديث الصحيح الذي فيه : « **لايَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** » قال رجل : إن الرجل يحب أن

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه في كتاب : « اللباس » ، باب : « من جر إزاره من غير خيلاء » ٢٦٥/٧ ؛ وفي كتاب : « فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم » باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذاً خليلاً » ٦٥/٥ ؛ وفي كتاب « الأدب » باب « من أثنى على أخيه بما يعلم » ٣٤١/٨ .

وأخرجه مسلم ، لكن ليس فيه ، قال أبو بكر . . . . . في كتاب « اللباس والزينة » باب « تحريم جر الثوب خيلاء » ١٦٥١/٣ ، ١٦٥٣ .

(٢) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٣١٣/١٠ .

يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال : « **إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[1] .

فالذي يتبادر إلى الذهن والله أعلم أن هناك من يعد ما ذكره السائل من باب الكبر فأراد أن يستوضح الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفعله أو يتركه عن بينة فبين له رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الكبر وأن ما ذكره لا يدخل فيه إنما هو من باب الجمال ، والله عز وجل جميل لا يدرَك جماله يحب الجمال من عباده .

ومثال ثالث فيمن يتهم ويظن به الكبر وهو ليس كذلك فقد يوجد شخص في طبعه ميل إلى الوحدة والانفراد وعدم المخالطة وطبائع الناس التي فطرهم الله تعالى عليها تختلف ، فينظر إليه على أنه متكبر ، وما به ذلك .

ويظل هذا وذاك يلحظ في أعين الناس ، وربما سمع في أقوالهم اتهاماً له بذلك الخلق الذي هو منه بريء ، فلربما وجدها الشيطان فرصة سانحة للدخول عليه من هذا الباب ، فيزين له الكبر ويدخله فيه كردة فعل غير حميدة لاتهام الناس له به ، فيكون المجتمع بظنه السيء قد ساهم وتسبب في إيجاد متكبر ينظم لقافلة المتكبرين السائرة في درب الهالكين . والله أعلم .

فعلى المجتمع أن يتريث قبل أن يصدر الأحكام جزافاً ، وأن يتحقق قبل أن يتهم ، وأن يعطي الفرصة للشخص في الدفاع عن نفسه وإبداء عذره ، فإن كان جاهلاً علم ، فإن علم فأصر فهو متكبر ، وإن كان معذوراً فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فإن زال عذره فتمادى ونصح فلم يعد إلى الحق فهو متكبر .

فالإصرار على الباطل والتمادي فيه وعدم الرجوع إلى الحق هي صفات للمتكبر حقاً .

السبب الاجتماعي الخامس من أسباب الكبر : عدم الأخذ على يد السفيه .

يساهم المجتمع مساهمة كبيرة في ظهور المتكبر ، وذلك حين يقف موقف السلب ممن بدت عليه مخايل التعظم والطغيان ، فلا يأخذ على يده

(١) أخرجه مسلم في كتاب « الإيمان » . باب « تحريم الكبر وبيانه » ١/ ٩٣ ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ليكبح جماح رغبته ، فيتقوم خلقه ويتهذب سلوكه ، بل يتركه يتمادى في استعلائه وتعظمه الذي يكون المجتمع أول من يتجرع علقمه ، ويعظم الأمر إذا تملك ذلك المتعالي شيئاً من أزمّة الأمور في مجتمعه فلا تسل حينها عن بطره وشره .

فلا بد أن يكون للمجتمع دوره في الأخذ على يد السفيه ، والمتكبر أحد السفهاء ، فالسفينة واحدة وخُرم من جانب منها يتسبب في غرقها كلها .

وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي امتدح الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾[آل عمران:١١٠] ، إلا من باب الأخذ على أيدي السفهاء ليصلح المجتمع ويسلم من سوءهم وفسادهم .

وقد لُعن بنو إسرائيل بسبب إخلالهم بهذا الأمر العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيَ إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾[المائدة:٧٨ ، ٧٩] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حذر أمته من أن يفعلوا فعل بني إسرائيل ، فلا يأخذوا على يد السفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « **لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، قال : فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئاً فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم[1] على الحق أطراً** »[2].

---

(١) أي تعطفوهم عليه . انظر : النهاية في غريب الحديث ، ٥٣/١ .

(٢) أخرجه الترمذي ، وهو لفظه في كتاب : « تفسير القرآن » باب : « من سورة المائدة » وقال : هذا حديث حسن غريب ، وقد روي عن محمد بن مسلم بن أبي الوضاح عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبدالله -يعني ابن مسعود- نحوه ، وبعضهم يقول : عن أبي عبيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ، ٢٢٥/٥ ، ورواه بنحوه هذا اللفظ ، ٢٥٣/٥ .

وأخرجه أبو داود في كتاب « الملاحم » باب « الأمر والنهي » ١٢٠/٤ ، ١٢١ .

<=

ثالثاً : الأسباب السلوكية .

وأعني بها ما يذم من الصفات والأخلاق وهي ستة أسباب :

١ - الجهل .

٢ - العجب .

٣ -الحقد .

٤ - الحسد .

٥ - الرياء[1] .

٦ - الهوى .

فأما الجهل والعجب والهوى فأسباب رئيسية أصلية ملازمة لكل صور التكبر لاتنفك عنها ، فلا يكون متكبرٌ دون أن تكون هي مثار تكبره ، وموقد اشتعاله .

وأما الحقد والحسد والرياء ، فأسباب لبعض صور التكبر لا لكلها ، فقد يكون تكبر ولايكون سببه أحدها ، بل الغالب والله أعلم حصول العكس ، وهو كون الكبر سبب يفضي إلى هذه الأخلاق السيئة ، وهي من آثاره وثماره القبيحة ، ولايثمر الكبر إلا كل قبيح ، وسأذكر هذه الأسباب بشيء من التفصيل والبيان بإذن الله تعالى :

١ - الجهل :

وهو نقيض العلم ، وهو دركات وظلمات بعضها فوق بعض[2] ، وهو أعظم الأسباب ، بل هو أصلها وأسها ، فهو الباعث لكل ذنب ، والأصل لكل قبح وسوء ، ولذلك لما كان التكبر من أعظم الذنوب وأقبح القبائح وأسوأ السيئات كان الجهل هو باعثه وأصله فلا يتكبر إلا جاهل ، ومن هنا قال السلف الصالح عند قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ**

---

(١) ذكر الأسباب الخمسة الأولى الإمامان المحاسبي والغزالي . انظر : الرعاية لحقوق الله ، ٣٧٧ ؛ إحياء علوم الدين ، ٤/١٤٦ ، ١٥٦ ، وقد أضفت الهوى كسبب سادس حسب ما بدا لي من خلال النصوص الشرعية والله أعلم .

(٢) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق ، ص١٦٩ .

عَلِيماً حَكِيماً ﴾[النساء:١٧] .

قالوا : إن كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة عمداً كان أوغيره ؛ وقالوا : إن العبد مادام يعصي الله تعالى فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته ، وإن من جهالته عمل السوء ؛ وقيل : كل من عمل بمعصية فهو جاهل حيث عمل بها[1] .

أقول : والجهل بهذه الصورة قد يلازم المتكبر حتى يُرديه في سقر خالداً مخلداً فيها ، وذلك شأن المتكبرين عن الإيمان بالله تعالى وبما أمر بالإيمان به الذين يموتون على ذلك كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** ﴾[النساء:١٨] .

وقد يكون الجهل حالة تطرأ على العبد فيرتكب المعصية ، ويأتي السوء ثم يعود إليه رشده فينزع عن فعله ويتوب إلى ربه ؛ وهذا شأن المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[آل عمران:١٣٥] .

فهؤلاء وقد اعتراهم الجهل فظلموا أنفسهم بفعل السوء ثم أفاقوا من غفلتهم وزالت غشاوة الجهل عنهم فتذكروا أن لهم رباً يأخذ بالذنب وهو شديد العقاب ، ويقبل التوبة وهو الغفور التواب ، فأقبلوا عليه وأنابوا إليه نادمين مستغفرين كما قال الله تعالى : (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) أي نزعوا عن الذنب ، ولم يصروا عليه بعد أن زالت عنهم غشاوة الجهالة ، ولعل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب بها وهو مؤمن...** »[2] ، هو من هذا القبيل ، فالزنى والسرقة وشرب الخمر

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٢٩٨/٤ ، ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب « المظالم» باب « النهبى بغير إذن صاحبه » ٢٧٩/٣ ، وفي كتاب « الأشربة » باب « قول الله تعالى : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجز من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم =

ذنوب لايأتيها العبد إلا حين تعتريه جهالة فيغيب عنه نور الإيمان ، ولوحضره رشده وإيمانه ما فعل .

وكذلك كل ذنب لايأتيه العبد ولايقع فيه إلا حين يحجب دخان الجهل نور المعرفة والإيمان عن بصيرته ، لكن المؤمن يذكر ربه فيعود إليه فيهديه الصراط المستقيم ، وغيره يبقى في جهالته حتى ترديه في سواء الجحيم .

ومما يستأنس بالاستدلال به على جهالة المتكبرين قول الحق جل وعلا في وصف عباده المؤمنين المكرمين : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً** ﴾[الفرقان:٦٣] .

فقد وصفهم الله تعالى بالتواضع والسكينة التي تجعلهم لا يقابلون أهل الجهل والسفه والحمق بمثله ، بل يقابلون جهالتهم تلك بالقول السديد والفعل الرشيد .

فهذا منطوق الآية الكريمة وهو ينفي الجهل عن المتواضعين ، فمفهومها يثبته للمتكبرين .

وجهل المتكبرين حقيقة دل عليها كتاب الله عزوجل ، وله صور :

الصورة الأولى : الجهل بالله تبارك وتعالى :

وهذه هي أم الجهالات ورأسها ، وإليها تعود سائرها فهي منبع الشر والسوء كله ، فما أشرك بالله ولاكفر به ولاكذب رسله واستكبر عن آياته ولاوصفه بما هو منزه عنه ، ولانسب إليه مالايليق بجلاله وقُدسيته ولااجترأ على معصيته إلا جاهل به سبحانه وتعالى ، جاهل بما له من صفات الكمال والجمال والقدرة والعزة والكبرياء والجلال ، أما من عرف الله تعالى حق المعرفة فإنه لا شك يجله ويعظمه ويقدره حق قدره مذعناً له خاضعاً مستكيناً

=

تفلحون﴾ » (المائده:٩٠) ؛ وفي كتاب « الحدود » باب « ما يحذر من الحدود » ٥٦٦/٨ ؛ وباب « إثم الزناة » ٥٨/٨ ؛ وهو عنده في هذا الباب عن ابن عباس رضي الله عنهما ٥٧٩/٨ ، ومن قبل في باب « السارق حين يسرق في نفس الكتاب » ٥٧١/٨ .

وأخرجه مسلم ، في كتاب « الإيمان » ، باب « بيان نقصان الإيمان بالمعاصي » ٧٧/٧٦/١ ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

متذللاً خاشعاً ، عن نهيه منتهياً ، ولأمره طائعاً ، ولحدوده حافظاً ، ولحقوقه مؤدياً ، يرجوا رحمته الواسعة ، ويخشى عذابه الأليم .

إن العبد لو عرف تفرد الله جل جلاله بالعزة والعظمة والكبرياء لأدرك أنه إن تكبر فإنما هو معتد على حق ربه ومولاه جل وعلا الذي لا يشاركه فيه سواه منازع له سبحانه جل شأنه ، صفته التي لاتليق إلا به ، فهو بذلك يعرض نفسه ، وهو العاجز الذي لايملك من أمره شيئاً لسخط مولاه القدير المتكبر الجبار الذي لايرد بأسه ، والذي تقف السماوات والأرض ومن فيهن في عجز تام أمام سطوته وقدرته وجبروته سبحانه وتعالى .

وإذاً فلن يتكبر عبدٌ عرف أن الكبرياء لله وحده ، وأن من نازعه كبريائه استحق مقته وعذابه ، وهو القادر على إنفاذه ، لايمنعه منه مانع ولا يرده عنه راد .

وشواهد جهل المتكبرين بالله تعالى نراها في كتاب الله الكريم بارزة جلية ، نراها في محآجة نمرود الكافر العاتي للخليل إبراهيم عليه السلام في ربه تبارك وتعالى وادعائه لنفسه الحقيرة الخاسئة ما ليس لها ، كما جاء بيان ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[البقرة:٢٥٨] .

ونراها في طغيان فرعون الذي من جهله بالله جل جلاله ، زعم أنه هو الإله والرب ، وقال لموسى عليه السلام وقد جاءه رسولاً من رب العالمين مابينه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[الشعراء:٢٣] ، وبقوله : ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى** ﴾[طه:٤٩] ، ونراها في تعنت الملأ المستكبرين من أقوام الرسل من لدن نوح إلى النبي صلى الله عليه وسلم الخاتم محمد عليه وعلى جميع المرسلين قبله صلوات الله وسلامه وبركاته ، وصدهم عن سبيل الله ، وعبادتهم غيره من الملآئكة والبشر بل وحتى من الكواكب والشجر والحجر والحيوان ، ووصفهم لله جل وعلا بما لا يليق به ، ونسبتهم إليه ما هو منزه عنه ، وطلبهم الآيات ثم جحدها ، واستعجالهم العذب . . . وغير ذلك مما يدل على سفههم وحمقهم وجهلهم

بالله جل جلاله ، ولقد بين الله تعالى شأن هؤلاء المستكبرين ووصفهم بالجهل في آيات من كتابه الكريم ، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَآ آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيّنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[البقره:١١٨] .

وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مّن رّبّهِ قُلْ إِنّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزّلٍ آيَةً وَلَـَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام:٣٧] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنّنَا نَزّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلّ شَيْءٍ قُبُلاً مّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوَاْ إِلاّ أَن يَشَآءَ اللّهُ وَلَـَكِنّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعام:١١١] .

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام يخاطب قومه المستكبري الذين احتقروا المؤمنين واستصغروهم وطلبوا منه أن يطردهم : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الّذِينَ آمَنُوَاْ إِنّهُمْ مّلاَقُو رَبّهِمْ وَلَـَكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾[هود:٢٩] .

وقوله سبحانه على لسان هود عليه السلام يخاطب قومه : ﴿ قَالَ إِنّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللّهِ وَأُبَلّغُكُمْ مّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـَكِنّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾[الأحقاف:٢٣] .

فهذه الآيات الكريمات تبين أن المستكبرين يجهلون عظمة الله تبارك وتعالى ، ولذلك يصرون على تعنتهم ويظلون في طغيانهم يعمهون .

ومما يدل كذلك على جهل المستكبرين بالله تبارك تعالى قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مّن شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٩١] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّمَاوَات مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:٦٧] .

فلو قدروا الله حق قدره لما أنكروا إرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، ولما أشركوا به تعالى عما يشركون وعما يقولون علواً كبيرا .

الصورة الثانية : الجهل بالنفس .

الضعف والعجز والنقص والذل والافتقار والاحتياج صفات ملازمة

للانسان منذ وجوده بعد أن لم يكن شيئاً- وحتى يستقر في دار قراره في الدار الآخرة ؛ فمن عرف هذه الحقيقة عن نفسه ألزمها السكينة والخشوع ، المنزلة التي هي أهلها ، وألبسها رداء التواضع والخضوع ، الرداء اللائق بها والمناسب لها ؛ ولو تطلعت حيناً ما - والنفس جموحة وأمارة بالسوء- إلى لبس رداء الكبرياءوالعظمة ، فإنه يأبى عليها ذلك ، يأبى عليها أن تلبس ماهو لله الكبير المتعال ، وليس لغيره كائناً من كان ، لأنه سبحانه وتعالى هو الخالق ، والمخلوق غيره ، وهو الرب ، والعبد سواه ، وهو الملك الحق ، والمملوك غيره ، وهو الغني الحميد ، والفقير المحتاج غيره ، وهو الحي القيوم والميت سواه ، وهو القوي القادر والضعيف العاجز سواه ، وهو الباقي ولا بقاء لغيره ، وهو العزيز العظيم والذلة والصغار من شأن خلقه ، سبحانه له المحامد كلها ، منزه عن النقائص كلها تبارك وتعالى وتقدس وتمجد ، له الكبرياء في السماوات والأرض ، ليس لسواه منها مثقال ذرة ، بل أصغر من ذلك .

هذا حال من عرف ربه تبارك وتعالى وعرف نفسه حق المعرفة ، أما من جهل معرفة ربه جل وعلا وعمي عن حقيقة نفسه فإنه يخالها شيئاً كبيراً عظيماً تستحق مارامته وجنحت إليه من التكبر والتعظم ، فإذا به ينازع مولاه الجليل القدير رداءه ، ويجاذبه إزاره ، ويعتدي على صفته المتفرد بها جل جلاله ، ولعمرو الله من المنازع؟ ومن المنازع؟ عبدٌ ينازع رباً ، ومخلوق ينازع خالقاً ، وضعيف عاجز ذليل فقير ينازع قوياً جباراً عزيزاً مجيداً غنياً حميداً ، وميتٌ ينازع حياً قيوماً لا تأخذه سنة ولا نوم ، أفليس هذا هو عين الجهل؟

ويصاحب جهل الإنسان بنفسه جهله بالكون من حوله ، فإنما هو كائن صغير لايذكر في كون هائل عظيم فيه مما خلق الله تعالى ما يكون هو بجواره لاشيء أبداً إذا نظر إليه مجرداً من تكريم الله له بالعقل والإيمان ، فأي شيءٍ هو بجوار السماوات والأرض؟ بل أي شيء هو بجوار شيء فيهما كالجبل مثلاً؟ بل كصخرة من جبل؟ أتراه لو لم يكرمه الله تبارك وتعالى بالعقل ، ويسخر له الكون ويذلله ، أتراه يقوى على محاربة أسد أو فيل أوجمل . . . .مثلاً؟ .

أتراه يصمد أمام ريح عاتية أو سيل جارف؟ وقس على ما سبق قيمة

الإنسان بجوار كثير من مخلوقات الله تعالى ، فستجد أن النتيجة دائما هي أن الإنسان بلا عقل ولا إيمان وتوفيق ورعاية من الواحد المنان لا شيء يذكر أبداً .

وجهل المتكبر بنفسه وبالكون من حوله حقيقة دل عليها قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾[غافر:٥٦-٥٨] .

ففي قوله تعالى : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ ، بيان لجهل المتكبرين الذين دفعهم كبرهم إلى المجادلة في آيات الله بغير حجة ولا برهان بكون خلق السماوات والأرض أكبر وأعظم من خلقهم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ** ﴾ ، فالأعمى هو من عمي عن هذه الحقيقة ، حقيقة ضآلته أمام خلق السماوات والأرض ، فتعظم وتكبر يجادل في آيات الله ، والبصير هو من رأى هذه الحقيقة فأذعن وخشع واستكان لله الواحد الديان .

ومن روائع صاحب الظلال قوله عند تفسير هذه الآيات : « إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيانٍ كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لا من ذاته ، ولكن باتصاله بمصدر القوة الأول ، من الله ؛ فيقطع اتصاله هذا ثم يروح ينتفخ ويورِّم ويتشامخ ويتعالى ، يحيك في صدره الكبر ، يستمده من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر ، ثم سلط على الأنسان فأتاه من قبله »(١) .

ثم يقول : « والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر ، وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه ؛ والكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته ، ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته ، وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به ، إنما ذلك هو الكبر وحده ، ولو أدرك

---

(١) في ظلال القرآن ، ٣٠٨٩/٥.

الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود ، ولو عرف دوره فأتقنه ، ولم يحاول أن يتجاوزه ، ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود وفق تقديره الذي لا يعلمه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود . . . لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ولتطامن كذلك وتواضع وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله ، وفي استسلام لله وإسلام »أهـ[1] .

ثم يقول : « ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير ، وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعوراً به حين يعلمون حقيقته ، وحين يقيس الإنسان نفسه بالنسبة إلى السماوات والأرض يطامن من كبريائه ويتصاغر حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة ، إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه ، والذي من أجله كرَّمه فهو وحده الذي يمسك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم ، فأين الإنسان من هذا الكون الهائل؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير؟ »[2] .

ثم يقول عند قوله تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير . . .) « فالبصير يعلم ويعرف قدره وقيمته ، ولايتطاول ولاينتفخ ولايتكبر لأنه يرى ويبصر ، والأعمى لايرى ولايعرف مكانه ، ولانسبته إلى ما حوله ، فيخطئ تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به ، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير به ، وكذلك لايستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء ، إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير ، وهذا عميَ وجهل فهو يسيء . . يسيء كل شيء ، يسيء إلى نفسه ، ويسيء إلى الناس ، ويسيء قبل كل شيء إدراك قيمته وقيمة ما حوله ، ويخطئ في قياس نفسه إلى ما حوله ، فهو أعمى والعمى عمى القلوب »[3] .

وآية أخرى من كتاب الله الكريم ، تشير إلى جهل المتكبر بنفسه

---

(١) في ظلال القرآن ، ٥/٣٠٨٩ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٥/٣٠٩٠ .

(٣) في ظلال القرآن ، ٥/٣٠٩٠-٣٠٩١ .

وبالكون من حوله بأسلوب فيه تهكم بالمتكبرين ، وهي قوله تعالى في معرض النهي عن المشي في الأرض على سبيل التكبر والخيلاء : ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾[الإسراء:٣٧] .

وكأن المتكبر حين يمشي في الأرض لا يرى إلا نفسه فيخالها أعظم موجود فيتبختر ويتشامخ ، فتأتي هذه الآية الكريمة لتذكره بضعفه وعجزه ، وتوقفه على حقيقة قدر نفسه ، فإنه مهما ضرب الأرض بعقبيه اختيالاً ، ومهما تطاول فلن يقدر على خرقها أو مطاولة جبالها ، فهو أعجز وأضعف من أن يفعل ذلك ، ومخلوق ليس أقوى ولا أعلى من جماد ، جدير به أن يتواضع ويستكين ولا تغره وتخدعه نفسه ، فيبغي لها منزلة هي أحقر من أن تبلغها .

فإذاً : إذا جهل الإنسان ضعف نفسه وعجزها وضآلتها وجهل آيات ربه في الكون جمح إلى التكبر والخيلاء إظهاراً لعظمة يظنها ويتخيلها ، ولو تبصر لوقف عند مقام العبودية لله رب العالمين الذي يقتضي منه التواضع والتذلل والخشية واللين .

الصورة الثالثة : الجهل بحقيقة ما يتكبر به :

تعرفنا في المبحث السابق على الأمور التي يستعظم الأنسان نفسه لأجلها فيتكبر ويستعلي ، وهي المعتقد والعلم والعمل والمال والجاه والنسب والقوة والجمال . . . ؛ ومقصودي هنا أن أشير إلى جهل المتكبر بحقائق هذه الأمور جهلاً يجعله ينظر إليها على أنها هي القيم التي تعلو به وترفع قدره وشأنه ، والحقيقة أنها ما خلا المعتقد والعلم والعمل تبقى كمالات وقيم دنيوية لا ينبغي أن يقاس الإنسان بقدر حظه منها ، ولا أن تكون هي ميزان رفعته وكرامته أو صَغاره ومهانته ، لأنها ليست منه ولا إليه إضافة إلى أنها متاع زائل ولهو باطل .

والأمر كذلك عند الله جل جلاله وعند عباده المهتدين فالله جل جلاله لم يجعل هذه الأمور ميزاناً يتفاضل بها عباده ، وعلى أساسها يكرمون أو يهونون ، لأنها من متاع الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا برمتها لا تزن عنده سبحانه وتعالى جناح بعوضه[1]؛ بل جعل سبحانه وتعالى التقوى هي الميزان

---

(١) أخرج الترمذي في كتاب « الزهد » باب « ماجاء في هوان الدنيا على الله عز وجل »
<=

والقيمة الأسمى ، فذو التقى عزيز مكرم وإن كان لايلوي على شيء من متاع الدنيا ولهوها ، وغيره مهان مذل وإن كان ذا حظ وافر منه ، هذه القيمة الجليلة هي الميزان الرباني الرفيع الذي يتسامى إليه وبه يتفاضل أولو الألباب والبصائر من عباد الله تعالى ، فلايقيمون للدنيا وزخرفها قيمة ، ولايقيمون العباد بما لهم منها بل بما يظهر لهم منهم من تقوى الجليل العظيم سبحانه وتعالى .

أما أصحاب الجهالات المختوم على قلوبهم المطموسة بصائرهم ، فإن الدنيا هي ميزانهم للرفعة والعزة والسمو ، فمن كان ذا حظ منها عز وتعزز ، ومن قل حظه فيها استذل واستصغر ، ولهذا فإننا نجد فيما قصه القرآن الكريم من قصص الرسل عليهم صلوات الله وسلامه مع أقوامهم أنه ما جنح إلى الاستكبار عن الإيمان بالله تعالى ، والانقياد للرسل -في الغالب- إلا الملأ أصحاب الجاه والمال والنسب ومن تبعهم من الأراذل ، وذلك لجهلهم بقيمة الإيمان الحق ، وتعززهم بالقيم الدنيوية المنحطه ، وليس أدل على تلك الجهالة من أن الرسل عليهم الصلاة والسلام كانت تأتيهم بالنور والهدى والرحمة ، فكانوا ينفرون من ذلك كما وصفهم الحق جل جلاله بقوله : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ** ﴾[المدثر:٤٩-٥١] ، ولتعظمهم كانوا يطلبون أن ينزل على كل واحد منهم كتاباً كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم[1] ، كما قال تعالى بعد الآيات السابقة ، ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً** ﴾[المدثر:٥٢] ، وما كان نفورهم وإعراضهم هذا إلا اغتراراً أو تعززاً بالحياة الدنيا ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ونفروا من أسمى القيم وأحطها ، ﴿ **وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة:١٠٢] .

= : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء** » ثم قال : « وفي الباب عن أبي هريرة قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه » ، انظر : الجامع الصحيح ، ٥٦٠/٤ .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٧٦/٤.

وصور تعزز أولئك الجاهلين المستكبرين بالدنيا وركونهم إلى قيمها في القرآن الكريم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال والإشارة مايلي :

١ - التصريح بتعززهم بالدنيا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[سبأ:٣٤،٣٥] ، ومن ذلك قول قوم عاد ، ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[فصلت:١٥] ، وقول صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره ، ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾[الكهف:٣٤] ، وقول فرعون الملعون ، ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:٥١] .

هكذا يكفر أولئك الجاهلون المستكبرون بما جاء به رسول الله تعالى من الحق والهدى متعززين متفاخرين بأموالهم وأولادهم وقواتهم ، يقولون كما قرأت : (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) ، (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا) ، (من أشد منا قوة؟) ، حاذين حذو المتكبر الأول إبليس الرجيم الذي قال :

﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ ﴾[ص:٧٦] .

٢ - اعتقادهم محبة الله تعالى لهم وكرامتهم عليه ، وزعمهم أن ما هم فيه باقٍ لهم في الدنيا والآخرة لو كان هناك آخرة كما يقول المرسلون .

حين يتفاخر أولئك الجاهلون بما يتفاخرون به من متاع الدنيا ، ويعلنون تعززهم به فإنهم يظنون ، بل يزعمون ويدعون أنهم عند ربهم مكرمون ، والدليل ما بسطه لهم من الدنيا ؛ ثم هم يتخيلون ذلك المتاع باق لن يبيد ، ومخلد لهم في الدنيا ، وإن فنيت الدنيا وكان هناك آخرة حقاً كما يقول المرسلون فسيجدون عند ربهم خيراً مما كان لهم في الدنيا .

هذا ماقاله صاحب الجنتين حين دخل جنته ، ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف:٣٥] ، وهذا قاله قارون حين بغى على قومه : قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾[القصص:٧٨] ، أي : إنما أعطاني الله هذا المال لمحبته ولعلمه فيَّ أني أستحقه(١) ، وهو نفس الذي قاله ويقوله المترفون

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٣/٤١٠ .

أولوا النعمة والحشمة والثروة والرياسة الذين استكبروا عن الإيمان بالله وكذبوا رسله كما بين الجليل سبحانه ذلك بقوله : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾[سبأ:٣٤،٣٥] ، والمعنى ، أنهم يعتقدون أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وانه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة[١] .

يقول صاحب الظلال : « والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائف ، ويغرهم ماهم فيه من ثراء وقوة فيحسبونه مانعهم من عذاب الله ، ويخالون أنه آية الرضا عنهم ، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء »[٢]اهـ .

٣ - استكبارهم عن الانقياد للرسل : ومن أسباب ذلك :

أ- أنهم كانوا يرون ويعتقدون أن الرسول ينبغي أن يكون من الوجهاء أصحاب المال ، وإن لم يكن كذلك قبل أن يرسل فليأيد به إن أرسل ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾[الزخرف:٣١] .

يقول المشركون من العرب : لو كان هذا الذي أتى به محمد قرآناً من عند الله لنزل على رجل من أهل مكة أو الطائف عظيم الجاه ، واسع المال ، مسوَّد في قومه[٣] ، وهم الذين يقولون من معرض الهزء والاستنكار كما قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ مَا لِهَـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** ﴾[الفرقان:٧-٩] ، ومن قبل قال فرعون عن موسى عليه السلام كما بين الحق ذلك في قوله : ﴿ **أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هَـذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ**

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٥٤٨/٣ .

(٢) في ظلال القرآن ، ٢٩١٠/٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٥٥٣/٤.

﴿الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف:٥٢ ، ٥٣] .

إن المستكبرين لجهلهم بالقيم الحقة السامية وتعلقهم وتعززهم بالحياة الدنيا ، لايقبلون ولايصدقون أن يكون الرسول ممن ليس له الجاه والكنوز ، وكذلك لايقبلون أن يملك عليهم من هو كذلك ، ولهذا لم يقبل الملأ من بني إسرائيل من بعثه الله تعالى لهم ملكاً ، وقالوا معترضين : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾[البقرة:٢٤٧] ، يقولون : كيف يكون طالوت ملكاً علينا ، وما هو من بيت الملك فينا ، ولامن أصحاب الثراء الواسع؟ .

ب - خوفهم على ذهاب حظهم من الدنيا :

لقد كانت السيادة للملأ المستكبرين ، فكانوا يستعبدون الناس ويسترذلونهم ، وكانوا يفعلون بجاههم وأموالهم ما يحلوا لهم دون حسيب أو رقيب ، فلما جاءتهم رسل الله تعالى بدينه الحق الذي يساوي بين الجميع ، بل ويرفع المستضعفين المؤمنين فوق الملأ المستكبرين ، والذي يقف في وجه صاحب الجاه والمال أن يستعمله في البغي والظلم وفي النزوات والشهوات المحرمة لما جاءتهم الرسل بهذا الدين الحق خافوا على دنياهم وحظوظهم منها واستكبروا عن الانقياد له ، فهذا فرعون وملؤه لما جاءهم موسى عليه السلام بالحق من عند الله قالوا : ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾[يونس:٧٨] ، خافوا على الرياسة الدنيوية وظنوا أنها ستذهب عنهم إن آمنوا لأنهم إذا أجابو الرسول وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه ، ولم يبق للملك رئاسة تامة ، لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات(١) .

ومن قبل قال أهل مدين لنبي الله شعيب عليه السلام حين نهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن : ﴿قَالُواْ يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[هود:٨٧] ، يقولون : دينك هذا جاء ليصرفنا عن دين آبائنا وليتحكم في أموالنا فيمنعنا من التصرف فيها بالطريقة التي ترضينا ، يريدون كيف ندخل

---

(١) انظر : فتح القدير ، ٢/٤٦٥ .

في دينٍ هـذا شأنه؟ .

٤ - استصغارهم لأتباع الرسل .

وذلك لكونهم من المستضعفين غير أولي الجاه والمال إلا قليلاً منهم ، فكان ذلك من أسباب إعراضهم عن الإيمان أنفه أن يتساووا بهم كما قال قوم نوح عليه السلام : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾[الشعراء:١١١] ، وكما قال مشركوا قريش : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾[الأحقاف:١١] ، وغير ذلك مما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى[1] ، وقد سبقت بعض الإشارات المتفرقة إليه في المباحث السابقه .

تلك هي صور الجهل التي تجنح بالعبد إلى التعظم والتكبر ، وإذا تأملتها وجدت أني ما قصدت بالجهل صورته الظاهرة ، وهي الجهل بالقراءة والكتابة (الأميه) ، وإنما قصدت ما هو أعظم من ذلك وأشد خطراً وهو عمى القلب والبصير عن رؤية وإدراك الحقائق الموصلة إلى سعادة العبد ، فهذا هو الجهل حقاً ولو كان الموسوم به قد برع وحاز قصب السبق في شتى مجالات العلم والثقافة ، وأشارت إليه البنان بذلك ، فإنه لا خير في علم ومعرفة من هذا النوع مالم يتوصل به العبد إلى مراضي ربه تبارك وتعالى .

ولأميٌّ استقر في قلبه إجلال الله تعالى وتوقيره وسكنت نفسه خشيته خير من ملء الأرض من مثل متعالم رام التكبر والخيلاء .

---

(١) في الفصل الخامس من الرساله .

٢ – العجـــب :

وهـو كـالجهل سبب أصيـل مـن أسباب التكـبر ، إذ هـو كمـا عرَّفـه الإمـام الغزالي – عليه رحمـة اللـه- : استعظام النعمـة والركـون إليهـا مـع نسـيان إضافتهـا إلـى المنعـم(١) ، أي أن المعجـب يستعظم مـا هـو فيـه مـن نعمـة العلـم أو العمـل أو المـال أو القـوة . . . فرحـاً بهـا مطمئـاً إليهـا غير خـائف علـى زوالهـا وتبدلهـا ؛ ولايكـون فرحـه هـذا مـن حيـث إنهـا نعمـة وعطيـة وهبـة مـن اللـه جـل جلالـه ، بـل مـن حيـث إنهـا كمـال ورفعـة هـي صفتـه ومنسـوبة بأنهـا لـه ؛ أي باختصـار ، يـرى أنه أهلها وينسى أنها نعمـة مـن ربـه جـل جلالـه ، فيعـتز بهـا ويغـتر .

ومـن هنـا يتبيـن لنـا أن الكبر وليـد العجـب ورضيعـه ، إذ لايتكـبر المتكـبر إلا بنعمة قد أعجبته فاسـتعظمها ناسـباً لهـا إلـى نفسـه ناسـياً أنهـا مـن ربـه تبـارك وتعـالى متخيـلاً أنهـا لـن تفنـى أبـداً ، ويتضـح هـذا مـن خـلال القصـة الـواردة فـي سـورة الكهف ؛ قصة الرجـل الـذي مـنَّ اللـه عليـه فأعطـاه المـال والبنيـن ، فـإذا هـو معجـب بمـا أوتـي مـن نعمـة فـرح بهـا مطمئـن إليهـا ، لا يراهـا محـض امتنـان مـن المنعـم المنـان سبحانه وتعـالى ، بـل يـرى نفسـه أهـلاً لهـا ، ثـم إذا هـو يتفـاخر بهـا ويتعـزز ولا يظـن أنهـا تفنـى أبـداً ، بـل ويكفـر بواهبهـا سـبحانه وتعـالى ، ويجحـد لقـاءه فـي اليـوم الآخـر ، ثـم يفـترض مجـيء ذلـك اليـوم ، فيؤكـد فـي غـرور أنـه مـلاقٍ خـيراً مما هو فيه في دنيـاه .

وهكـذا فقـد أعجـب الرجـل بمالـه وبنيـه فأخرجـه عجبـه ذلـك إلـى التكـبر بـه علـى صاحبـه الفقـير فتفـاخر قـائلاً : ﴿ **أَنَـا أَكْـثَرُ مِنـكَ مَـالاً وَأَعَـزّ نَفَراً** ﴾[الكهف :٣٤] ، وممـا يستدل بـه علـى أن العجـب سـبب للكـبر قـول رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم : « **بينمـا رجـل يتبختر يمشـي فـي بردين قـد أعجبتـه نفسـه فخسـف اللـه بـه اللـه الأرض ، فهـو يتجلجـل فيهـا إلـى يـوم القيامـه** »(٢)،

---

(١) انظـر : إحيـاء علـوم الديـن ، ١٧٨/٤.

(٢) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، والحديث عن أبي هريرة رضي اللـه عنـه .
أخرجه البخـاري فـي كتـاب « اللبـاس » بـاب « مـن جـر ثوبـه مـن الخيـلاء » ٢٦٥/٧
وأخرجـه مسـلم فـي كتـاب « اللبـاس والزينـة » بـاب « تحريـم التبختـر فـي المشـي مـع إعجابـه بثيابـه » ١٦٥٣/٣ ، ١٦٥٤ .

فهذا الرجل قد نظر إلى نفسه حين لبس تلك الثياب فأعجبته فاستعظمها ، فإذا به يمشي في الأرض متطاولاً مختالاً .

ولما كان العجب ينسي العبد نعمة ربه جل جلاله ، وأنه منه وبه سبحانه وتعالى لا بنفسه ، وكان الكبر الذي تعظم شروره وتكثر مفاسده من نتائجه لم يرضه الله تبارك وتعالى من عباده المؤمنين الذين كانوا مع رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين ، وعلمهم درساً عظيماً حين قال قائل منهم وقد أعجبته كثرة المجاهدين : لن نهزم اليوم من قله ، علّمهم سبحانه وتعالى درساً عظيماً ذكرهم به أن النصر والغلبة منه وبه سبحانه وتعالى ، لامن كثرة العدد ، ولابقوة العدة ، فكانت الهزيمة من أول المعركة ، وتفرق الجميع لايلوون على شيء إلارسول الله صلى الله عليه وسلم ونفرٌ معه ، ثم من الله تعالى على جنده فجمعهم بعد فرقة ، وثبتهم بعد زلزلة ، وآمنهم بعد خوف ، ونصرهم بعد هزيمة ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُم مّدْبِرِينَ . ثُمّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىَ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لّمْ تَرَوْهَا وَعذّبَ الّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ** ﴾[التوبه:٢٥،٢٦] .

وخلاصة القول ، أن العجب من أعظم أسباب الكبر إذ يعجب كل ذي نعمة لا يقدر قدرها يعجب بها فيستعظم نفسه لأجلها ، فإذا هو بها متكبر مختال .

ولعله من المفيد أن ننتبه هاهنا إلى مسألة وهي أن كل متكبر معجب وليس كل معجب متكبر ، بمعنى أن المعجب بنعمة ما قد لا يتكبر بها على أحد وإن كان في الغالب أنه يفعل ، إذ ليس بعد نسيان المنعم ونسبة النعمة إلى النفس إلا التعظم والتعزز والفخر والخيلاء ، لكن المتكبر هو في الأصل معجب بما يتكبر به .

٣ - الحقـد :

حقـد عليـه حِقْـداً ، وحَقْـداً وحَقَـداً ، أمسـك عداوتـه فـي قلبـه وتربـص لفرصتها[١] ، فالحاقد هو إنسان في قلبه عداوة لآخر ، لاحد لها ، إلا إفناء المحقود عليه وإلغاؤه من الوجود[٢] ، كما ذكر أن أبا جهل قال وهو في سكرات موته : أخبروا محمداً أني أموت وما أحدٌ أبغض إلي منه[٣] .

إن الحاقد يكن في صدره العداء والبغض للمحقود ، ويدعوه ذلك العداء إلى مقابلته بأخلاق المتكبرين فيحقره وينال منه ويتفاخر عليه ، ولايتواضع له ، ولا يقبل منه نصحاً ويرد الحق ويدفعه إذا جاء من جهته ، ويحرص جهده أن يتقدم عليه . ويرى الإمام الغزالي أن هذا الحقد يحمل على التكبر من غير عجب يسبقه كمن يتكبر على من يرى أنه فوقه أو مثله ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه بغضه ، فلذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع[٤] .

وحاصل القول إن الحقد داء خطير إذا تغلغل في النفس أورث في صاحبه عللاً مفسدة ، ومن ضمنها علة الكبر[٥] .

والحقد والكبر يتبادلان الأدوار ، فتارة يكون الحقد سبباً للكبر -كما مر آنفاً- وأخرى يكون الكبر سبباً في حصول الحقد ، إذ المتكبر المتعالي يغضب إذا خُطِّئ له قول ، أو سُفِّه له رأي ، ويغضب إذا وُجِّه لحق أخطأه ، أو أُرشد إلى صواب جانبه ، يغضب من ذلك لأن نفسه المتعظمة تخيل له أنه فوق أن يخطئ ، وأنه فوق التوجيه والموجه وأعلى من النصح والناصح .

فإذا وجد وحاله هذا من يقول له : أخطأت أو جانبت الحق فارجع إليه أكنَّ له في صدره الحقد والغل والبغضاء ، ولو قدر أن يوصل إليه الأذى لفعل دون إبطاء .

---

(١) انظر : القاموس المحيط ، ٣٥٤ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، حبنكه ، ٦٦٠/١ .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن كثير ، ١٣١/٣ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ، ٦٥٦/٤

(٥) انظر : دوافع إنكار دعوة الحق في العهد المدني ، ١٧٢ .

ويشهد لما ذكرت قيام المستكبرين المذكورة قصصهم في كتاب الله تعالى في وجه المرسلين ومناصبتهم العداء، وإعلانها حرباً لاهوادة فيها ضدهم، لأجل أنهم قالوا لهم كما قال الخليل عليه السلام لقومه: ﴿ **لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مّبِينٍ** ﴾[الأنبياء:٥٤].

سفه المرسلون عليهم صلوات الله وسلامه -أحلام أقوامهم وآبائهم حين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله لاتملك لنفسها ولالهم نفعاً ولاضراً ولاموتاً ولاحياة ولانشورا، وتركوا عبادة الإله الحق رب العالمين سبحانه وتعالى، فغضبوا لذلك وأنفوا، وتغلغل الحقد والغل في أحشائهم فحاربوا دعوة الحق ودعاته بكل وجه قدروا عليه.

وهكذا يفعل الكبر في النفوس، فيغرس فيها كل خلق وسلوك سيء، ولهذا كان حجاباً من الجنة وباباً إلى النار كما ثبت ذلك في النصوص الشرعية، وستأتي في فصل علاج الكبرياء بإذن الله تعالى.

وخلاصة القول: إن الحقد سبب يفضي إلى التكبر، وهو من الآثار السيئة للكبر.

٤ - الحسد :

وهو تمني زوال النعمة عن الغير .

فالحاسد إذا رأى نعمة على غيره من عباد الله تعالى ، تمناها لنفسه ، وتمنى زوالها عن غيره ، وهذا داء خبيث يفتك بالنفوس فتكاً ، وله آثاره السيئة التي يعد التكبر والتعالي من أسوئها ، فإنه كما يرى الغزالي كالحقد ، يؤدي إلى بغض المحسود ويوجب عداءه ، ومن ثم تظهر أخلاق المتكبرين على الحاسد في معاملته للمحسود فتراه يجحد الحق إن جاء به ، ولا يقبل له نصحا ، ويأنف أن يتعلم منه علماً ، معرضاً عنه مظهراً ترفعه عليه . . .وكل ذلك بسبب نار الحسد التي تضطرم في أحشائه وبين ضلوعه ، مع أنه قد يعترف في نفسه بفضيلة وخيرة المحسود ، ولكنه لا يقر بذلك علناً حسداً وبغياً، فذاك الأبعد الرجيم إبليس قد علم إكرام الله تعالى وتشريفه لآدم عليه السلام حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملا ئكته ، ولكنه لم يقر بذلك بل لجأ إلى الجدال بالباطل مدعياً أنه خير من آدم عليه السلام ، ﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[ص:٧٦] ، وماقال إلا زوراً ومنكراً دعاه إليه حسده لآدم عليه السلام على تلك المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أنزله الله تعالى إياها ، فإذا به يتعالى عليه ويزعم أنه خير منه ، وكما حسد إبليس الرجيم آدم عليه السلام فتعظم عليه وغمطه حقه ؛ حسد أهل الكتاب العرب على مبعث محمد خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً فيهم ، وحسدوه صلى الله عليه وسلم على ما حباه الله تعالى من الرسالة والنبوة ، وكرمه وأمته على سائر الأمم فغمطوه حقه كاتمين صفته والبشارة به التي وردت في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم عليهم الصلاة والسلام ، وكفروا به وبما جاء به من البينات من ربه تبارك وتعالى ، فهم الذين يقول الله فيهم : ﴿ **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾[البقرة:٨٩،٩٠] .

يخبر الحق سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم كانوا من قبل أن يبعث محمد

صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه سيبعث لما يجدونه في كتبهم من البشارة به ومن صفته ، فكانوا يطلبون من الله تعالى النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث ، ويخبرون به ، وكانوا يقولون للعرب إذا بلغهم منهم ما يكرهون ، إن نبياً ليبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم[1] .

فلما بعث صلى الله عليه وسلم كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل[2] ، وهم يعرفون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حسداً للعرب أن يكون منهم فتبدلوا الكفر بالإيمان وباعوا أنفسهم به ، فلعنهم الله تعالى وذمهم وغضب عليهم وتوعدهم بالعذاب المهين .

(بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) ، أي بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه ومؤازرته ونصرته .

وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، ولا حسد أعظم من هذا[3] .

(فباءوا) أي رجعوا وصاروا أحقاء[4] (بغضب على غضب) ، قيل : غضب الله عليهم بما ضيعوا من التوراة أولاً[5] ، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبغيهم عليه[6] ، وقيل : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى عليه السلام ، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن[7] ، وقيل : غير ذلك .

ولما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة (وللكافرين عذاب مهين) .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ، ٢١١/١ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ١١٣/١ .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

(٦) فتح القدير ، ١١٣/١ .

(٧) انظر : تفسير ابن كثير ١٢٩/١ .

وكما حسد أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا إلا الكفر به وهم يعرفون أنه رسول الله حقاً ، كذلك حسده زعماء قريش فاستكبروا عن تصديقه واتباعه والإيمان بما جاء به من كتاب ربه جل جلاله حتى قال أجهلهم وأطغاهم أبوجهل -لعنه الله- : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لانؤمن به أبداًولانصدقه[1] .

وإنها لعبارة تنفث حسداً لاحدود له يتوقد في صدر أبي جهل فيحرق كل بذرة خير فيه ويعصف بأي أمل من اتباعه للهدى الذي أرسل الله به نبيه ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم .

لقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً بالحق فعرفوه وعرفوا صدقه فيما جاءهم به ولكنهم حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمره عياناً ولجُّوا فيما هم عليه من الكفر ، يقولون كما حكى عنهم كتاب الله تعالى : ﴿ **لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾[فصلت:٢٦] .

أي اجعلوه لغواً وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم ، ﴿ **وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾[فصلت:٥] .

ولقد كان الحسد أحد الأدواء التي جنحت بالمستكبرين إلى الأنفة من اتباع رسول الله تعالى وقد جاءهم بالحق المبين من عنده ، وذلك أنهم حسدوه على اجتباء الله تعالى واصطفائه واختياره له من بينهم لينال شرف الرسالة والنبوة ، فكانوا يقولون : كما قال تعالى : ﴿ **مَا هَـذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾[المؤمنون:٢٤] ، ويقولون : ﴿ **أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾[الإسراء:٩٤] .

ويقولون : ﴿ **وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[الشعراء:١٨٦] .

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ، ٣١٦/١ .

وحاصل ما سبق أن الحسد يدعو إلى بغض المحسود ، ومن ثم إلى التعظم عليه واستصغاره وعدم قبول الحق الذي يأتي به أو يدعو إليه ، فهو إذاً سبب من أسباب الكبر .

والحسد كالحقد تارة يكون سبباً للتكبر على هذه الصورة المذكورة ، وأخرى يكون من ثماره الفاسدة .

فالمتكبر حقود حسود لكل ذي نعمة وخير لأنه لتعظمه يرى أنه وحده الجدير بذلك كما قال السفهاء المتكبرون من قريش عن المؤمنين بالله تعالى المتبعين رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿**لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ**﴾[الأحقاف:١١] ، وكلٌّ من التكبر والحسد والحقد أدواء مهلكة ينبغي اتقاؤها والمبادرة إلى التطهر منها والتخلص من أرجاسها طلباً للسلامة من عواقبها الوخيمه .

٥ - الرياء :

وهو ترك الإخلاص في العمل بمراقبة غير الله فيه ، أي طلب المنزلة والذكر عند الخلق ، فلا يعمل المرائي عملاً وإن كان من أعمال الآخرة إلا ويقصد من ورائه إبراز فضيلته للناس لينال مدحهم وثناءهم ، فهو يعمل العمل لاليزكو به عند الله ، بل ليذكر به بين الناس ، ليقال : قارئ ، عالم ، كريم ، زاهد ، ...

فالرياء كما يرى الغزالي يدعو إلى أخلاق المتكبرين وإن لم يكن في النفس كبر ، حتى إن المرائي ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ولايكون بينهما معرفة ولامحاسدة ولاحقد ، فيمتنع من قبول الحق منه ولايتواضع له في الاستفادة خيفة أن يقال : إنه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبر -والحالة هذه- الرياء المجرد ، بحيث لو خلا به لكان لايتكبر عليه ، وقد ينتمي المرائي إلى نسب شريف كاذباً ثم يتكبر على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ، ويترفع عليه في المجالس ، ولايرضى بمساواته في الكرامة والتوقير ، وهو عالم باطناً بأنه لايستحق ذلك ، ولاكبر في باطنه لمعرفة كذبه في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين[1] .

إذاً لما كان المرائي يطلب بما يظهر من العمل مدح الناس وثناءهم والذكر والمنزلة بينهم ، كان لا بد له أن يبحث عن الوسائل التي توصله إلى غايته ، فكان أن وجد في التكبر إحدى الوسائل التي تحقق بغيته ، فهو يتكبر على من يعلم يقيناً أنه خير منه فيظهر أنه أغزر منه علماً وأوسع اطلاعاً وأرفع نسباً وأكثر عملاً وأشد قوة ، وأعظم فَهْماً وفطنة ، ويقابله بسائر أخلاق المتكبرين إرادة طمس فضيلته ووأد شرفه وعزته ليبقى هو لاغيره الممدوح من الناس ، المذكور بينهم بالفضل ، المشار إليه بعلو المكانة ورفعة القدر .

وهكذا فإن الرياء أحد الأسباب المفضية إلى التكبر ، ولكنه كالحقد والحسد ، ليس سبباً ملازماً لكل تكبرٍ كما هو شأن العجب والجهل اللذان لايفارقان التكبر أبداً لأن منشأه منهما ، فكل متكبر هو في الأصل معجب جاهل أعجب بزينة دنيوية ، وجهل في عجبه ذلك ، فإذا به يتعظم ويتعالى وهو

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، ١٥٦/٤ .

الوضيع الحقير .

وخلاصة القول في الرياء وسابقيه -الحقد والحسد- أنها أدواء تدعوا إلى التخلق بأخلاق المتكبرين ، وإن لم يكن في النفس كبر ، فالمتكبر حقيقة هو من يفعل هذه الأفعال عن كبر في الباطن صادر عن العجب والنظر إلى الغير بعين الاحتقار ، وإن أطلق على من يفعلها -ولا كبر في باطنه- أنه متكبر فلأجل التشبه بأفعال الكبر[1] والله أعلم .

(١) انظر ، إحياء علوم الدين ، ٤/١٧٥ .

٦ - الهـوى :

وهو ميلان النفس إلـى مـا تستلذه مـن الشـهوات ، مـن غـير داعيـة الشـرع[(١)] .

وسـمي الهـوى بهـذا لأنـه كمـا قيـل يهـوي بصاحبـه فـي الدنيـا إلـى كـل داهية ، وفـي الآخـرة إلـى الهاويـة[(٢)] .

ولذلك لا يسـتعمل فـي الغـالب إلا فيمـا ليـس بحـق وفيمـا لا خـير فيـه[(٣)] .

وهـو أم الجهـالات ورأس الضـلالات ، بـه كفـر الكـافرون ، وأشـرك المشـركون ، وكذبـت الرسـالات السـماوية ، وحرفـت الكتـب الإلهيـة ، وعصـي الله عـز وجـل ، وخولـف أمـره ونهيـه ، فـالهوى كمـا يقـرر القـرآن الكريـم اتخـذ إلهاً مـن دون الله .

قـال الله عزوجـل : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾[الفرقـان:٤٣] .

أي أطـاع هـواه كمـا يطـاع الإلـه[(٤)] ، وكـان مهمـا استحسـن مـن شـيء فـي هوى نفسـه جعلـه دينـه ومذهبـه[(٥)] .

فـلا عجـب بعـد ذلـك أن يكـون الهـوى سـبباً أصيـلاً ومباشـراً فـي اسـتكبار المسـتكبرين ، وكونـه كذلـك حقيقـة أثبتهـا الله الكريـم ، فبيـن أن الهـوى هـو الـذي دفـع المـلأ المسـتكبرين مـن أقـوام الرسـل إلـى مخـالفتهم وتكذيبهـم ، وعـدم اتبـاع الحق الذي جاءوهم بـه مـن عنـد الله تعـالى .

لقـد جـاءت رسـل الله تعـالى بـالحق والهـدى مـن عنـده فوقـف أهـل الأهـواء لهـم بالمرصـاد مسـتكبرين مكذبيـن صـادِّين ، وقـد فعلـوا ذلـك حيـن أدركـوا أن الحـق طريقـه واحـدة بينـة واضحـة لامجاملـة فيـه ولامداهنـة ، وحيـن أدركـوا أنـه ضـد الأهـواء والرغبـات التي تخـالف منهـج الخـالق الحكيـم وشـرعه وكـل أهوائهـم هي كذلـك .

---

(١) انظـر : التعريفـات للجرجـاني ، ص٣٢٠ .

(٢) انظـر : معجـم مفـردات ألفـاظ القـرآن الكريـم ، ص٥٤٨ .

(٣) انظـر : الجـامع لأحكـام القـرآن ، ١٨/٢/١ ، ١٩ .

(٤) انظـر : فتـح القديـر ، ٧٧/٤ .

(٥) انظـر : تفسير ابـن كثـير ، ٣٣٢/٣ .

ولـو وجـدوا الحق موافقاً لأهوائهـم لكـانوا أول المذعنيـن ، ولكنهـم وجـدوا أن الحـق يريـد لأهوائهـم أن توافقـه ، وهـم يعلمـون أنهـا ليسـت كذلـك ، ولايريـدون أن تكـون كذلـك ، فعرفـوا وأعرضـوا وكذبـوا واسـتكبروا .

قـال اللـه تعـالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** ﴾[البقرة:٨٧] .

ينعت اللـه تعـالى بنـي إسـرائيل بـالعتو والعنـاد والمخالفـة والاستكبار علـى الأنبيـاء وأنهـم إنمـا يتبعـون أهواءهـم فيعرضـون عـن الحـق لأجـل مخالفتـه أهواءهم(١) ، وفي الآيـة توبيـخ لهـم علـى سـوء صنيعهـم بالرسـل وبيـان أن ذلـك سجية لهـم(٢) ، كلمـا جـاءهم رسـول مـن عنـد اللـه بـالأمور المخالفـة لأهوائهـم وآرائهـم وبـالإلزام بأحكـام التـوراة شـق عليهـم ذلـك فكذبـوا بعـض الرسـل وقتلـوا بعضهـم(٣) .

وقـال اللـه تعـالى : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[الأعراف:١٧٥-١٧٦] .

قيـل : هـذا رجـل مـن بنـي إسـرائيل ، بـل مـن علمـائهم ، وكـان مجـاب الدعوة ، يقدمونـه فـي الشـدائد ، بعثـه نبي اللـه موسـى عليـه السلام إلـى ملـك مدين يدعـوه إلـى اللـه فأقطعـه وأعطـاه فتبـع دينـه ، وتـرك ديـن موسـى(٤) ، وسـتأتي قصتـه في الفصل الخـامس بـإذن اللـه تعـالى .

والمقصـود أنـه مـال إلـى زينـة الحيـاة الدنيـا وزهرتهـا وأقبـل علـى لذاتهـا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثـير ، ١٢٦/١ .

(٢) انظر : التحرير والتنويـر ، ١/القسـم الثـاني/٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٣) انظر : تفسـير ابـن كثـير ، ١٢٦/١-١٢٧ .

(٤) انظر : تفسـير ابـن كثـير ، ٢٧٥/٢ .

ونعيمها وغرته كما غرت غيره من أولي البصائر والنهى[1] .

وقيل : اتبع هواه : أي اتبع مايهواه من حطام الدنيا ، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله .

وقيل : كان هواه مع الكفار .

وقيل : اتبع رضى زوجته ، وكانت هي التي حملته على الانسلاخ من آيات الله[2] .

قال الله تعالى : ﴿ **لاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾[الكهف:٢٨] .

هذا نهي للرسول صلى الله عليه وسلم أن يطيع الملأ المستكبرين من قريش في طلبهم منه أن يطرد من آمن به من المستضعفين ليجلسوا هم إليه ، وما فعلوا ذلك إلا لأن لهم قلوباً غافلة عن ذكر الله ، وأهواء مخالفة للحق الذي جاء من عنده سبحانه وتعالى ، فنفوسهم المستعلية تأبى أن تساوى بالضعفة والفقراء ، وهكذا آثروا أهواءهم على الحق[3] واستكبروا عن الانقياد له ، لأن فيه مخالفة لأهوائهم ، فهو لايفرق بين رئيس ومرءوس ، ولابين قوي وضعيف ، ولا بين فقير وغني ، فالكل عنده سواسية بالإيمان يسمون ، وبالكفر والاستكبار يذلون .

قال الله تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[القصص:٥٠] .

أي فإن لم يستجيبوا لقولك لهم : ﴿ **فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [القصص:٤٩] ، أو فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به فإنما يتبعون آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلاحجة ولابرهان[4] .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢/٢٧٦ .

(٢) فتح القدير ، ٢/٢٦٥ .

(٣) انظر : فتح القدير ، ٣/٢٨٢ .

(٤) انظر : فتح القدير ، ٤/١٧٨ .

قال الله تعالى : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ﴾[القمر: ١،٣] .

هذا بيان لتكذيب المستكبرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم له ، ولما جاء به من آية انشقاق القمر واتهامهم له في ذلك بالسحر ، وما فعلوا ذلك إلا اتباعاً لأهوائهم الضآلة .

وحاصل القول : أن هذه الآيات البينات وغيرها دالة على أن المستكبرين عن الانقياد لله تعالى ورسله عليهم السلام إنما كان ذلك منهم اتباعاً لأهوائهم ورغباتهم وشهواتهم التي لاتوافق الحق ، ومنها أنهم يريدون العلو في الأرض والجبروت ، والحق لايواتيهم ولايقرهم على ذلك ، ومنها أنهم يشتهون حياة لا رقيب لهم ولاحسيب عليهم فيها ، يأتون ماتهواه أنفسهم حقاً كان أم باطلاً وخيراً كان أم شراً ، وصلاحاً كان أو فساداً ، والحق يريد لهم حياة الحق والخير والصلاح والفضيلة ، وهكذا لما وجدوا أن الحق لايوافق أهواءهم جحدوه وأعرضوا واستكبروا عنه .

الفصل الثالث :

أقســـام الكـــــــبر .

١ - أقسـامه باعتبـار حقيقتــه .

٢ - أقسـامه باعتبـار أحكامــه .

٣ - أقسـامه باعتبـار أفــراده .

٤ - أقسـامه باعتبـار المتكـبر عليــه .

من خلال النظر فيما جاء من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في شأن الكبر يمكن تقسيمه إلى مايأتي :

أولاً : ينقسم الكبر باعتبار حقيقته إلى قسمين : باطن ، وظاهر .

فالكبر الباطن هو : ما استقر في النفس وكمن فيها من العظمة ، وهذا القسم هو الأصل في خلق الكبر ، ومنه يكون الكبر الظاهر .

والكبر الظاهر هو : ماظهر من آثار ذلك الخلق النفسي على جوارح المتكبر وسلوكه ، كالخيلاء والفخر والبغي وتسفيه الحق وتصغير الخلق...الخ مما يأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكما ذكر الإمام أبوحامد الغزالي فإن اسم الكبر بالخلق الباطن أولى ، أما الخلق الظاهر فاسم التكبر به أولى[1] ، لكن لايعني أن هذا الأمر على إطلاقه ، بل يمكن أن يطلق اسم الكبر على النوعين ، وكذلك التكبر ، وبخاصة إذا افترقا ، لكن إذا اجتمعا فحينئذ يمكننا أن نقول : إن كل اسم دل على نوع ، على النحو المذكور آنفاً .

وهذا التقسيم للكبر هو ماتوحي به النصوص الشرعية ، ولم يكن الغزالي حين ذكره -والله أعلم- إلا مستلهماً له منها ، فلقد ذكر النوعان هذان في القرآن الكريم والسنة النبوية .

أما الكبر الباطن فقد جاء ذكره في القرآن الكريم صريحاً في عدة مواضع ، وذلك على النحو التالي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً** ﴾ [الفرقان:٢١] .

ففي هذه الآية الكريمة إخبار من الحق تبارك وتعالى عن مايقوله ويطلبه الذين لايرجون ثواب الله على طاعته ولايخافون عقابه على معصيته ، فهم يطلبون نزول الملائكة من السماء لتخبرهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به ، أو أن يكونوا هم رسل الله تعالى إليهم بدلاً عنه ، بل وتمادوا في طغيانهم حتى طلبوا رؤية الحق سبحانه وتعالى عياناً ليخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله إليهم .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ٤/١٤٤ .

ويبين الحق سبحانه وتعالى أن السبب في تعنتهم وطغيانهم،هذا هو ماأضمروه من الاستكبار عن الحق ومن العناد في قلوبهم[1]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيرا﴾.

«والعتو: مجاوزة الحد في الطغيان، والبلوغ إلى أقصى غاياته، ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنهم لم يكتفوا بإرسال البشر، حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم، بل جاوزا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه وتعالى ورؤيته في الدنيا من دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذلة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر وأقل وأرذل من أن تكون من أهله، أو تعد من المستعدين له، وهكذا من جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حده، ومن جهلت نفسه قدره، رأى غيره منه مالايرى»[2].

فموضع الشاهد من الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: الذي دفعهم إلى هذا التعنت والعتو هو ما استقر في أنفسهم من الكبر والعظمة.

٢ - وقال تعالى: ﴿الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهم، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وعِنْدَ الذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٥٦]، وموضع الشاهد من الآية هو قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ[3] مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، فقد وصف الحق سبحانه وتعالى القلب بأنه متكبر جبار، وبيّن عزوجل أنه يطبع على تلك القلوب المتكبرة.

٣ - وقال تعالى: ﴿إِنّ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَ آيَاتِ اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاّ كِبْرٌ مّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[غافر:٥٦].

بين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية أن سبب مجادلة المجادلين في آيات الله ومماراتهم فيها، وعدم قبولها هو مافي نفوسهم من الكبر والتعظم.

---

(١) انظر: فتح القدير ٤/٦٩.

(٢) فتح القدير ٤/٦٩.

(٣) على قراءة التنوين في (قلب) ومايليها، وسبق ذكر القراءة.

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يامحمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات (بغير سلطان أتاهم) يقول: بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها (إن في صدورهم) يقول: مافي صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسداً منهم على الفضل الذي آتاك لله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوة (ماهم ببالغيه) يقول: الذي حسدوك عليه ليسو بمدركيه ولانائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني، وقد قيل: إن معناه: إن في صدورهم إلا عظمة ماهم ببالغي تلك العظمة، لأن الله مذلهم»[1]، وقال: «وقوله: (فاستعذ بالله، إنه هو السميع البصير) يقول تعالى ذكره: فاستجر بالله يامحمد من شر هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ومن الكبر أن يعرض في قلبك منه شيء»[2].

وفي السنة المطهرة جاء ذكر الكبر الباطن صريحاً في أحاديث منها:

قوله صلى الله عليه وسلم: «**لايَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**».

وقوله صلى الله عليه وسلم لمن قال له: إني لأحب الجمال، حتى إني لأحبه في شراك نعلي، وعلاقة سوطي، فهل تخشى علي الكبر؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**لَيسَ الكِبْرُ هُنَالك، وَلَكِنَّ الكِبْرَ أَنْ تغمط النَّاسَ، وَتبطر الحق**».

فهذه الأحاديث الشريفة تدل دلالة واضحة على أن الكبر يكون في القلب، وإلا لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم محدثه وقال له: فكيف

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٧٦،٧٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/٧٦،٧٧.

تجد قلبك؟ فلما اطمئن صلى الله عليه وسلم أنه لم يفعل ذلك بدافع من التعظم في قلبه ليزهو به على الآخرين ، بين له صلى الله عليه وسلم حقيقة الكبر ، وأنه بطر الحق وغمط الناس ، أي : رد الحق ، وتسفيهه ، واحتقار الناس واستصغارهم .

فيدل هذا على أن الكبر في القلب أصله ، فإن طهر منه القلب ، قبل الحق واطمئن إليه ، وتواضع للخلق ولم يتعال عليهم ، أما إن لم يطهر منه فستكون النتيجة بطر الحق وغمط الناس .

فعلى العاقل أن يفتش في قلبه ويتعهده بالرعاية والتزكية ليطهره من هذا الخلق الرذيل ، ومن سائر الأمراض والآفات التي قد تصيبه فتفسده ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله .

هذا بالنسبة للكبر الباطن ووروده في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وأما الكبر الظاهر فتكاد كل النصوص القرآنية والنبوية تذكره وتدل عليه ، بل هي كذلك ، وذلك لأنه أعظم خطراً وأشد بلاءً من الكبر الباطن ، فإن الباطن مادام في نفس صاحبه لم يظهر على سلوكه بقي خطره على المتكبر فقط ، بينما يتعدى خطر الكبر الظاهر المتكبر إلى غيره ، وكذلك فإن علاج الكبر مادام في النفس أسهل من علاجه إذا ظهر على الجوارح .

وحقيقة يجب أن لاتُغفل وهي أن الكبر الباطن لم يفرد ذكره في النصوص القرآنية والنبوية ، بينما أفرد الكبر الظاهر ، وذلك لدلالته عليه واستلزامه له ، فلايمكن أن يكون متكبراً إلا وفي نفسه كبر ، بينما قد يوجد الكبر في النفس ولكنه يلاقي مجاهدة من صاحبه فلايستسلم لهوى نفسه فيتركها تطغى عليه ، ومن ثم فلايظهر أثر للكبر على سلوكه وجوارحه ، وإذا عدنا إلى النصوص السابقة التي استدللت بها على ذكر الكبر الباطن في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لوجدناها كذلك تذكر الكبر الظاهر متمثلاً في بعض آثاره على السلوك ، فقول الله تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً**﴾ [الفرقان:٢١] ، فيه ذكر لكبر النفس وذكر لآثاره في السلوك والتي تمثلت في جحدهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعدم تصديقه فيما جاءهم به ، وطلبهم أن يرسل الله إليهم الملائكة إما ليخبروهم بصدق محمد

صلى الله عليه وسلم أو ليكونوا هم رسل الله تعالى إليهم بدلاً منه صلى الله عليه وسلم، بل بلغ بهم تعظمهم في أنفسهم أن طلبوا رؤية الله تعالى عياناً في الدنيا ليخبرهم بصدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذه آثار من آثار التكبر عظيمة.

وقول الله تعالى: ﴿**الذينَ يُجَادِلُونَ في آياتِ اللّهِ بغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتاهم، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وعِنْدَ الذينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ [غافر:٥٦]، وكذا قوله تعالى: ﴿**إنَّ الّذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللّهِ بغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إنْ فِي صُدُورِهِم إلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [غافر:٥٦]، هاتان الآيتان الكريمتان تبينان أن تعظم الكافرين بالله تعالى في أنفسهم برز في سلوكهم، مجادلةً في آيات الله بغيرحجة وبرهان، ورداً لها، وعدم قبولها، وكذلك تجبراً في الأرض بغير حق.

هذا فيما يتعلق بالآيات الكريمات، أما بالنسبة للأحاديث الشريفة فهي كالآيات القرآنية تذكر نوعي الكبر هذين -أعني الكبر الباطن والكبر الظاهر.

فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لايَدْخُلُ الجَنّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، قد فسره الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر في نهايته بقوله: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»، وهكذا فسره صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي ذكرناه آنفاً، وفيه: «**لَيسَ الكِبْرُ هُنَالك، وَلَكِنَّ الكِبْرَ أَنْ تغمط النَّاسَ، وَتبطر الحق**»، ففسر الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر بأبرز مظاهره في السلوك، بطر الحق، وغمط الناس، وهذا هو التكبر الظاهر ثمرة الكبر الباطن.

وكذا الشأن في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ لَقِيَ اللّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»، ففيه ذكر مظهر من مظاهر الكبر، وهو الاختيال في المشي، ولم يكن هذا الاختيال إلا ثمرة التعظم في النفس.

ولو تتبعنا بقية النصوص الواردة في شأن الكبر لوجدناها على شاكله ومنوال هذه النصوص التي أمامنا تبين الكبر بشقيه، وتركز أكثر على الظاهر منه للأسباب التي ذكرتها سابقاً.

وإني لأرجو الله تعالى أن يوفقني لتوضيح تلك النصوص من الكتاب والسنة في ثنايا مباحث هذه الرسالة، وخاصة المبحث الخاص بالحديث عن آثار الكبر وعلاماته على سلوك المتكبرين.

ثانياً: ينقسم الكبر باعتبار أحكامه إلى ثلاثة أقسام:

١ - كفر.

٢ - كبيرة من الكبائر.

٣ - مباح.

كبر الكفر هو: التكبر عن الإيمان بالله جل جلاله، والأنفة من الخضوع له والانقياد لرسله عليهم الصلاة والسلام.

والكبر الذي هو كبيرة من الكبائر هو تكبر الأقران والنظراء من العباد على بعضهم البعض، تكبراً غير صارف عن الإيمان.

والكبر المباح هو العزة التي تعني الترفع عن السفاسف، والسمو بالنفس إلى الأمور العوالي.

هذا باختصار، وسيأتي التفصيل في الفصل الخاص بأحكام الكبر بإذن الله تعالى.

ثالثاً : أقسام الكبر باعتبار أفراده ، وهي قسمان :

١ - تكبر فردي .

٢ - تكبر جماعي .

فأما التكبر الفردي فيحصل من فرد معين بذاته ، كما قص علينا القرآن الكريم خبر أفراد من المتكبرين ، يتقدمهم إبليس عليه لعنة الله .

ومنهم : نمرود ، وفرعون ، وهامان ، وقارون ، وصاحب الجنتين ، وأبوجهل ، والوليد بن المغيرة ، وأبي بن خلف... ، وغيرهم مما يأتي بيانه - بإذن الله تعالى- في فصل مستقل من فصول هذه الرسالة عنوانه : أحداث تاريخية للكبر في ضوء الكتاب والسنة .

وفي السنة النبوية نجد قصة الآكل بشماله في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقصة الرجل ممن كان قبلنا...وغيرهم مما يأتي بيانه كما أشرت قريبا .

ولعله من المناسب هنا ذكر بعض صور التكبر الفردي من واقعنا المشاهد :

فهذا حاكم ظالم متكبر مستبد يأنف من قبول الحق والرجوع إليه ، خشية اهتزاز عرشه ، وذهاب جاهه ، وضعف سلطانه ، وهو كذلك لايهتم بأمر رعيته صلح أم فسد ، فالمهم عنده أن يبقى على كرسي الحكم لايتزحزح عنه ليبقى في عليائه ، غير مبال بما حُمِّل من الأمانة العظيمة ، أمانة القيام بمصالح عباد الله تعالى الذين استرعاه الله عليهم ، وأمانة حكمهم بشريعة الله ، والقيام فيهم باتباع منهج الله متمثلاً في كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم صلى الله عليه وسلم .

إن الحاكم المتكبر يظن أن الناس عبيده وخدمه ، فعليهم أن لايقصروا في خدمته والسهر على راحته ، وعليهم تنفيذ أوامره دون إبطاء أو مناقشة وإن كانت ضد مصالحهم ، بل وإن كانت تخالف أمر الله تعالى وحكمه وشرعه ، وإن ظهر في الساحة من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الإصلاح وإلى العودة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون لهما الحكم في الحياة كما أراد الله تعالى ، فالويل له ولمن وافقه ، من

ذلك الحاكم المتكبر المتجبر ، الويل له من بطشه وجبروته ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم .

ولو أدرك الحاكم أنه خادم قبل أن يكون مخدوماً ، وأنه حارس قبل أن يكون محروساً ، وأنه مؤتمن أمانة عظيمة سيسأل عنها في يوم عظيم بين يدي القهار العظيم ، لو أدرك ذلك لما تعالى واستطال وبغى واختال ، ولكان له في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي خلفائه الراشدين ، ومن سار على منهجهم من الحكام المسلمين أسوة وقدوة في الخشية والسكون والسكينة والتواضع .

فأين المتكبر من حاكم المسلمين الأول محمد بن عبد الله الذي كان يجلس وسط أصحابه فلايعرفه الداخل عليهم ولايميزه من بينهم حتى يقال له : هذا رسول الله؟! أترى هذا الحاكم موجود الآن؟!

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم من أراد أن يلقاه أو يكلمه لقيه وكلمه دون عناء ودون وجل ، فلم يكن الحراس يحيطون به من كل جانب ، ولم يكن على بابه حارس أو حاجب ، فهل يوجد هذا الآن؟

و خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشدون كان أحدهم إذا ولي أمر المسلمين قال : أيها الناس ، إني وليت عليكم ، ولست بخيركم...أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلاطاعة لي عليكم...إن أحسنت فأعينوني ، وإن أخطأت فقوموني... ، يقول هذا وهو صادق فيه ، وتترجمه أعماله وسيرته فلا يخالف عمَلُه قولَه ، فهل من حاكم يفعل ذلك الآن؟!

وغير هذا من صور تواضع الحاكم المسلم كثير ، هي الان تكاد تفقد إن لم تكن قد فقدت بالفعل عند كثير من حكام المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وصورة ثانية للكبر تظهر من خلال رئيس أو مدير أو صاحب منصب في عمل ما ، يستعلي بمنصبه ذاك ، فينظر إلى مرؤوسيه أو من هم تحت إدارته ، أو مراجعيه ، نظرة احتقار واستصغار ، مقصراً في أداء حقوقهم ، متهاوناً في حفظ كراماتهم ومقاماتهم .

وصورة ثالثة تظهر من خلال ثري معتز بأمواله مزهو بها ، ينظر إلى

الفقراء بكل حقريه ، مترفعا عليهم ، آنفاً من مخالطتهم في مجلس أو محفل أو مشرب أو مأكل ، لايفكر بالزواج منهم ولايقبل أن يزوجهم ، وكل ذلك لأنه من طبقة فوق طبقتهم ، فهو من طبقة الأغنياء الوجهاء ، وهم من طبقة الفقراء المعدمين .

ورابعةٌ تظهر من خلال شخص يزعم أنه حسيب شريف ، فيختال وينتفش معتزاً بحسبه منتقصاً الآخرين مسترذلاً لهم ، نابزاً لهم بأجناسهم وفصائلهم ، ولسان حاله ومقاله كلسان حال ومقال قائده إبليس القائل عن آدم عليه السلام : أنا خير منه ، وهذا يقول : أنا وطني كذا ، أنا الحسيب من سلالة حسب ، فأنا خير من سائر الأجناس الأخرى .

وخامسة تظهر من خلال إنسان يستأجر عمالاً للقيام بعمل له ، فإذا أنجزوا عملهم -بعد عناء ومشقة- ماطلهم في إعطائهم أجرتهم ، وقد ينتقص منها ، وقد يطغى أكثر فيجحدها ولايعطيهم منها شيئاً ، فمن يفعل هذا لاشك أنه متكبر مغرور يرى نفسه فوق هؤلاء المساكين ، فلايرى لهم عليه حقا ، وهو بهذا يعرض نفسه لهذا الوعيد الشديد الذي في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزوجل ، قال : « **ثَلاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ** »(١) .

وسادسة تظهر من خلال زوج ينظر إلى زوجته على أنها خادمة عنده فلايعطيها من حقوقها شيئاً ، أو زوجة تتكبر على زوجها وتستعلي عن خدمته وأداء سائر حقوقه عليها لكونها من أسرة غنية أو حسيبة أو لكونها ذات جمال أو لكونها تحمل شهادة دراسية لايحملها .

وسابعة تظهر من خلال طالب أو متعلم لايوقر معلمه ، ويتعالى عليه ، ولايقبل بنصحه ، ولايعير توجيهه انتباها ، ويريد منه أن يمنحه النجاح وإن لم يستحقه ، كل ذلك سببه ما في نفسه من الكبر والتعظُّم عليه ، وطالب كهذا لايمكن أن ينال العلم ، لأن العلم هبة ونفحة ربانية لاينالها المتكبرون ، ولأنه

---

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب البيوع ، باب إثم من باع حرا ١٧٧١٣ ، وفي كتاب الإجارة ، باب إثم من منع أجر الأجير ١٩٢/٣.

سيمنعه كبره من ذلك ، فقد قيل : « لايتعلم العلم مستح ولامتكبر »(١) .

وثامنة تظهر من خلال متعالم حمل شهادات وإجازات ، فهو يفخر بها ويزهو ويتعالى على غيره ، يقال له : شيخ أو أستاذ أو دكتور ، ويجعل في مدرسة أو كلية أو جامعة....ليعلم وليربي ، فإذا كبره على تلامذته كبير ، يعنفهم لاللتأديب ، ويهزأ بهم إذا وقعوا في خطأ دون توجيه ، لايقبل عذر معتذر ، ولااعتذار مقصر ، وقد يغمطهم حقوقهم فلايعطي الواحد منهم مايستحقه من التقدير والدرجة ، خاصة الدرجة الكاملة ، ولسان حاله ومقاله إذا أعطي الطالب الدرجة كاملة فماذا يُعطى هو وهو المعلم الجهبذ؟

يفعل كل ذلك إرضاء لكبر نفسه وخيلائها ، حتى لايكون من يعلو عليه أو يساويه .

وتاسعة تظهر من خلال شاب متعه الله بنضرة الشباب ، وأعطاه القوة والنشاط ، وأنعم عليه بالصحة والعافية ، فإذا به يختال بذلك ، إذا مشى تبختر ، وإذا تكلم تفخّم ، لايعتذر إذا أساء ، ولايقبل العذر مِن مَن أخطأ ، ومادرى المسكين أن النضرة يخلفها ضمور ، والشباب يعقبه مشيب ، والقوة والنشاط يتلوهما ضعف وعجز ، بل ومادرى أن قدرة الله تعالى لاحدود لها ، فلربما في لحظة واحدة يتبدل حاله بأمر الله تعالى إلى غير الحال التي هو بها مزهو ومختال ، فيصبح يقلب كفيه حسرة وأسفا ، وهيهات أن ينفعه ذلك .

تلك كانت بعض صور للمتكبرين والتي تضج بها مجتمعاتنا وغيرها كثير ، وهي شاهدة على أن التكبر لم يكن قضية ماضية ولى زمنها ولن يعود ، بل ستبقى صور التكبر قائمة ماوجد أناس يقتفون أثر إبليس الرجيم ويرفعون شعاره الذميم : أنا خير منه .

وأما التكبر الجماعي وهو القسم الثاني من أقسام الكبر باعتبار أفراده ، فلايخفى ماجاء في القرآن الكريم من قصص المتكبرين أمثال قوم نوح وعاد

---

(١) هذا قول مجاهد يرحمه الله ، ذكره البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب العلم ، باب الحياء في العلم ١/١٢٧ ، قال في الفتح : « وصله أبونعيم في الحلية من طريق علي بن المديني ، عن ابن عيينة ، عن منصور ، عنه ، وهو إسناد صحيح على شرط المصنف » . فتح الباري شرح البخاري ١/٣٠٥ .

وثمود ، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى وكفار قريش...وغيرهم ممن ذكرهم كتاب الله تعالى ، ويأتي بيانهم في الفصل الخاص بهم .

فلم يكن استكبار هؤلاء عن الإيمان بالله تعالى وأنفتهم عن الانقياد لرسله فردياً ، بل كان جماعياً ، حيث يتمالأ الملأ منهم على ذلك ويقفون في وجه الرجل والرسالات معرضين عن دين الله صادين عن سبيله ، إما محافظة على ميراث الآباء والأجداد أو خشية ذهاب سلطانهم وجاههم ، أو تعظماً أن ينقادوا لبشر أو أنفة أن يتساووا مع المستضعفين المسارعين إلى الإيمان بالله تعالى وبرسله الكرام عليهم صلواته وسلامه .

رابعاً : أقسام الكبر باعتبار المتكبر عليه

ينقسم الكبر بهـذا الاعتبـار إلـى ثلاثـة أقسـام :

١ - تكبر علـى اللـه تعـالى .

٢ - تكـبر علـى الرسـل الكـرام .

٣ - تكبر علـى سـائر النـاس مـن الأقـران والنظـراء .

١ - التكـبر علـى اللـه عزوجـل :

التكبر علـى اللـه عزوجـل لـه صـور متعـددة ، كمـا يستفاد مـن نصـوص القـرآن الكريم ، وهـي علـى النحـو التـالي :

أ - التعـدي علـى مقـام الربوبيـة والألوهيـة بادعائهـا ، أو ادّعـاء خصيصـة مـن خصائصهـا ، وهـذا منتهـى الطغيـان والجـبروت والتعظـم ، لـم يحصـل إلا مـن نمـرود وفرعـون عليهمـا لعنـة اللـه تعـالى ، فقـد خـاصم وجـادل نمـرود إبراهيـم عليـه السلام فـي ربـه تبـارك وتعـالى جـاحداً لـه،منكـراً أن يكـون إلـه غـيره ، وعندمـا قـال لـه إبراهيـم عليـه السـلام : ربـي الـذي يحيـي ويميـت ، قـال : أنـا أحيـي وأميـت ، مدعيـاً لنفسـه هـذا المقـام عنـاداً ومكـابرةً ، موهمـاً أنـه الفـاعل لذلـك ، وأنـه هـو الـذي يحيـي ويميـت[1] .

وتبـع فرعـونُ نمـرود فـي عتـوه وطغيانـه وتعديـه علـى مقـام الربوبيـة والألوهيـة ، فقـال لقومـه : أنـا ربكـم الأعلـى ، وقـال لهـم : مـاعلمت لكـم مـن إلـه غـيري .

ولم أجد فيمـا قصـه القـرآن الكريـم مـن قصـص المتكـبرين مـن قـاده كـبره إلـى التطـاول علـى مقـام الربوبيـة والألوهيـة بادعائهـا لنفسـه غـير هذيـن الاثنيـن فحتـى أول المتكـبرين إبليـس لـم يقـم هـذا المقـام البـالغ ذروة العتـو والطغيـان .

ب - الأنفـة مـن عبادتـه أو إفـراده بالعبـادة دون سـواه .

خلـق اللـه تعـالى الخلـق وأوجدهـم مـن العـدم ليعبـدوه وحـده لاشـريك لـه ، فهـو القـائل سـبحانه وتعـالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[الذاريـات:٥٦] .

---

(١) انظـر : تفسـير البغـوي (معـالم التنـزيل) ٢٤١/١ ، وتفسـير ابـن كثـير٣٢٠/١،٣٢١.

ولقد كان الناس على التوحيد حتى زين لهم الشيطان عبادة غير الله تعالى، فاتخذوا آلهة شتى يعبدونها من دونه، فأرسل الله تعالى رسله إليهم مؤيدين بالكتب والآيات، يدعونهم إلى العودة إلى التوحيد الخالص، إلى إفراد الله تعالى وحده بالعبادة، ونبذ عبادة ماسواه من الآلهة الباطلة التي لاتملك موتاً ولاحياة ولانشوراً، ولاتملك لنفسها ولالغيرها نفعاً ولاضراً، قال الله تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً** ﴾[الفرقان:٣]، فكانت مهمة الرسل دعوة هؤلاء الجاهلين الفاسقين والعودة بهم إلى ميدان الوحدانية، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطَّاغُوتَ** ﴾[النحل:٣٦].

ولكن كثيراً من أولئك الضالين كانوا قد ألفوا عبادة الآلهة المختلفة وأشربتها قلوبهم، فكان أن استكبروا عن عبادة الله تعالى وحده وأنفوا من ذلك، وقاموا يجادلون في آيات الله ويكذبون رسله، ويتواصون فيما بينهم على التمسك بآلهتهم وآبائهم وعدم تركها لعبادة إله واحد لاشريك له.

ولننظر فيما قصه علينا القرآن الكريم من قصص هؤلاء المستكبرين فسنجد هذه الحقيقة جلية لامرية فيها.

لقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه فقال لهم: ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف:٥٩]، فردوا عليه بقولهم: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾[الأعراف:٦٠]، أي: إنا لنراك في دعوتك إيانا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا في ضلال عن طريق الحق[1].

وهود عليه السلام حين قال لقومه: ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف:٦٥]، قالوا له: ﴿ **قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[الأعراف:٧٠]، كما قالوا له: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[الأعراف:٦٦]، اتهموه

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢٣٢، وفتح القدير ٢/٢١٦.

بالسفاهة والحمق والكذب حين دعاهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، ثم لشدة تمردهم على الله تعالى ونكوصهم عن طريق الحق استعجلوا العذاب الذي كان يعدهم به هود عليه السلام(1) .

وكما أصر قوم نوح عليه السلام على الإشراك بالله تعالى وقالوا : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾[نوح:٢٣] ، أصر قوم عاد كذلك فقالوا : ﴿ قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[هود:٥٣] .

وعلى نفس الطريق الضال سار قوم ثمود ، فقالوا لنبيهم صالح عليه السلام حين قال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾[هود:٦١] ، قالوا له : ﴿ قَالُواْ يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[هود:٦٢] .

وبنفس المنطق الأعوج رد أهل مدين على نبي الله شعيب عليه السلام وقد قال لهم : ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾[هود:٨٤] ، فقالوا له : ﴿ قَالُواْ يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ ﴾[هود:٨٧] ، قالوا ذلك مستهزءين به منكرين عليه ، أمره لهم بعبادة الله تعالى وحده(2) .

وبعث الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للأنبياء والمرسلين ، بعثه داعياً إلى توحيده وترك عبادة ماسواه ، فأي موقف وقفه المستكبرون من قومه؟

يخبرنا الله سبحانه وتعالى بذلك فيقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾[الفرقان:٦٠] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[الصافات:٣٥،٣٦] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَجِبُواْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَـهاً وَاحِداً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ

(1) انظر : فتح القدير ٢/٢١٨.

(2) انظر : فتح القدير ٢/٥١٨.

أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنّ هَـذَا لَشَيْءٌ يُرَاد . مَا سَمِعْنَا بِهَـذَا فِي الْمِلّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَـذَا إِلاّ اخْتِلاَقٌ ﴾[ص:٤ـ٧] .

إنهم يستكبرون عن قول لاإله إلاالله ويأنفون من السجود للرحمن سبحانه وتعالى ، بل يقولون إنكاراً واستهزاءً ﴿ **وَمَا الرّحْمَـنُ** ﴾ ، أي : « لانعرفه ولانقرّ به »[1] ، كما أنهم يتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم ويقذفونه بالشعر والجنون والسحر والكذب لدعوته إياهم إلى عبادة إله واحد هو الله عزوجل ، ويعلنون تعجبهم من ذلك ، ثم يتواصون بالصبر على آلهتهم ومعبوداتهم الباطلة الزائفة .

وليس المجال مجال الحديث عن الشرك وصوره وأسبابه...الخ ، إذاً لطال بنا المقام ، ولكنها إشارة إلى إحدى صور التكبر على الله تعالى ، وهي الاستكبار عن إفراده بالعبادة .

وحاصلها : أن رسل الله تعالى دعوا أقوامهم إلى أن يخلصوا دينهم لله وحده ، فلايعبدوا ولايتخذوا آلهة سواه ، فأنف المستكبرون منهم من ذلك ، ولزموا ماكانوا يعبدون هم وأباؤهم ، وظلوا في طغيانهم يعمهون ، فلم تغن عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله من شيء حين أخذهم الله بذنوبهم ، ولن تغني عنهم شيئاً حين يقال لهم : ﴿ **إِنّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ حَصَبُ جَهَنّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . لَوْ كَانَ هَـؤُلآءِ آلِهَةً مّا وَرَدُوهَا وَكُلّ فِيهَا خَالِدُونَ . لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ** ﴾[الأنبياء:٩٨ـ١٠٠] .

جـ - ومن صور التكبر على الله تعالى وصفه سبحانه وتعالى بمالايليق به ، أو نفي ، أو تحريف ، أو تشبيه ، أو تعطييل صفاته اللائقة به سبحانه وتعالى ومن ذلك :

١ - افتراءات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الله سبحانه وتعالى بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقول اليهود : عزير ابن الله ، والنصارى : المسيح ابن الله ، وقول اليهود : يد الله مغلولة ، وقولهم : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقول النصارى : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة ، وقول أهل الكتاب : إن الله عهد إلينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٣٧/٢.

بقربان تأكله النار ، إلى غير ذلك من الافتراءات التي تجرأ أهل الكتاب بها على الحق سبحانه وتعالى.

٢ - ومن ذلك قول المشركين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم عن الملائكة بأنهم بنات الله .

٣ - ومن ذلك إلحاد المشركين في أسمائه سبحانه وتعالى وعدولهم بها عماهي عليه ، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم ، وزادوا فيها ونقصوا منها ، فسموا بعضها اللات ، اشتقاقاً من اسم الله الذي هو الله ، وسموا بعضها : العزى ، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو العزيز[١] .

ويلحق بهؤلاء من ألحد في أسماء الله تعالى من أهل الفرق التي ظهرت في الأمة الإسلامية ، فأغواه الشيطان وأزله عن سواء السبيل ، فكان منهم من عطّل أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى ومنهم من حرفها ، ومنهم من شبهها ، ومنهم من مثلها ، وكلهم ألحد فيها وعدل بها عن الحق .

والحق هو ماذهب إليه أهل السنة والجماعة حين أثبتوا لله تعالى من الأسماء والصفات الحسنى ماأثبته لنفسه في كتابه أو أثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته من غير تحريف ولاتعطيل ومن غير تشبيه ولاتمثيل .

د - ومن صور التكبر على الله تعالى جحد آياته سبحانه وتعالى ، والمجادلة فيها بالباطل وبغير حجة أو برهان ، والاستكبار عن قبولها ، والإعراض عنها والاستهزاء بها .

وآيات الله تعالى إما أن تكون آيات كونية مشاهدة ، وإما أن تكون آيات مقروءة في الكتب وعلى ألسنة الرسل ، وإما أن تكون معجزات أيد بها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام دالة على صدقهم وصدق ماجاؤوا به .

وكل هذه الآيات بأنواعها الثلاثة دالة على عظمة الله جل جلاله ووحدانيته ، داعية إلى إفراده بالعبادة دون سواه ، لكن المستكبرين تعظمت أنفسهم عن قبولها والإذعان لها ، فقاموا يجحدونها ويجادلون بالباطل لدحضها ، ويتخذونها هزواً معرضين عنها مكذبين بها ، فكان أن حاق به ماكانوا به يستهزءون ، فنزل بهم عذاب الله في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٣٢/٩.

وأبقى .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الأنعام:٩٣] .

هذه الآية الكريمة تصور حال الظالمين عند احتضارهم وهم في سكرات الموت وكرباته والملائكة يضربونهم ويعذبونهم ويبكتونهم بقولهم لهم : أخرجوا أنفسكم ، أي : أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التي وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب ، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم وسلموها إلينا لنقبضها ، ثم يزيدونهم تبكيتاً بأن يبشرونهم بالعذاب المهين الذي مبتدؤه في هذه اللحظات مبينين لهم سبب استحقاقهم له ، وهو : أنهم كانوا يقولون على الله تعالى غير الحق ، فيقولون : ماأنزل الله على بشر من شيء ، ويقولون : أوحي إلينا ولم يوح إليهم شيء ، ويقول قائلهم : سأنزل مثل ماأنزل الله ، كما أنهم كانوا يستكبرون عن آيات الله فلايصدقوا ولايعملوا بها[1] ، ولايخضعون لأمر الله أو رسوله ، ولاينقادون لطاعته[2] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ﴾[الجاثية:٣١] .

هذا والآيات القرآنية التي تبين هذه الصورة من الاستكبار على الله تعالى كثيرة ، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى عند ذكر قصص المتكبرين وصور تكبرهم التي قصها وبينها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وذلك في المبحث الخاص بالحديث عن المتكبرين الذين وردت قصصهم في القرآن والسنة .

هـ - ومن صور التكبر على الله تعالى : التحاكم إلى غير شرعه والحكم بغير ماأنزل خاصة إذا خالف هوى النفس وعادات الآباء ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ

---

(١) انظر : فتح القدير ١٤٠/٢.

(٢) انظر : تفسير الطبري ٢٧٦/٧.

تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودا . فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيَ أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغا . وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً . فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيَ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[النساء:٦٠ـ٦١] .

فمن تحاكم إلى غير شرع الله كان عاتياً على الله ، ولايفعل ذلك إلا حين يظن أن الحق والعدل والخير فيما تحاكم إليه من الطاغوت لافيما شرعه الله تعالى ذوالجبروت والعزة والملكوت سبحانه وتعالى ، لذا فهو يستكبر أن يتحاكم إلى شرع الله عزوجل ، وهذا فعل المنافقين ، أما المؤمنون فلايتحاكمون إلا إلى الله تعالى ، قال الله تعالى في ذم المنافقين ومدح المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَآ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُون ﴾[النور:٤٧ـ٥٢] .

٢ – التكبر على الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام :

التكبر على الرسل الكرام يأتي على صور متعددة ، منها :

أ – الأنفة من اتباعهم لبشريتهم .

فالمستكبرون كما يظهر من قصصهم في القرآن الكريم أنفوا من اتباع رسل الله تعالى ولسان حالهم ومقالهم : كيف نخضع لبشر مثلنا يقودنا

ويسوسنا ويأمرنا وينهانا ، يقول : افعلوا هذا ولاتفعلوا هذا؟ كيف ننقاد لبشر مثلنا يريد أن يتفضل علينا؟ أنى يكون له الفضل علينا وليس يختلف عنا في البشرية؟

قال المستكبرون من قوم نوح عليه السلام كما أخبر القرآن عنهم : ﴿**مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضّلَ عَلَيْكُمْ**﴾[المؤمنون:٢٤] ، يقولون : هو إنسان مثلكم يريد أن يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة[١] ، فيصير له الفضل عليكم فيسودكم وتكونوا له تابعين منقادين لأمره[٢] .

وقال المستكبرون من قوم هود : ماهذا إلابشر يأكل كأكلكم ويشرب كشربكم ، كذبوا رسول الله هوداً عليه السلام وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم مستنكفين عن اتباع رسول بشري ، فكونه مساوياً لهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب ممايشربون يستلزم عندهم أنه لافضل له عليهم[٣] ، يقولون : لئن اتبعتموه إنكم لمغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا باتباعكم إياه[٤] .

ومثل هذه الأنفة أظهرها قوم صالح عليه السلام ، فقالوا : ﴿**فَقَالُواْ أَبَشَراً مّنّا وَاحِداً نّتّبِعُهُ إِنّآ إِذاً لّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذّابٌ أَشِرٌ**﴾[القمر:٢٤،٢٥] ، يقولون : لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلّنا قيادنا لواحد منها ، ثم تعجبوا من كونه أوحي إليه من دونهم ووصفوه بالكذب الذي تجاوز الحد[٥] ، أو بالبطر والتكبر وهو أنسب بالمقام كما قال في فتح القدير[٦] ، ويعني والله أعلم أنهم أرادوا أنه يريد بدعوى النبوة التعظم عليهم والرفعة بينهم .

ومثل ذلك قال المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام : ﴿**قَالُواْ إِنّمَآ**

---

(١) انظر : تفسير الطبري ١٦/١٨.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٥٤/٣.

(٣) انظر : فتح القدير ٤٨٣/٣.

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٩/١٨.

(٥) انظر : تفسير ابن كثير ٢٨٤/٤.

(٦) انظر : فتح القدير ١٢٦/٤ .

أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[الشعراء:١٨٥،١٨٦] .

وتلك مقالة قالها المستكبرون فرعون وملؤه : ﴿فَقَالُواْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾[المؤمنون:٤٧] .

وقال المستكبرون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾[الإسراء:٩٤] .

وهكذا تشابهت قلوب المستكبرين من الأمم جميعها فقادتهم أنفتهم من الانقياد لبشر مثلهم إلى الاستكبار عن الإيمان بالله تعالى وتوحيده وطاعة أمره ونهيه وتصديق رسله المخلصين فباؤوا بالذلة ورجعوا بالعذاب المهين .

ب - إيذاؤهم بالقول والفعل .

لقد لقي المرسلون من المستكبرين صنوف الأذى قولاً وفعلاً ، فقالوا عنهم : كاذبين أفّاكين ، وقالوا : سفهاء ومجانين ، وقالوا : سحرة ومسحورين ، وتوعدوهم بالحبس والرجم والضرب والإخراج والإحراق ، بل فعلوا ذلك وطبقوه ، وماوقفوا في إيذائهم عند حد .

والشواهد من النصوص على هذا كثيرة نذكر بعضها على سبيل المثال ليتضح به ماقدمنا من المقال .

قال تعالى في ذكر الملإ المستكبرين من قوم نوح عليه السلام : ﴿قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾[الشعراء:١١٦] ، يتوعد الملأ المستكبرون نبي الله نوحا عليه السلام ، يقولون : لئن لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة ، وقيل : من المشتومين ، وقيل : من المقتولين[1] .

وقال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مِّبِينٍ ﴾[الأعراف:٦٠] ، يصف المتكبرون نوحا عليه السلام بالضلالة ؛ لأنه دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده .

وقال تعالى في ذكر الملإ المستكبرين من قوم هود عليه السلام : ﴿إِن

---

(١) انظر : فتح القدير ١٠٩/٤.

﴿نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود:٥٣،٥٤] ، يكذبون بآيات الله ويصرون على عبادة غيره وعدم الإيمان به سبحانه وتعالى ثم يقولون : مانظن ياهود إلا أن بعض آلهتنا التي تعيبها وتسفه رأينا في عبادتها قد أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب ذلك[1] .

ووصف الملأ المستكبرون هودا عليه السلام بالكذب فيما جاءهم به ، فقالوا : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[المؤمنون:٣٨] .

وقال تعالى في شأن المستكبرين من قوم صالح عليه السلام : ﴿قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[الشعراء:١٥٣] ، أي : مسحوراً لاعقل لك[2] .

وقال تعالى في شأن المستكبرين من أهل مدين : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾[الأعراف:٨٨] ، يتوعدون نبي الله شعيبا عليه السلام ومن آمن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه[3] .

وقال تعالى عن قوم لوط عليه السلام : ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾[الشعراء:١٦٧] ، يقولون متوعدين : لئن لم تنته يالوط عن نهينا عن إتيان الذكران لنخرجنك من بين أظهرنا وبلدنا[4] .

وقال الله عزوجل في شأن المسكتبرين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠] ، يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتآمر المشركين عليه ليثبتوه ، أي : يقيدوه

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٤٦٥/٢ ، فتح القدير ٥٠٥/٢.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٣٥٦/٣.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢٤٢/٢.

(٤) انظر : تفسير الطبري ١٠٦/١٩.

ويحبسوه(1)، وقيل: ليثبتوه بالجراحات(2)، وقيل: ليسحروه(3)، أو يقتلوه أو يخرجوه من مكة من بلده وبلد أهله(4).

ومن قبل قال قوم إبراهيم عليه السلام كما أخبر الحق سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[العنكبوت:24]، وفعلوا ماتوعدوه به فأوقدوا له ناراً عظيمة وألقوه فيها، ولكن الله تعالى حفظه ونجاه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾[العنكبوت:24]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:69].

وقال فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾[الإسراء:101].

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُوجَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ، فَقَالَ أَبُوجَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلا(5) جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ، فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ...»(6).

---

(1) انظر: تفسير ابن كثير 2/314.

(2) انظر: فتح القدير 2/303.

(3) انظر: تفسير الطبري 9/226.

(4) انظر: فتح القدير 2/302.

(5) السَّلا: بفتح السين المهملة وتخفيف اللام مقصور، وهو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة. انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم 12/151.

(6) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته 1/172، وفي كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً من الأذى 1/277.

وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب مالقي النبي صلى الله عليه وسلم من <=

وفي الحديث الآخر «بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾[غافر:٢٨]»(١).

وفي الحديث الآخر كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لايعلمون(٢).

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وغيرها كثير فيها بيان لما لقيه المرسلون عليهم صلوات الله وسلامه من المستكبرين من أقوامهم من ألوان الأذى قولاً وفعلاً، فصبروا وصابروا وجاهدوا في الله حق جهاده، وبلغوا دين الله تعالى وقاموا بشرعه لايخافون فيه لومة لائم، غير مبالين بمايلقونه من ذلك الأذى العظيم، فصلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ونسأله تعالى أن يجعلنا بهم في حياتنا مقتدين وعلى نهجهم سائرين، وأن ينيلنا شفاعتهم يوم الدين ويرزقنا مرافقتهم في جنات النعيم.

جـ - الهزء والسخرية بهم.

وهذا لون من ألوان الأذى الذي لقيه رسل الله تعالى وقوبلوا به من المستكبرين، فقد قال الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام وقومه المستكبرين: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ**﴾[هود:٣٨]، وأخبر الحق تعالى أن المستكبرين قالوا لنوح: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾[الأعراف:٦٠]، وقال المستكبرون لنبي الله هود عليه السلام: ﴿**إِنَّا**

=

أذى المشركين والمنافقين ١٤١٨١-١٤٢٠.

(١) أخرجه البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لوكنت متخذا خليلا» ٥/٧٠.

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبواليمان ٥/١٠، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ٣/١٤١٧.

لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[الأعراف:٦٦] ، وقال الطاغية المتكبر فرعون لعنه الله ساخراً ومستهزئاً بموسى عليه السلام : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ﴾[الزخرف:٥٢] .

ومن قبل قال المستكبرون لنبي الله شعيب عليه السلام على سبيل السخرية والهزء : ﴿أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[هود:٨٧] .

وقال المستكبرون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم يشيرون إليه هازئين ساخرين كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾[الفرقان:٤١] .

د – طلب الآيات منهم ، ثم تكذيبها .

مماكان يتعنت به المستكبرون على رسل الله تعالى أنهم كانوا يطلبون منهم أن يأتوهم بالآيات المعجزات الدالات على صدق رسالاتهم ليؤمنوا بهم ويتبعوهم ، فلما يجري الله عزوجل آياته على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام ويؤيدهم بها إذا أولئك المستكبرون يكذبون بها ويكفرونها ويزعمون أنها سحر سُحروا به ، قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِيَ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[إبراهيم:٩، ١٠] ، يكذب أولئك المستكبرون رسل الله تعالى فيما جاءوهم به ويكفرون به ثم يقولون لرسل الله تعالى : فأتونا بحجة على ماتقولون تبين لنا حقيقته وصحته ، فنعلم أنكم فيما تقولون محقون .

وهل هم صادقون فيما يقولون؟ كلا! إنما هو التعنت والاستكبار ، فهؤلاء قوم ثمود يقولون لصالح عليه السلام : ﴿مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الشعراء:١٥٤] ، فلما أخرج الله تعالى لهم ناقة من هضبة من الأرض آية باهرة ، دليلاً على نبوة صالح عليه السلام وصدق مقالته ، وحذرهم نبيهم صالح عليه السلام من أن يتعرضوا لها بسوء ، لم يلبثوا أن

عقروا تلك الناقة، وطلبوا العذاب جهلاً واستكباراً، قال تعالى: ﴿**فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[الأعراف:٧٧].

وهاهو فرعون يقول لموسى عليه السلام: ﴿**إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[الأعراف:١٠٦]، فلما أظهر موسى عليه السلام آيات ربه التي أيده بها كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ**﴾[الأعراف:١٠٧،١٠٨]، إذا بفرعون يحاول دحض الحق المبين باتهام موسى عليه السلام بأنه ساحر، فيلتفت إلى ملئه قائلا: ﴿**إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾[الأعراف:١٠٩،١١٠]، وقال فرعون وملؤه المستكبرون مصرين على الاستكبار والتكذيب: ﴿**مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[الأعراف:١٣٢].

وختم الله عزوجل الرسل والرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، فإذا الملأ المستكبرون يقفون موقف الغابرين مستكبرين مكذبين، يرون آيات الله تعالى تجري على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فلايؤمنون ولايصدقون، قال الله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾[القمر:١-٣]، وفي الحديث المتفق عليه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما»(١).

فهذه النصوص وغيرها براهين ساطعة تدلل على هذه الصورة من استكبار المستكبرين على رسل رب العالمين، حيث يطلبون منهم الآيات الدالة على صدقهم، فإذا جاءتهم لايؤمنون، كما قال تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ**

---

(١) الحديث راويه أنس بن مالك رضي الله عنه.

أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر ٥٧/٥، وفي كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر ١٢٦/٥، وفي كتاب التفسير، سورة اقتربت الساعة، باب وانشق القمر ٥٢١/٦.

وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب انشقاق القمر ٢١٥٨/٤.

لِيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الأنعام:١٠٩، ١١٠] .

هـ - قتلهم .

أعتى صور الاستكبار على رسل الله عزوجل هي : قيام المستكبرين بقتلهم ، فمن الأنبياء من أرادوا قتله ، فنجاه الله تعالى كما فعل بإبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وكما تآمر الأشقياء من قوم صالح عليه السلام عليه وقالوا : ﴿تَقَاسَمُواْ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[النمل:٤٩] ، وكما تآمر المشركون على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، ومن الأنبياء من تحققت فيه مشيئة الله الحكيم سبحانه فخلص إليه المستكبرون فقتلوه ومنهم زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام(١) .

وقتل الأنبياء كما يحدثنا القرآن الكريم هو سلوك بني إسرائيل ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة٨٧:] ، وقال تعالى : ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾[المائدة:٧٠] ، وقال تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[النساء:١٥٥] .

روى عن ابن مسعود رضي الله عنه : « كانت بنوإسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار »(٢) .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ١/٢/١٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ، قال : حدثنا يونس بن حبيب ، ثنا أبوداود ، ثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر الأزدي ، عن عبدالله بن مسعود ، وذكر الحديث.

<=

هذا هو غاية التجبر والاستكبار على رسل الله الكرام، وهذه هي أبشع صورة له أن يقتل نبي جاء بالخير والهدى والنور من عند ربه ليخرج العباد من ظلمات الشرك والوثنية وينقذهم من عذاب السعير: ﴿**وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[البروج:٨،٩] .

٣ – التكبر على سائر الناس :

وأما التكبر على سائر الناس من غير الأنبياء والمرسلين، فيأخذ أشكالاً وصوراً متعددة كذلك، وكلها داخلة تحت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه للكبر بأنه: بطر الحق وغمط الناس من هزء وسخرية بهم، واستنقاص واسترذال لهم، وترفع وتعظم وبغي وفخر وتطاول عليهم وأنفة منهم، وتسفيه لأحلامهم وآرائهم، وعدم قبول الحق إن جاء من قبلهم، ومعاملتهم بالقسوة والجفاء، وعدم الرفق بهم واللين لهم، والبخل بأنواع الخير عليهم وعدم إعطائهم حقوقهم من الإحسان والبر والمودة، والتقدم عليهم في كل محفل ومجلس...

وأعظم صورة للاستكبار على سائر الناس هي: إزهاق أرواحهم كما هو الشأن في أعتى صور المستكبرين على رسل الله تعالى وسبق قريباً .

ويشهد لما ذكرت من هذه الصور للاستكبار النصوصُ من الكتاب والسنة ومنها مايلي :

قال تعالى: ﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاّ بَشَراً مّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتّبَعَكَ إِلاّ الّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[هود:٢٧]، وقال تعالى: ﴿**قَالُوَاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتّبَعَكَ الأرْذَلُونَ**﴾[الشعراء:١١١] .

هكذا قال المستكبرون من قوم نوح عليه السلام يقولون لانؤمن لك ولانتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك[1]، ولم يكن

=

انظر: تفسير القرآن العظيم١/١٢٦، وذكره في الدر المنثور١/١٤٢، ونسبه إلى أبي داود الطيالسي وابن أبي حاتم .

(١) انظر: تفسير ابن كثير٣/٣٥٣.

ذلك عن تروٍّ منهم ولافكر ولانظر، بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك[1].

يستنقصون الفقراء والمستضعفين أتباع الرسل، ويصفونهم بالسفلة، وينعتونهم بخفة العقل وسفاهة الأحلام، ويأنفون من قبول الحق الذي اتبعوه، ثم إذا هم لأنفتهم منهم يطلبون من نوح عليه السلام أن يطردهم إن طمع في إيمانهم، فقال لهم نوح عليه السلام: ﴿**وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ . وَيَاقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾[هود:٢٩،٣٠].

وهذا المستكبرون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حذو أولئك المستكبرين من قوم نوح، فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يطرد من حوله ممن آمن به من الفقراء والمستضعفين أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي...؛ ليجلسوا هم إليه، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُوْنَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ**﴾[الأنعام:٥٢].

ولماذا يطلب أولئكم المستكبرون من الرسل طرد من آمن بهم وصدقهم واتبعهم؟ إنهم يفعلون ذلك ترفعاً عليهم واستنقاصاً لهم كونهم فقراء مستضعفين ليسوا كمثلهم أشرافاً ورؤساء وسادة وأغنياء، وهذا من جهلهم وحمقهم وقلة عقلهم؛ لأن الشرف والغنى والعزة باتباع الحق، والرذالة والصغار والفقر بمخالفته، فعزة النفس وغناها بالإيمان لاتدانيها عزة بزخرف ومتاع زائل.

وقال تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾[الأعراف:٧٥،٧٦].

هكذا يقول المستكبرون من قوم صالح عليه السلام لمن آمن به من المستضعفين على طريق الاستهزاء والسخرية[1]: أتعلمون صالحاً صادقاً

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٤٥٨.

(١) انظر: فتح القدير ٢/٢٢٠.

أم كاذباً فيما يقول[1]؟

فأجابهم المستضعفون : إنا مؤمنون برسالته مع كون سؤال المستكبرين لهم إنما هو عن العلم منهم ، هل تعلمون برسالته أم لا؟ فأجابوهم بذلك مسارعة إلى إظهار مالهم من الإيمان وتنبيهاً على أن كونه مرسلاً أمر واضح مكشوف لايحتاج إلى السؤال عنه[2] ، فقال المستكبرون استهزاءً وتهكماً بالمستضعفين : إنا بالذي آمنتهم به كافرون ، حملهم الكبر على أن لاينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء[3] .

وقال الله تعالى بعد أن أمر بتوحيده وبالإحسان إلى الوالدين والأقربين والجيران واليتامى والمساكين والأصحاب وابن السبيل : ﴿**إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**﴾[النساء:٣٦] ، وماذكر الاختيال والفخر هاهنا إلا لأنهما خلقان يمنعان صاحبهما من الإحسان إلى من ذكر ، ويحملانه على الأنفة مماندب الله تعالى إليه في هذه الآية[4] .

وجاء في الحديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ** » ، فهذا الحديث في مفهومه يدل على حصول الفخر والبغي على الآخرين من قبل المتكبر .

وفي حديث آخر أن أَعْرَابِياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِن طَيَالِسَةٍ مَكْفُوفَةٌ بِالدِيبَاجِ أَوْ مَزْرُورَةٌ بِدِيبَاجٍ ، فَقَالَ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ هَذَا يُرِيدُ أَنْ يَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ ابْنِ رَاعٍ ، وَيَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ ابْنِ فَارِسٍ .

فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُغْضَبًا ، فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَاجْتَذَبَهُ ، وَقَالَ : **لاأَرَى عَلَيْكَ ثِيَابَ مَنْ لاَيَعْقِلُ** ، ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ ، فَقَالَ : **إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلاَم لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ**

---

(١) انظر : تفسير السعدي ص٢٥٧.

(٢) انظر : فتح القدير ٢/٢٢٠.

(٣) انظر : تفسير السعدي ص ٢٥٨.

(٤) انظر : فتح القدير ١/٤٦٥.

فَقَالَ : إِنِّي قَاصِرٌ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ : أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ....الحديث[1] .

ففي الحديث دلالة على أن المتكبر يرى نفسه فوق الآخرين ، فيستحقرهم ويزدريهم ، ويظهر ذلك من خلال قول الأعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يريد أن يرفع كل راع وابن راع ، وهذا يعني أنه مستخف بهم ولايراهم أهلاً للرفعة وعلو الشأن والتقدم ، ولذلك غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام من مجلسه ليجذب الأعرابي بمجامع ثيابه التي جاء مختالاً فيها ثم وصفه بعدم العقل والفهم ، ويعني -والله أعلم- أنه جاهل بالميزان الحق الذي ترجح فيه كفة الإيمان على كفة سائر القيم الأرضية الدنيوية مجتمعة التي يعتز بها ويفخر أهل الجاهلية .

ولما كان الهزؤ بالناس واستحقارهم من دلائل التكبر ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، وصية نوح عليه السلام لابنيه والتي فيها : «وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ : أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ» .

وقول الله تعالى في معرض النهي عن التكبر : ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[لقمان:١٨] ، فيه دلالة على صورة من صور الاستكبار على الناس ، وهي : إمالة الوجه والإعراض عنهم تعالياً وتكبراً ، فإن الصعر هو : الميل ، ويقال : أصاب البعير صعر ، إذا أصابه داء يلوي عنقه ، والمعنى : لاتعرض بوجهك عن الناس تكبراً عليهم واحتقاراً منك لهم إذا كلمتهم أو كلموك أو لقيتهم ولقوك ، بل ألن جانبك وابسط وجهك إليهم[2].

ولايقف بغي المتكبر على الناس عند هذا الحد من الهزء والاستصغار والأنفة والإعراض... ، بل يتعدى ذلك إلى صورة أبشع وهي : إيصال الأذى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٠/٢ ، ٢٢٥ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤٩/١ وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣ ، فتح القدير ٢٣٩/٤.

إليهم بأي وجه من الوجوه يستطيعه، وعلى قدر طاقته وجهده وإمكاناته ومكانته، ومن ذلك: الضرب والسجن والتعذيب.

ولنا فيما فعله المستكبرون من قريش بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبدأ الدعوة الشاهد والدليل على ذلك، حيث لم يقف المستكبرون عند حد استصغار المؤمنين كما مرّ بعض ذلك، بل أذاقوا من قدروا عليه منهم ألوان التعذيب والنكال، فكانوا يعذبون أحدهم عذاباً لاقِبل له به لولا أنه يستمد قوته من ربه الذي آمن به جل جلاله.

ولو سئلت جنبات مكة، فأنطقها الله تعالى؛ لأخبرت خبر اليقين بمالقيه المستضعفون المؤمنون على أيدي المستكبرين من قريش من أشكال التنكيل وألوان التعذيب، وحتماً ستنطق بذلك يوم ينطقها الله تعالى القائل قول الحق سبحانه: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾[الزلزلة:١-٥].

يذكر في السيرة أن مستكبري قريش عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، يفعلون ذلك بالمستضعفين منهم ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم، وكان بلال بن رباح رضي الله عنه ممن عذب في الله تعالى، فكان أمية بن خلف الجمحي -لعنه الله وأخزاه- يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لاوالله! لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحَد[١].

كما كان آل ياسر ممن عذب في الله كذلك، فكانت بنومخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة»[٢].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١/٣١٧، ٣١٨.

(٢) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١/٣١٧، ٣١٨.

وقد سئل ابن عباس رضي الله عنه : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب مايعذرون به في ترك دينهم؟ فقال : نعم والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، حتى إن الجُعل ليمر بهم ، فيقولون له : أهذا الجُعل إلهك من دون الله؟ فيقول : نعم ، افتداءً معْهم ممايبلغون من جهده[1] .

والضرب والحبس والتعذيب من وسائل الطغاة المستكبرين قديماً وحديثاً في مواجهة أهل الحق ليفتنوهم عنه ، وهم يفعلون ذلك لأن الحق الذي من أجله يعذبون من يعذبون يخالف أهواءهم ويعارض شهواتهم ورغباتهم الضالة الفاسدة .

ويبلغ الاستكبار على الناس أعتى وأشنع صوره حين يلجأ المستكبرون إلى تقتيل المستضعفين كما هو الشأن في جانب الاستكبار على المرسلين ، فلقد علا فرعون في الأرض علوا كبيرا ، وكان من آثار علوه ذلك ماذكره الله تعالى بقوله : ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[القصص:٤] ، وماذكر ه الله تعالى في شأنه مع السحرة حين سجدوا لله رب العالمين بقوله تعالى : ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى**﴾[طه:٧٠،٧١] .

إن الطغاة المستكبرين يقتلون لأتفه الأسباب ، لابل يقتلون من لايستحق القتل من دعاة الخير والحق والصلاح ؛ ليخرسوا صوت الحق الذي معهم ، حتى لايعلو لَغَط باطلهم .

ومافعله أصحاب يس بناصحهم الأمين هو من هذا القبيل ، فقد قتلوا من جاء يدعوهم إلى اتباع رسل الله تعالى إليهم في دعوتهم إياهم إلى عبادة ربهم

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٠.

وخالقهم جل جلاله وترك عبادة غيره ممايتخذ من آلهة لاتنفع ولاتضر، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَقَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ. إِنِّيَ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. إِنِّيَ آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[يس: ٢٠-٢٥]، قيل: إن اسم هذا الرجل هو: حبيب النجار، وكان نجاراً، وقيل غير ذلك، وأنه لما سمع بخبر الرسل جاء يسعى وكان يعبدالله في غار، فلما قال ماقال لقومه وصرح بالإيمان وثبوا عليه فقتلوه، وقيل: وطئوه بأرجلهم، وقيل: أحرقوه، وقيل: حفروا له حفرة فألقوه فيها[1].

وخلاصة القول أن المتكبر قد يصل به الطغيان إلى قتل الأبرياء إرضاءً لهواه واستخفافاً بمن قتله.

---

(١) انظر: فتح القدير ٤/٣٦٥.

الفصل الرابع : علامات الكبر

حال المتكبر لايخفى على من يراه أو يلقاه أو يعاشره ، فإن له علامات تظهر على شمائله وفي أقواله وفي مشيه وفي حركاته وسكناته وفي سائر تقلباته في أحواله[1] ، فيعرف من خلالها ويشار إليه بها .

وهي علامات كثيرة ترجع إلى مَعْلَمَين بارزين في سلوك المتكبر بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « **الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاس** » .

فبطر الحق وغمط الناس أثران رئيسيان للتكبر ، وعنهما تتولد سائر الآثار والصفات السيئة في أخلاق المتكبرين .

وبتأمل النصوص الشرعية في هذا المجال نجد أنها أشارت إلى كثير من العلامات التي تظهر على المتكبر فتفضحه وتبدي ما في نفسه من التعظم والترفع .

وستكون الوقفة في هذا الفصل مع أبرز تلك العلامات التي أشارت إليها النصوص لينكشف حال المتكبر لمن خفي عليه ، ولتعرف علامات التكبر فيتقيها ويحذر من التلبس بها من يرجو السلامة من هذا الداء الخطير المهلك .

وبإذن الله تعالى ، سأذكر أولاً العلامة أو العلامات ، ثم أثني بالاستشهاد لها بما يدل عليها من النصوص من غير إطالة ، وذلك لأن النصوص تتكرر في أكثر من موضع ، وفي كل موضع تذكر بحسب مناسبتها له بأي وجه من أوجه المناسبة .

١ - بطر الحق :

أي رده وجحده وتسفيهه مع الاستهانة به والاستعلاء عن قبوله[2] ، وكتمانه والصد عنه والوقوف في وجه المتمسكين به والداعين إليه والسائرين في سبيله والقائمين بنصرته ، وذلك إرضاءً لهوى النفس وشهوتها ورغبتها .

فالذي يجحد الحق ويستعلي عن قبوله ، ويصر على مخالفته وتسفيهه وإن تبين له أنه الحق الذي لاجدال فيه لمجرد أنّه جاء مخالفاً لرأيه ، أو لما كان قرره وعمل به ، أو لأنه صادر من غيره ، ليس له دافع يدفعه إلى ذلك إلا الاستكبار والتعظم ، لأنه يخشى من الحق أن ينزله من عليائه التي تخيلها له

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، ١٥٧/٤ .

(٢) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ٦٦٣/١ .

نفسه المريضة ، أو لأنه يخشى إذا هو تقبل الحق الصادر عن غيره أن ينال المجد والكرامة ذلك الذي صدر عنه الحق أو بينه أو دعا إليه فيكبر به عند الناس وينازعه مكانة اجتماعية يطلبها لنفسه(١) .

وأعظم حق يبطره المتكبر هو حق الله تعالى في أن يعبد وحده لا شريك له ، وأن يطيع أمره ونهيه ، وأن يتحاكم إلى شرعه ، حق الله تعالى عليه في أن يكون عبداً مخبتاً خاضعاً له خاشعاً متذللاً بين يديه ، ثم حق الرسل عليهم صلوات الله وسلامه في الإيمان بهم وتصديقهم واتباعهم والتأسي والاقتداء بهم .

ثم حق سائر الناس في التواضع واللين لهم والشفقة والرحمة بهم ، والإحسان إليهم ، والقيام بما يجب عليه لهم من حقوق وواجبات فرضها الشرع أو دعت إليها الإنسانية وليس فيها مخالفة له .

لقد قص القرآن الكريم قصصاً كثيرة من قصص المتكبرين فوجدناهم يأنفون من عبادة الله تعالى وحده دون شريك ويجحدون آياته وينكرونها ويكذبون رسله ويخالفونهم ويسخرون منهم وممن تبعهم ، بل ويقتلون فريقاً منهم .

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِين** ﴾[البقرة:٣٤] ، لقد كان حق الله تعالى على إبليس اللعين أن يطيع أمره حين أمره أن يسجد مع الملائكة لآدم عليه السلام ، ولكنه بطر هذا الحق فلم يسجد كما أمره الله تعالى ؛ ومرة أخرى بطر حق آدم عليه السلام في أن يسجد له بأمر الله ، وقد كان الدافع لإبليس إلى بطر حق الله تعالى ثم حق آدم عليه السلام هو التكبر والتعظم حين رأى نفسه خيراً من آدم ، وأن آدم دونه فكيف يسجد الأعلى للأدنى بزعمه؟ كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً** ﴾[الإسراء:٦١] .

وقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالَ الْمَلأُ مِن**

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ٦٦٣/١ .

قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأعراف:٥٩ ، ٦٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[هود:٢٥-٢٧] . وقال الله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ . قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٥،٦٦] . وقال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[هود:٥٩ ، ٦٠] .

وقال الله تعالى في قوم صالح عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾[الأعراف: ٧٥ ، ٧٦] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[الحجر:٨١] .

وقال الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[فصلت:٢٦] .

وقال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ . وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ . إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[ص:١٢،١٤] .

فهذه الآيات البينات ، وغيرها مما مضى وسيأتي بإذن الله تبين كيف أن المستكبرين جحدوا حق الله في توحيده وعبادته وطاعته وتصديق رسله والإيمان بكتبه وآياته والرفق واللين بخلقه والإحسان إليهم .

فهو إذا استكبار أدى إلى بطر حق الله ثم حق رسله ثم حق خلقه .

ومما يستدل به على بطر المتكبر حق عباد الله تعالى بعد بطره حق ربه قول الله سبحانه : ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ

وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[النساء:٣٦]، فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾، بعد أن أمر بتوحيده والإحسان إلى هؤلاء المذكورين فيه إشارة إلى أن المختال الفخور يأنف من عبادة الله وحده، كما أنه يأنف من الإحسان إلى المذكورين في الآية، فلايقوم لهم بواجب، ولايحسن عشرتهم ومرافقتهم وصحبتهم.

وخلاصة القول: أن بطر الحق علامة بارزة للمتكبرين يبطرون الحق؛ تارة لأنه يخالف ماورثوه عن آبائهم وأسلافهم من معتقدات زائفة وسلوكيات خاطئة.

وتارة لأنهم يرون فيه أنه يساويهم بالمستضعفين وممن ليسوا من وجهاء القوم ورؤسائهم ومقدميهم.

وثالثة لأنه صدر عن غيرهم؛ ورابعة لأنه لايرضى لهم العلو في الأرض بغير الحق.

٢ - المجادلة:

والمجادلة: مفاعلة من الجَدَل، وهو القدرة على الخصام والحجة فيه[١]، والمجادلة هي المناظرة والمخاصمة والمنازعة بالقول لإقناع الغير برأيك[٢]، وهي نوعان:

محمودة: وهي ماكانت لإظهار الحق، كما جادل الأنبياء أقوامهم ليظهر لهم الحق، فمن قبله أفلح وأنجح، ومن رده خاب وخسر[٣].

ومن الجدل الممدوح، الجدال لاستيضاح الحق ورفع اللبس والبحث عن الراجح والمرجوح وعن المحكم والمتشابه ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن وردهم بالجدال إلى المحكم[٤].

ومذمومة: وهي الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ١٩٤/٥

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ١٩٤/٥ ؛ ١٠٥/١٣

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/٩/٥

(٤) انظر: فتح القدير: ٤٨١/٤

ويراد بها : دحض الحق وإزالته[1] .

والمجادلة المذمومة هي المعنية هنا ، فإن المجادلة بالباطل هي إحدى وسائل المتكبرين لدحض الحق ، وليس ذلك عن شبهة عندهم ، بل إنهم يجادلون في الحق وقد تبين لهم ، واستيقنوه ، ولكن أهواءهم التي يخالفها تأبى عليهم الانقياد له فيلجئون للجدل فيه بغية إلباسه لباس الباطل والزيف ليصدوا عن سبيله ويشوشوا على من رام اتباعه .

ثم إنهم يجادلون بغير حجة ولابرهان ولادليل من عقل صحيح أو نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى[2] .

يحدثنا القرآن الكريم عن المستكبرين فيكشف لنا حالهم ، وهم يجادلون رسل الله تعالى بالباطل ليدحضوا به الحق في أية صورة من صوره ، يجادلون في ذات الله ويجادلون في توحيده وصفاته ، ويجادلون في أمره ونهيه ، ويجادلون رسله في صدق رسالتهم وفيما جاؤوا به من الهدى والنور من عنده .

قال أول المتكبرين ومن سن لهم هذا السلوك القبيح : ﴿ **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[ص:٧٦] ، يقول هذا يجادل به رب العالمين حين قال له سبحانه : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ** ﴾[ص:٧٥] .

يدعي الخيرية على آدم عليه السلام ولاحجة له على ذلك ولا برهان ، إنما هو الظن الآثم والقياس الفاسد .

فلقد جادل اللعينُ ربَّ العالمين الذي خلقه وخلق آدمَ ويعلم وهو العليم الخبير من منهما خير من الآخر ، فما كان له أن يرفع نفسه بين يدي الله تعالى ، ويزعم هذا الزعم الذي ليس له عليه برهان .

وورث المستكبرون في كل أمة هذا السلوك المنحرف من زعيمهم إبليس -لعنه الله- فقاموا يجادلون رسل الله تعالى فيما جاءوهم به من الحق يتبعون في ذلك أهواءهم ويمشون خلف شياطينهم فالله تعالى يقول :﴿ **وَإِنّ الشّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنّكُمْ**

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، ٢٠/٩/٥

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ٢١٨/٣.

لَمُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:١٢١] .

أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق المباينة للصواب قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم[١] ، وقد ذكر أن المقصود بالشياطين هنا شياطين الجن يوحون لأوليائهم من الإنس : كيف تعبدون شيئاً لاتأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم ما قتلتم . وقيل : شياطين فارس أوحوا إلى أوليائهم من قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له إن ما ذبحت هو حلال وماذبح الله فهو حرام ، وقيل : كان المجادلون قوماً من اليهود خاصموا النبي صلى الله عليه وسلم في الميتة فقالوا : نأكل ما قتلنا ولانأكل ما قتل الله[٢] .

وأياً كان المعني بالآية أكان المشركون أم سواهم فإن هذا جدال بغير حجة ولا برهان إنما هو رأي من آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسد الكون ، وهي آراء يقدمها أصحابها على شرع الله تعالى وأحكامه ، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين الذين يريدون أن يضلوهم عن سواء السبيل[٣] .

ولقد أضلت الشياطين الملأ المستكبرين من أقوام المرسلين المختومين بمحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا كما أخبر الحق سبحانه وتعالى بقوله الحق : ﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلاَيَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾[غافر:٤،٥] .

وصور مجادلة المستكبرين لرسلهم كثيرة ومنها :

- المجادلة في ذات الله وصفاته :

ومن ذلك مجادلة ومحاجة نمرود إبراهيم -عليه السلام في ربه تعالى- كما أخبر الحق سبحانه في ذلك فقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي**

---

(١) انظر: فتح القدير ، ١٥٨/٢.

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٥/٨-١٩ ؛ أسباب النزول ، ص٢٥٧ ؛ لباب النقول في أسباب النزول ، ص١٤ .

(٣) انظر : تيسير الكريم المنان-للسعدي ، ص٢٣٤.

رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨] .

فتأمل هذا الحوار والجدال الذي دار بين إبراهيم خليل الله عليه السلام وبين النمرود -لعنه الله- ، وقول إبراهيم -عليه السلام- يصف ربه تبارك وتعالى بما هو صفة له على الحقيقة من الإحياء والإماتة ، وما قاله النمرود مقابل ذلك حين قال (أنا أحيي واميت) وأراد بذلك المعنى المجازي للإحياء والإماتة[١] .

فإنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياءً ويقدر على أن يقتل فيكون ذلك إماتة ، وهذا هو الجدال بالباطل ، فإن إبراهيم عليه السلام أراد أن الله تعالى هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد ، ولو قال له ابتداءً ربي الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد لبهت في أول وهلة[٢] ، ولذا لما لجأ إلى التمويه سلم له إبراهيم تسليم الجدل وانتقل معه من المثال وجاءه بأمر لا مجاز فيه[٣] ، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾[البقرة:٢٥٨] ، فكانت حجة لاتجري فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج مكابرة ومشاغبه[٤] ، ولذا قال الله تعالى :﴿ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة:٢٥٨] ، أي انقطعت حجته وما أمكنه أن يقول : أنا آتي بها من المغرب لأن ذوي الألباب يكذبونه[٥] .

وممن جادل في ذات الله تعالى وصفاته فرعون مصر على عهد موسى – عليه السلام- فهو القائل ﴿ وَمَا رَبّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء:٢٣] ، والقائل : ﴿ فَمَن رّبّكُمَا يَا مُوسَى ﴾[طه:٤٩] .

والقائل ﴿ يَا أَيّهَا الْملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إِلَـهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣/٢ . (الجامع لأحكام القرآن) .

(٢) انظر : فتح القدير ، ٢٧٧/١ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣/٢.

(٤) انظر : فتح القدير : ٢٧٧/١.

(٥) انظر : تفسير القرطبي ، ١٨٦/٣١٢.

عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[القصص:٣٨] ، فهذ من فرعون على سبيل الجحد لله رب العالمين ، وحتى ينتصر لباطله يلجأ إلى هذا العبث الذي لا طائل تحته ليغالط قومه ويوهمهم بكمال اقتداره[١] .

ومثال آخر للمجادلة في صفات الله تعالى في قول الله سبحانه ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾[يس:٧٧،٧٨] .

فهذا جدال في قدرة الله عز وجل على البعث[٢] والنشور وإحياء من أرمت عظامه في القبور :

قيل المقصود بالإنسان هنا أُبي بن خلف الجمحي ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففتته بين يديه وقال : يامحمد ، يبعث الله هذا بعد ما أرم؟ فقال : « **نَعَم ، يَبعَثُ الله هَذا ويُمِيتُكَ ثم يُحييكَ ثُم يُدخِلُك نَارَ جَهَنَم** » ، فنزلت هذه الآية[٣] .

وقيل : هو العاص بن وائل السهمي فعل ذلك[٤] .

وأيا كان المعني بهذا فمعنى الآية خطاب الإنسان من حيث هو ، ويدخل من كان سبباً للنزول تحت جنس الإنسان دخولاً أوّلياً ، والآية مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجيب من جهله ، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذه الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم سبحانه على ماهو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما

---

(١) انظر : فتح القدير ، ١٧٣/٤.

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٠٦/١٣.

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ٣٠/٢٣ ؛ أسباب النزول ٤٢٣.

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ٣٠/٢٣ ؛ لباب النقول ، ص١٨٢ ، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه عن ابن عباس : جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته وقال : يامحمد ؛ أيبعث الله هذا بعد ما أرم ، قال : « **نعم ، يبعث الله هذا ، يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم** » قال : فنزلت : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [يس:٧٧] ، إلى آخر السورة ، ٤٢٩/٢ .

كانت[1] ، فإن من خلق من لاشيء قادر أن يعيد من خلقه إذا أفناه .

وفي الآية إنكار وتعجب من حال هذا الإنسان المخلوق من أضعف الأشياء ، فإذا هو بعد ذلك شديد الخصومة كثير الجدل في أمر قد قامت عليه فيه حجج الله تعالى وبراهينه[2] .

١ - ومن المجادلة على هذه الصورة ماذكر عند قول الله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾[الحج:٣] ، من أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين خاصم في الله عز وجل فزعم أنّه غير قادر على إحياء من قد بلي وعاد ترابا[3] .

وقد تكررت الآية في نفس السورة فقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلعَبِيدِ﴾ [الحج:٨-١٠] .

وقد تكررت الآية للمبالغة في الذم والتوبيخ ، وقد وصف ذاك المجادل في آيات الله في كل آية بزيادة ، فهو يجادل في الله ويخاصم بغير علم يعلمه ، بل بجهل منه بما يقول ، وهو يتبع في قيله وجداله ذلك كل شيطان مريد[4] ، أي متمرد على الله وهو العاتي ، وسمي بذلك لخلوه عن كل خير ، والمراد إبليس وجنوده أو رؤساء الكفار الذين يدعون أشياعهم إلى الكفر[5] .

وفيما جادل به النضر بن الحارث ثلاثة أقوال :

أحدها : أنّه كلما أنزل شيء من القرآن كذّب به .

وثانيها : أنه زعم أن الملائكة بنات الله .

---

(١) انظر : فتح القدير ، ٣٨٣/٤.

(٢) انظر : فتح القدير ، ٣٨٣/٤.

(٣) انظر تفسير الطبري ، ١١٤/١٧ ؛ تفسير القرطبي ، ٦/١٢/٦ ؛ لباب النقول ، ص١٤٨ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١١٥/١٧.

(٥) انظر : فتح القدير٤٣٦/٣.

وثالثها : هو ما سبق من قوله إن الله لايقدر على إحياء الموتى[1] .

وقد بينت الآيتان أن النضر كان يجادل تلك المجادلة بغير علم ولا برهان ولا هدى ، وقصده منها أن يصد المؤمنين بالله عن دينهم الذي هداهم له ويستنزلهم عنه[2] .

وإن كان السبب في نزول الآيتين خاصاً ، فإن الاعتبار بما يدل عليه اللفظ ، وهو يدل على أن من الناس فريق يجادل في الله ، فيدخل في ذلك كل مجادل في ذات الله أو صفاته وشرائعه الواضحة[3] .

والمتكبرون هذا دأبهم بدليل أن الله تعالى قد وصف هذا المجادل فيه بقوله :﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ ﴾ ومعناه : أنه لاوٍ عنقه مرحاً وتكبراً ، وانتصاب (ثاني عطفه) على الحال من فاعل يجادل ، والمعنى : يجادل في الله حال كونه متكبراً[4] .

ومن هذه الصورة في المجادلة في الله تعالى بغير حجة ولا برهان قول المشركين : الملآئكة بنات الله ، وقول اليهود : عزير ابن الله ، وقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : يد الله مغلولة ، وقولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً...، وقول النصارى : المسيح ابن الله...، إلى غير ذلك من أمثلة المجادلين في الله تعالى بالباطل من القول والفاسد من الرأي والداحض من الحجج .

---

(١) انظر : زاد المسير ٤٠٥/٥ ، وقد ذكر أن القول الأول لابن عباس ، والثاني لمقاتل ، والثالث لأبي سليمان الدمشقي ..

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٢/١٧.

(٣) انظر : فتح القدير ، ٤٣٩/٣.

(٤) انظر : فتح القدير ، ٤٣٩/٣.

ب : المجادلة في توحيد الله :

انحرف العباد عن التوحيد واتخذوا لأنفسهم آلهة يعبدونها من دون الله جل وعلا ، فأرسل الله عزوجل رسله المصطفين الأخيار ليخرجونهم من ظلمات الشرك والضلال التي وقعوا فيها فجاء كل رسول قوم إلى قومه يحمل رسالة ربه يقول : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، فانبرى المستكبرون يجادلونه في دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، مدلين في ذلك بحجة داحضة هي أنهم وجدوا آباءهم على خلاف ذلك فهم على آثارهم يهرعون .

قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف:٥٩] .

فأجابه الملأ المستكبرون ، ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾[الأعراف:٦٠] ، وقال هود عليه السلام لقومه ، ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف:٦٥] ، فأجابه الملأ المستكبرون : ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[الأعراف:٦٦] ، وقالوا : ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[الأعراف:٧٠] .

وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف:٧٣] ، فأجابه المستكبرون : ﴿ **يَاصَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾[هود:٦٢] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ **يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف:٨٥] ، فأجابه المستكبرون : ﴿ **يَاشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيَ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾[هود:٨٧] .

وقال إبراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ **مَا هَـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِيَ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾[الأنبياء:٥٢] ، فحاجه قومه وقالوا : ﴿ **وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** ﴾[الأنبياء:٥٣] ، قال : ﴿ **قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾[الأنبياء:٥٤] ، قالوا : ﴿ **أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ** ﴾[الأنبياء:٥٥] ، قال : ﴿ **بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فطَرَهُنَّ وَأَنَاْ عَلَى ذَلِكُم مِّنَ**

الشّاهِدِينَ ﴾[الأنبياء:٥٦] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّوَنّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّ أَن يَشَآءَ رَبّي شَيْئاً وَسِعَ رَبّي كُلّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقّ بِالأمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام:٨٠-٨١] ، والمعنى أن إبراهيم عليه السلام حين تبرأ من قومه ومما يعبدون من دون الله قال : ﴿ إِنّي وَجّهْتُ وَجْهِيَ لِلّذِي فَطَرَ السّمَوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام:٧٩] ، جعل قومه يجادلونه فيما ذهب إليه من التوحيد ويناظرونه بشبه من القول باطلة فقال لهم : أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد هداني إلى الحق وبصَّرني به وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطله[1] ، ثم دلل لهم على بطلان قولهم فيما ذهبوا إليه بأن آلهتهم التي يعبدونها لاتملك من الأمر شيئاً فهو لايخافها ولايبالي بها ، وكان الأولى بهم أن لايعبدوها وهي كذلك ، بل يعبدوا الإله الحق الذي بيده ملكوت السموات والأرض ويخافوا منه وهو القدير ، وقد أشركوا به ما ليس لهم على ألوهيته حجة واضحة وبرهان ساطع .

ولأن قلوب المستكبرين تشابهت ، فقد كان هذا الجدال في توحيد الله تعالى وحقه بالألوهية دون سواه هو سبيل المستكبرين من قومِ خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نبذ عبادة الأصنام وعبادة الله وحده لا شريك له ، فقالوا : ﴿ هَـَذَا سَاحِرٌ كَذّابٌ . أَجَعَلَ الاَلِهَةَ إِلَـَهاً وَاحِداً إِنّ هَـَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاْصْبِرُواْ عَلَىَ آلِهَتِكُمْ إِنّ هَـَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَـَذَا فِى الْمِلّةِ الاَخِرَةِ إِنْ هَـَذَا إِلاّ اخْتِلاَقٌ ﴾[ص:٤-٧] ، يستكبرون عن عبادة الله تعالى وحده ويجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك متهمين له بالسحر والكذب متعجبين أن يكون ثمت إله واحد لا آلهة شتى ، مدلين بحجتهم وبرهانهم على ما ذهبوا إليه وقالوه ، وهي أن هذا القول مختلق لم يكن مسموعاً به في الملة الآخرة التي قيل : ملة النصارى ، وقيل : ملة

---

(١) انظر : تفسر ابن كثير ١٥٧/٢.

قريش[1] .

ولعمر الله ماأوهى حجتهم ، وما أسخف قولهم ، أفإن ضل الأولون وكانوا لايعقلون شيئاً ولايهتدون ، كان ذلك حجة لمن بعدهم أن يضلوا كما ضلوا؟ .

وصور ة أخرى لمجادلة المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم يبينها الله تعالى في كتابه الكريم بقوله سبحانه : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُواْ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾[الزخرف:٥٧-٥٨] ، يذكر في التفسير أن المراد في هذا مناظرة عبدالله بن الزعبري مع النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عيسى لما قالت له قريش : إن محمداً يتلو : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾[الأنبياء:٩٨] ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ولخصمته ، فقالوا : وما كنت تقول له؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، وهذا عزير تعبده اليهود ، ونحن نعبد الملآئكة ، أفهم من حصب جهنم؟ ، فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم وفرح وفرحوا بذلك ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « **كُلُّ مَن أَحَب أَن يُعبَد مِن دُونِ الله فَهُو مَع مَنْ عَبَدَه ، فَإِنَهُم إِنَّمَا يَعْبُدونَ الشَّيَاطين ، وَمَن أَمَرَهُم بِعِبَادَتِه** »[2] .

وقيل : خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن كان كل من عبد غير الله في النار فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملآئكة[3] .

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش : « **إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير** » ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم وما تقول في محمد ؛ فقالوا : يامحمد : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحا ، فلأن كنت صادقاً فإن آلهتهم

(١) انظر : فتح القدير ، ٤٢١/٤.

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية ، انظر : سيرة ابن هشام ، ٣٥٩/١.

(٣) انظر : فتح القدير ، ٥٦١/٤.

لكما تقولان ، فأنزل الله عز وجل[1] : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّوْنَ** ﴾ [الزخرف:٥٧] ، فكان ضرب هذا المثل من قبل قريش من قبيل الجدل والمراء لأنهم يعلمون أنه غير وارد على الآية لأنها لما لا يعقل وهي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ [الأنبياء:٩٨] ، ثم هي خطاب لقريش ، وإنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها[2] .

ج – مجادلة الرسل في صدق رسالتهم :

لقد لقي المرسلون عليهم السلام تعنتاً كبيراً وجدلاً كثيراً من المستكبرين ، وبخاصة الملأ منهم حول رسالتهم ، فلقد كذبوهم وجحدوا أن يكونوا رسلاً من عند الله تعالى ووصفوهم بالكذب وبالجنون والضلال والسفاهة والسحر حين قالوا لهم : نحن رسل الله إليكم .

وما اكتفوا بهذا ، بل كانوا زيادة في التعنت والجدل يطلبون منهم المعجزات التي تؤيدهم ثم لايؤمنون .

وأي حجة لهم على هذا الإنكار وهذا التعنت والجدال؟

إنهم يزعمون أن الله تعالى لا يمكن أن يرسل من البشر رسولاً ، ولو شاء لأرسل من الملائكة ، أما بشرٌ مثلهم يأكل ويشرب ، وينام ويتعب ، كمثلهم سواء بسواء ، فكيف يختار ويصطفي من بينهم؟ وبأي شيء يمتاز عنهم ليفضل عليهم؟ يكون واحدٌ منهم فإذا هو يقول : إني رسول الله إليكم ، فلماذا هو لا غيره؟

بهذا الهذيان وهذه الحجة الواهية وهذا الجدال الباطل الذي لا يستند إلى برهان واضح وسلطان بين يحاولون دحض الحق ؛ والحق أن ما يدفعهم إلى ذلك إنما هو الحسد والبغي واتباع الهوى تعظماً أن ينال الفضل سواهم وأن يكونوا أتباعاً مقودين ، وقد كانوا من قبل هم الملأ القادة والسادة .

قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾[الشعراء:١٠٧] ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ٣١٨/١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، ١٤٢/٤

فقال الملأ منهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأعراف:٦٠] ، وقالوا : ﴿ مَا هَـذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾[المؤمنون:٢٤-٢٥] .

وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء:١٢٥] ، فقال الملأ منهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[الأعراف:٦٦] ، وقالوا : ﴿ مَا هَـذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾[المؤمنون:٣٣-٣٤] ، وقالوا : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[المؤمنون:٣٨] .

وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء:١٤٣] ، فقال الملأ منهم : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[الشعراء:١٥٣-١٥٤] ، وقالوا : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ . أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[القمر:٢٤-٢٥] .

وقال شعيب عليه السلام لقومه :﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾[الشعراء:١٧٨] ، فقال الملأ منهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[الشعراء:١٨٥-١٨٦] .

وقال موسى عليه السلام : ﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الأعراف:١٠٤-١٠٥] ، فقال له فرعون : ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾[الإسراء:١٠١] ، وقال فرعون وملأه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾[المؤمنون:٤٧] .

ولما صدع محمد صلى الله عليه وسلم برسالة ربه عز وجل جعل المستكبرون من قومه يتخبطون ويهذون : ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾[الإسراء:٩٤] ، ﴿ مَا لِهَـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ

يَأْكُلُ مِنهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾[الفرقان:٧-٨] : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾[الفرقان:٤] .

وبمثل هذا الجدال الباطل من المشركين جادل اليهود فقالوا[1] : ﴿ مَآ أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾[الأنعام:٩١] ، وما يقولون هذا عن جهل -كما هو شأن المشركين- بل إنهم ليعلمون أنهم مفترون ، فلقد سلفت إليهم الرسل وأنزلت عليهم الكتب وهم الذين إذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾[البقرة:٩١] ، ولكن قاتل الله الحسد والبغي والهوى فهي الدافعة لهم إلى هذا الجدال الباطل .

د – المجادلة في آيات الله .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[غافر:٥٦] .

هذا نص صريح بأن الكبر من آثاره في السلوك المجادلة بالباطل لدحض الحق ، ومن صور تلك المجادلة ، المجادلة في آيات الله تعالى الدالة على توحيده ، وصدق رسله وحقيقة نبواتهم[2] .

يخاطب الحق سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم يقول له : إن الذين يخاصمونك فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات[3] إنما يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة[4] بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيه[5] ، وما يدفعهم إلى ذلك إلا ما استقر في نفوسهم من الكبر الذي جعلهم لايتبعونك ولايقبلون الحق الذي جئتهم به ، حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله والكرامة التي أكرمك بها من النبوة ،

---

(١) وقيل : إن المشركين هم الذين قالوا ذلك ، ورجحه الطبري ، انظر : تفسير الطبري ٢٦٨/٧ ؛ وكذا رجحه ابن كثير ، انظر : تفسير ابن كثير١٦١/٢.

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٧٠/٧.

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ٧٦/٢٤

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٩١/٤.

(٥) انظر : تفسير الطبري ، ٧٦/٢٤.

لكن الله تعالى مذلهم فلن يبلغوا تلك العظمة وما أرادوا من الاستعلاء[1] ، ولن ينالوا ما راموه من إخماد الحق وإعلاء الباطل ، بل الحق هو المرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع[2] .

والآية الكريمة قيل نزلت في المشركين ، وقيل نزلت في اليهود حين ادعوا أن الدجال منهم ويكون في آخر الزمان وعظموا أمره وقالوا نملك به الأرض[3] .

ومعنى ﴿ إن ما في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ ، أي عظمة ما هم ببالغيها لأنهم قوم رأوا أنهم يقل ارتفاعهم إن اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنقص أحوالهم ، ويرتفعون إذا لم يكونوا له تبعاً ، فأعلم الله عز وجل أنهم لن يبلغوا الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب[4] والمجادلة والتعظم .

وقيل : المراد بالكبر الأمر الكبير ، أي يطلبون النبوة أو يطلبون أمراً كبيراً يصلون به إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القتل ونحوه وما هم ببالغي ذلك .

وقيل : في صدورهم تكبر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطمع أن يغلبوه ولن يبلغوا ذلك[5] .

وقيل : المعنى ، إن تعظمت اليهود على محمد صلى الله عليه وسلم وجادلوه في الدجال وأنه سيخرج عن قريب فيرد الملك إليهم فذلك كبر لا يبلغونه[6] .

ومما يستدل به على أن المجادلة في آيات الله تعالى مظهر من مظاهر التكبر قول الله عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيَ آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٢٤/٧٦-٧٧

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٤/٩١

(٣) انظر : تفسير ابن أبي حاتم ، ١٠/٣٢٦٨ ؛ تفسير القرطبي ، ٨/١٥/٢١٢ ؛ لباب النقول ص١٨٦ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ، ٨/١٥/٢١٢.

(٥) انظر : فتح القدير ، ٤/٤٩٧.

(٦) انظر : تفسير القرطبي ، ٨/١٥/٢١٢.

كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللّهِ وَعِندَ الّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ ﴾[غافر:٣٥] .

ومعنى الآية أن الله تعالى يمقت ويبغض أشد المقت والبغض ، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون ويبغضون من يدفع الحق بالباطل ويجادل الحجج بغير دليل معه ، ومن بغض الله تعالى لهم طبع على قلوبهم وهو يفعل ذلك سبحانه وتعالى بكل متكبر جبار ، فيطبع على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ولاينكر منكراً(١) .

والشاهد من الآية على أن المجادلة بالباطل من خلق المتكبرين ، أن الله تعالى بعد بيان مقته للذين يجادلون في آياته قال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى كُلّ قَلْبِ مُتَكَبّرٍ جَبّارٍ ﴾ فكان في ذلك دلالة على أن التكبر والتجبر من آثارهما المجادلة الباطلة بالحجج الداحضة يريد بها المتكبر الاستعلاء على كل ما هو حق .

والمجادلة في آيات الله تعالى في سلوك المتكبرين المقصوص خبرهم في كتاب الله تعالى أخذت صوراً متعددة ، منها ما ذكرت قبل من المجادلة في ذات الله وفي أسمائه وفي توحيده وفي صدق رسله ، ومنها التكذيب بكل آية جاءتهم بها الرسل الكرام مقروءة كانت أم مشاهدة محسوسة كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيَ آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلّ آيَةٍ لاّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتّى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الّذِينَ كَفَرُوَاْ إِنْ هَـذَآ إِلاّ أَسَاطِيرُ الأوّلِينَ ﴾[الأنعام:٢٥] .

يخبر الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن من المشركين قوم يحملهم في أوقات بعض الدواعي إلى استماع ما يتلو من القرآن الكريم(٢) ، ومايدعو إليه من توحيد ربه وأمره ونهيه(٣) ، لكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه(٤) ولهذا لايفقه مايقوله صلى الله عليه وسلم ولايوعيه قلبه

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، ٨٦/٤.

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص٢١٦.

(٣) انظر : تفسير الطبري ، ١٦٩/٧

(٤) انظر : تفسير السعدي ، ص٢١٦.

ولا يتدبره[1] ، ولاينتفع به لأن الله تعالى قد جعل على قلوبهم غطاءً وغشاءً لئلا يفقهوا كلامه فصانه عن مثلهم وجعل في آذانهم صمماً فلا يستمعون ما ينفعهم[2] .

ثم وصفهم الله عز وجل بأنهم لظلمهم وعنادهم وتمردهم لايؤمنون بشيء من الآيات البينات والحجج الساطعات الدالات على الحق الشاهدات بصدق رسول الحق صلى الله عليه وسلم ولا ينقادون لها ولا يصدقون بها بل يجادلون بباطلهم ليدحضوا به الحق المبين يقولون عن آيات الله تتلى عليهم ، ﴿ إِنْ هَـذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ ، أي مأخوذة مما سطره الأولون في الكتب من القصص والأحاديث أو الأباطيل والترهات[3] .

ونحو هذه الآية في قول المشركين عن القرآن بأنه أساطير الأولين قول الله تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[الفرقان:٥] .

وقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[النحل:١٠٣] ، يعنون أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو كلام تعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غلام رومي ، اختلف فيه على أقوال ذكرت في كتب التفسير[4] ، وهذا من جهلهم وحمقهم ، إذ كيف بغلام أعجمي لا يفهم كلام العرب يكون منه ذلك الكلام الفصيح البليغ المعجز ، وهم العرب أولوا الفصاحة والبيان في لغتهم لايستطيعون أن يأتوا بمثل آية منه؟ ولهذا قال الله تعالى رداً عليهم وتسفيهاً لمقالهم : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[النحل:١٠٣] .

وبمثل هذه المجادلة في آيات الله تعالى من قبل المشركين المستكبرين على عهد النبوة المحمدية جادل المستكبرون رسل الله تعالى إليهم فيما

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٧/١٦٩

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص٢١٦.

(٣) انظر : فتح القدير ، ٢/١٠٨ ؛ تفسير السعدي ، ٢١٩.

(٤) انظر : تفسير الطبري ، ١٤/١٧٧-١٨٠.

جاءوهم به من الآيات والحجج والبراهين كما قال الله عزوجل : ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾[غافر:٥] .

ولعل فيما سبق ذكره من صور مجادلة المستكبرين في الصفحات السابقة غنية عن الإطالة هاهنا إضافة إلى ما سيذكر -بإذن الله تعالى- في الفصل الخاص بقصص المتكبرين -أعني الفصل الخامس الذي يلي هذا الفصل .

وخلاصة القول : إن المجادلة بالباطل لدحض الحق علامة بارزة في سلوك المتكبرين يتخذونها وسيلة لإحقاق باطلهم وتزيين زيفهم وتصحيح بِدَعِهِم ونصرة آرائهم وأقوالهم ومذاهبهم ، ولتشويه وجه الحق الحسن وصورته الوضّاءة ، وطمس نوره المبين تشويشاً على متبعيه وعلى من أراد اتباعه ، والهوى هو دافعهم إلى ذلك .

ولا يقتصر الجدال على المستكبرين عن الإيمان بالله تعالى وتصديق رسله والاهتداء بآياته ، بل هي وسيلة منكرة يلجأ إليها كل متكبر على أي وجه من أوجه التكبر تحقيراً للحق المخالف لهواه واستعلاءً بالباطل الموافق له ، فالمتكبر بالعلم يجادل ليظهر أنه أعلم من غيره وأكثر اطلاعاً وأصوب رأياً ، وكذا المتكبر بمعتقده يجادل ليُظهر أنه أصح معتقداً ومذهباً .

وكذا المتكبر بعمله أو بقوته أو بسلطانه أو بحسبه أو بجماله كل منهم يجادل ليظهر أنه خير من غيره ممتاز عنه متفوق عليه .

وما يجادل أولئك بحجة بينة وسلطان ظاهر ، بل جدالاً بالباطل لدحض حق وإحقاق باطل ، ولكن الله عزوجل وهو الحق يعلي الحق ويرفع أهله ، ويذل الباطل ويضع المبطلين .

٣ - الفخر :

وهو الافتخار وعدُّ المآثر تعظماً(١) ، أو هو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ونحوها(٢) .

---

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ، ٣٤/٢.

(٢) انظر : معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص٣٧٤.

والفخر والتكبر كما يبدو من النصوص الشرعية خلقان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فقد ذكر الفخر في القرآن الكريم مقروناً بالخيلاء تالياً لها -والخيلاء هي الكبر .

وكذلك جمع بين الفخر والخيلاء في أكثر من نص نبوي شريف .

قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً** ﴾[النساء:٣٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[لقمان:١٨] .

وقال تعالى : ﴿ **لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[الحديد:٢٣] .

وفي الحديث : « **ثلاثة يبغضهم الله عز وجل : الفخور المختال** ، وأنتم تجدون في كتاب الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ ، والبخيل المنان ، والتاجر والبياع والحلاف »(١) .

وفيه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإزار فقلت : أين أتَّزِر؟ فأقنع ظهره بعظم ساقه وقال : « هَاهُنَا اتَّزِرْ فَإِنْ أَبَيْتَ فَهَاهُنَا ، أسفل من ذلك ، فإن أبيت فهاهنا -فوق الكعبين- فإن أبيت فإن الله عزوجل لايحب كل مختال فخور »(٢) .

وفيه : « الفخر والخُيَلَاءُ في الفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم » وفي رواية : « والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أصحاب الغنم »(٣) .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٧٦/٥ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤٨٢/٣ ، عن أبي تميمة الجهيني عن رجل من قومه .

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه . أخرجه البخاري في كتاب « بدء الخلق » ، باب « خير مال المسلم يتبع بها شعف الجبال » ، ٥٧٦/٤ ؛ وفي كتاب « المناقب » باب « ٣ » ١٦/٥ ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب « تفاضل أهل الإيمان فيه » ، ٧٢/١ ، ٧٣ .

وفيه : « والخيلاء التي يبغض الله ، الخيلاء من الفخر والكبر »[1] .

فمن هذه النصوص وأمثالها يستفاد أن الفخر من علامات الكبر ، فإن المتكبر على أي وجه من أو جه التكبر يفخر ويتباهى بما يظن أنه أهل لأن يفخر ويتباهى به ، فالمتكبر بعلمه -مثلاً- يفخر ويتباهى بكثرة ماجمع من أنواع العلوم وحصل من المعارف ، وبكثرة ما ألف وصنف ، وكثرة من درس عليه وتلقى منه ، كما يفخر بشهاداته وإجازاته ، وكذا المتكبر بماله يتفاخر بكثرته وتعدد أشكاله من مسكن ومركب ومأكل ، وكذا المتكبر بقوته يفاخر بها ، صرعت فلاناً ، وضربت فلاناً ، وكذا المتكبر بحسبه يفخر به ويعدد مآثر آبائه وأجداده ، ويتباهى بطيب أصله وشرف نسبه ، وكذا كل متكبر يفخر ويتباهى بما هو متكبر به ، فلا تأتيه فرصة إلا وتنطلق لسانه بالفخر ، يرفع بذلك نفسه متعظماً على الآخرين لايرى أحداً منهم يفوقه أو يدانيه شرفاً وفضلاً ورفعة ومجداً ، فهو يذكر ما يخيل إليه ويظن أنه ممتاز به على الناس تبجحاً بنفسه وتعريضاً باحتقار غيره[2] .

٤ - البخل :

٥ - الرياء :

وهاتان الصفتان يدل عليهما قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً . الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قِرِيناً** ﴾ [النساء:٣٦-٣٨] .

بعد أن بين الله تعالى أنه لا يحب كل مختال معجب بنفسه متكبر على الخلق فخور يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله[3] ، وأن الاختيال والفخر يمنعان من القيام بالحقوق التي أمر الله تعالى بها ، وصف سبحانه وتعالى المختالين الفخورين ذاماً لهم بقوله : ﴿ **الَّذِينَ**

---

(١) أخرجه أحمد عن جابر بن عتيك رضي الله عنه ٥/٤٤٥.

(٢) انظر : تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ٥/٩٥.

(٣) انظر : تفسير السعدي ، ص١٤٣.

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ثم قوله بعد ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ، فتبين أن الاختيال والفخر مانعان من الإحسان حاملان على البخل لأنهما اختيال وفخر فرحا بالأعراض الفانية وركوناً إليها واعتماداً عليها فيبخل المختال بتلك الأعراض خوفاً من زوالها .

والبخل كما هو واضح من الآية لا يقتصر على الأمور الحسية بل يشمل كذلك الأمور المعنوية كالبخل بالعلم والنصيحة ، ويدخل في ذلك البخل بإلقاء السلام ورد التحية ، وطلاقة الوجه وحسن المنطق ونحوها .

وليت المتكبر بخيل في نفسه ، بل هو أسوأ من ذلك يمقت السخاء والإحسان حتى من غيره ، ولذا فإنه موصوف بقوله تعالى : ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ، وأمرهم للناس إما بقولهم ، وإما بحالهم حين يحملون غيرهم على البخل بما يروا من اختيالهم وافتخارهم عليهم ، فيكونون لهم قدوة سيئة في ذلك[1] .

ووصفوا بوصف ثالث هو قوله تعالى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ، أي يكتمون ما آتاهم الله من العلم ، وذكر أن المراد بهم اليهود الذين جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله في التوراة ، وقيل هم المنافقون ولايخفى مافي اللفظ من معنى أوسع من ذلك وأكثر شمولاً وأعم فائدة .

وإذا بدا المتكبر محسناً منفقاً فإنما يفعل ذلك لمجرد الرياء والسمعة ليتسامع الناس بأنه كريم ، ويتطاول على غيره بذلك ويترفع عليه[2] .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء:٣٨] ، فإذا المتكبر بخيل لايجود بالخير ، فإذا أنفق أنفق رياءً وسمعة ، وهذا يعني أن المختال المتكبر إما أن يبخل بالإحسان فيمنع النفقة ، وإما أن يمنع وصفها التي تقبل به فيفعلها رياءً وسمعة فلا تغني عنه

---

(١) انظر : تفسير المنار ، ٥/٩٩.

(٢) انظر : فتح القدير ، ٢/٤٦٦.

شيئا .

٦ - الاختيال والتبختر في المشي :

إذا مشى المتكبر مط ظهره وشمخ بأنفه ومد يديه وضرب الأرض بقدميه ، وهذه مشية التبختر والخيلاء كأن ما على الأرض سواه .

قال الله تعالى : ﴿ **فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى وَلَـكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى** ﴾ [القيامه:٣١-٣٣] ، يصف الله تعالى ذلك الإنسان الذي لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ولم يصلِّ لربه بل كذب وتولى عن طاعة الله ثم هو يمضي إلى أهله منصرفاً إليهم يتبختر في مشيته افتخاراً بذلك- ومعنى (يتمطى) أي يلوي مطاه أي ظهره ، وذكر أن المعني بهذا هو أبوجهل لعنه الله[١] .

وقد سبق ذكر الحديث الذي فيه : « **إذا مشت أمتي لمطيمطا . . .الحديث** » . وفيه دلالة على تبختر المتكبر في المشي[٢] .

وكذلك يدل على هذه الصفة من صفات المتكبرين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **بينما رجل يتبختر يمشي في بردين قد أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامه** »[٣] .

ومما يستدل به في هذا المجال قول الله تعالى في معرض التكبر : ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ [الإسراء:٣٧] ، و قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [لقمان:١٨] .

فها هنا نهي عن المرح في المشي ، وهو الخيلاء والتبختر[٤] ، وقد بين الحق بعد ذلك صفة المشي الحسن المحمود بقوله : ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ** ﴾

---

(١) انظر : تفسير الطبري ، ١٩٩/٢٩ ، ٢٠٠ ؛ تفسير ابن كثير ، ٤٨١/٤ ؛ فتح القدير ، ٣٤١/٥.

(٢) سبق تخريجه في الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٣) سبق تخريجه في الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤٣/٣.

[لقمان:١٩] ، أي توسط فيه(١) ، وكن متواضعاً ولا تمش مشي البطر والتكبر ، ولا مشي التماوت(٢) ، وهذا ما وصف الله تعالى به عباده فقال : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا** ﴾[الفرقان:٦٣] ، أي بسكينة ووقار من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً(٣) .

وقد رأى أحد التابعين أحدَهم يمشي متبختراً فقال : أفّ أف .شامخ بأنفه .ثانيَ عطفه ، مُصعِّر خده ، ينظر في عطفيه أي حميق ينظر في عطفيه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بأمر الله فيها ولا المؤدي حق الله منها(٤) . فهذا الذي ذكره في وصف ذلك المتبختر هو من مظاهر الاختيال في المشي .

ومن الأحاديث الدالة على هذه الصفة كذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما من رجل يتعاظم في نفسه ويختال في مشيته إلا لقي الله وهو عليه غضبان** » .

« يتعاظم في نفسه »: هذا هو الكبر ، أي يرى نفسه عظيماً كبيرا .

« **ويختال في مشيته** » وهذا هو أثر ذلك الكبر فمن يرى نفسه عظيماً ، إذا مشى اختال وتبختر ليمتاز عن الآخرين ، ويظهر ترفعه عليهم .

وحاصل القول : أن التبختر في المشي علامة من علامات الكبر وأثر ظاهر على سلوك المتكبر .

٧ - الاختيال باللباس :

ويكون إما بالإسراف فيها أو بإسبالها ويدل على ذلك قول رسول الله

---

(١) انظر : فتح القدير ، ٢٣٩/٤.

(٢) انظر : تفسير السعدي ، ص٥٩٧.

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ٣٣٧/٣.

(٤) قائل هذا الكلام هو الحسن البصري عليه رحمة الله وقد رأى ابن الأهتم وهو المنصور يمشي على تلك الحالة من التبختر ، وقد خرَّج هذا الأثر ابن أبي الدنيا في الخمول والتواضع كما ذكر ابن كثير . انظر : تفسير ابن كثير ٤٣/٣.

صلى الله عليه وسلم : « **كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا غير إسراف ولا مخيلة** »[1] .

الإسراف مجاوزة الحد في كل فعل أو قول ، والمخيلة هي الخيلاء أي : التكبر[2] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لاينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء** » ، وفي رواية : « **من جر ثوبه مخيلة لم ينظرالله إليه يوم القيامة** »[3] .

وفي الحديث : « **وَإِيَّاكَ وَتَسْبِيلَ الْإِزَارِ فإنَّه مِن الْخُيَلَاءِ وَالْخُيَلَاءُ لَايُحِبُّهَا اللَّه عزَّ وجلَّ** »[4] .

وفي الحديث : « **الإسْبَال في الإِزَار والقميص والعمامة ، من جرَّ شيئاً خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة** »[5] .

فهذه الأحاديث -وشبهها- دالة على وقوع الاختيال باللباس .

وتلك علامة من علامات الكبر ، فالمتكبر يحرص على أن لايلبس

---

(١) علقه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس ٢٦٤/٧ .
وأخرجه موصولاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده يرفعه - ابن ماجه في كتاب اللباس ، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة ٣٧٨/٢ .
وكذا أخرجه النسائي في كتاب الزكاة باب الاختيال في الصدقة ٧٩/٥ .
وكذا أخرجه أحمد ١٨٢/٨١/٢ .

(٢) انظر : فتح الباري ، ٣١١/١٠.

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب قوله تعالى : ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾[الأعراف:٣٢] ، ٣١٠/١٠ ؛ وباب : « من جر ثوبه من الخيلاء » ، ٣١٦/١٠ .

(٤) أخرجه أبوداود من حديث جابر بن سليم في كتاب « اللباس » ، باب « ماجاء في إسبال الإزار » ٥٦/٤ .

(٥) أخرجه أبوداود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب « اللباس » باب : « في قدر موضع الإزار » ، ٦٠/٤ .
وأخرجه ابن ماجه في كتاب : « اللباس » باب : « طول القميص كم هو » ، ٣٧٠/٢ ، وفيه : قال أبوبكر : ما أغربه ، وأبوبكر هو ابن أبي شيبة . انظر : فتح الباري ٣٢٢/١٠ . ففيه أن عبدالعزيز بن أبي داود فيه مقال .
وأخرجه أحمد في مسند وهذا لفظه . انظر : المسند ، ٦٥ ؛ ٦٤٢٦٣/٥ ، ٣٧٨

إلا أنفس الملبوسات وأغلاها ثمناً وأكثرها جذباً للأنظار ، وقد يكتفي بلبس القطعة منها مرة أو مرتين ثم يأنف أن تُرى عليه مرة أخرى فيرميها ليلبس غيرها .

ولايعني هذا أن لايتجمل المرء بما أحل الله له شكراً لنعمة الله عليه ، بل القصد أن يحذر من الإسراف والخيلاء ، فهذا هو الممنوع ، وإذا أمنه المرء فليأكل وليشرب وليلبس وليتصدق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث أولاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كل ماشئت والبس ما شئت ما أخطاتك اثنتان : سرفٌ أو مخيلة(١) .

وتؤكد النصوص أن التجمل وابتغاء المرء أن يكون حسن الهيئة لا يُنهى عنه ولا يُذم مبتغيه ، فقد صح في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **لايَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ** » فقال رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال : « **إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس** »(٢) .

وفي الحديث الآخر أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً جميلاً ، فقال : يارسول الله ، إني رجل حبب إلي الجمال وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد ، إما قال : بشراك نعلي ، وأما قال : بشِسْع نعلي ، أفمن الكبر ذلك؟ قال : « **لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس** »(٣) .

وفي حديث آخر ذكر وصية نوح عليه السلام لابنه وفيه : وأُنهاك عن الشرك والكبر ، قيل : هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال : أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال : « **لا** » قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال : « **لا** » ، قال : أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون

---

(١) ذكر البخاري تعليقاً في صحيحه في كتاب اللباس ٢٦٤/٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه في كتاب « الإيمان » باب : « تحريم الكبر وبيانه » ، ٩٣/١ .

والترمذي بنحوه في كتاب البر والصلة ، باب ماجاء في الكبر ، ٣٦١/٤

(٣) أخرجه أبوداود عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب « اللباس » باب ماجاء في الكبر ٥٩/٤ .

إليه؟ ، قال : « **لا** » قيل : يارسول الله فما الكبر؟ قال : « **سفه الحق وغمط الناس** »(١) .

وفي الحديث الآخر : إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلاً ورأسي دهيناً وشراك نعلي جديداً ، وذكر أشياء أخر حتى ذكر علاقة سوطه ، أفمن الكبر ذاك يارسول الله ، قال : « **لا ذاك الجمال ، إن الله جميل يحب الجمال ، ولكن الكبر من سفه الحق وغمط الناس** »(٢) .

وأما الإسبال في اللباس وجره فقد وردت في النهي عنه أحاديث مطلقة وأخرى مقيدة ، فأما المقيدة فقد ورد فيها النهي عن الإسبال على سبيل الخيلاء كما مرَّ بك بداية ذكر هذه الصفة ، وأما المطلقة فقد ورد فيها النهي عن الإسبال مطلقاً مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار** »(٣) .

والذي خرج به أهل العلم من هذه الأحادبث أن الإسبال للخيلاء كبيرة ، وأما لغير الخيلاء فظاهر الأحاديث تحريمه أيضاً ، لكن استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا فلا يحرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء ، إلا أن الإسبال مذموم على كل حال(٤) .

قال النووي : الإسبال تحت الكعبين للخيلاء ممنوع منع تحريم ، ولغيرها منع تنزيه(٥) ، ثم قال : « قال القاضي : قال العلماء : وبالجملة يكره

---

(١) عند أحمد في مسنده٢/١٧٠ ، وقال أحمد شاكر ، إسناده صحيح . انظر : مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر ، ١٠/٨٧ ، والحديث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما .

(٢) عند أحمد في مسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ١/٣٩٩ ، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح ، انظر : المسند بشرح أحمد شاكر ٥/٣٠١ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب ما أسفل الكعبين فهو في النار ٧/٢٦٥ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وفي الباب أحاديث أخرى ليس المقام مقام إطالة فيها .

(٤) انظر : فتح الباري ، شرح البخاري ، ١٠/٣٢٣.

(٥) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤/٦٣.

كل مازاد عن الحاجة والمعتاد في اللباس من الطول والسعة »[1] .

ودلت الأحاديث على أن الإسبال لايختص بنوع من الثياب ، فكما يكون في الإزار يكون في الرداء ، وفي الثوب وفي سائر ما يلبس كالسراويل ونحوها ، كما هو واضح من الحديث المذكور قبل ، وفيه : « **الإسبال في الإزار والقميص والعمامة** » ، وفي حديث صحيح آخر : « **ما خصّ إزاراً ولا قميصا** »[2] وفي آخر : « ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإزار فهو في القميص »[3] .

كما دلت الأحاديث -وشاهدها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **وإياك وإسبال الإزار فإنه من الخيلاء** » ، و المخيلة -على أن الإسبال وجر الثياب مظنة الخيلاء أي يستلزمها ولو لم يقصدها اللابس[4] .

وخلاصة القول : أن الإسبال من علامات الكبر ، فالمتكبر يتعمد إطالة ثيابه ، والخروج بها عن الحد المعروف والمألوف ، وتراه يمشي بها متبختراً مختالاً .

وليس فقط الإسبال في الثياب دليل على الخيلاء بل هناك صور أخرى لتلك الخيلاء بالثياب ، ومنها أشكال الثياب وأصنافها وأنواعها وما يصرف في الحصول عليها من كثير الأموال إسرافاً وتبذيراً بقصد التفاخر والتعاظم والخيلاء ، وهذا في الرجال وفي النساء وإن كان في النساء أكثر فإن الواحدة منهن وبخاصة المتعالية المتعجرفة تحرص على أن يكون لها من الملابس كل جديد وغريب وغالي لتفخر على بنات جنسها ، لترضي بذلك غرورها واستكبارها[5] .

وهذا الأمر قد يجر إلى مفاسد أخرى كأن لا يستطيع عائل تلك المرأة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤/٦٣.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب « اللباس » باب : « من جر ثوبه من الخيلاء » عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، ٧/٢٦٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب « اللباس » باب : « ما جاء في قدر موضع الإزار » ، ٤/٦٠ .

(٤) انظر : فتح الباري ، ١٠/٣٢٤.

(٥) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها ، ١/٦٨٠ ، ٦٨١.

المتعالية توفير مطالبها التي تفوق طاقته ، فيلجأ إلى السرقة أو الرشوة أو الغش ، ليرضي طموحها وغرورها ، وهذا أمر مشاهد وواقع لايحتاج إلى برهان ، وهو أمر لاتخفى مفاسده وآثاره السيئة على الأمة كافة والله أعلم .

٨ - لَيُّ العنق أو الرأس أو الجانب وتصعير الخد :

قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾[الحج:٨-٩] .

وردت هاتان الآيتان في وصف الذين يجادلون في آيات الله ليدحضوها بجهلهم وضلالهم معرضين عن الحق المبين مستكبرين عن اتباعه ، وفي قول الله تعالى (ثاني عطفه) تصوير لحالة أولئك المجادلين في آيات الله المعرضين عنها ، فإنهم يتكبرون ويتبخترون لاوين أعناقهم ورقابهم ورءوسهم معرضين مُولّين لايريدون أن يسمعوا ما يقال لهم من الحق وما يقرأ عليهم من الآيات ، فمعنى : (ثاني عطفه) ، أي لاوياً رقبته أو رأسه ، وأصل العطف الجانب ، وعِطْف الرجل : جانباه من لدن رأسه إلى وركيه ، قيل : وإنما عبر العلماء هنا بالعنق مع أن العطف يشمل العنق وغيرها ، لأن أول ما يظهر فيه الصدود عنق الإنسان يلويه ويصرف وجهه عن الشيء بليِّها[1] .

فقول الله تعالى في وصف المخاصم في آياته : (ثاني عطفه) ، كناية عن كبره واستعلائه ، فإنه إذا دعي إلى الحق أعرض عن داعيه ، ولوى عنقه ولم يسمع مايقال له استكباراً[2] .

وقال الله تعالى في معرض النهي عن التكبر : ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾[لقمان:١٨،١٩] .

فقول الله تعالى : ﴿ **وَلاَ تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ** ﴾ ، معناه ، لاتعرض بوجهك عمن كلمته تكبراً واستخفافاً بمن تكلمه واستحقاراً له ، وقيل : وأصل الصعر

---

(١) انظر : أضواء البيان ، للشنقيطي ، ٥/٢٦.

(٢) انظر : تفسير الطبري ، ١٧/١٢١.

داءٌ يأخذ الإبل في أعناقها أي رءوسها حتى تلفت أعناقها عن رءوسها ، فيشبه به الرجل المتكبر على الناس[1] .

وهذه إحدى وصايا لقمان الحكيم -رحمه الله تعالى- لابنه ، فإنه قد أوصاه أولاً بوصايا تتضمن أن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره ، ﴿ يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[لقمان:١٧] ، فلما أوصاه بذلك كان يخشى بعدهما من أمرين :

الأول : التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له .

والثاني : التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه ، ولذلك أوصاه بأن لا يتكبر على الناس ولا يمش في الأرض متبختراً فإن الله تعالى لا يحب المختال الذي يكون به خيلاء ، وهو الذي يُري الناس عظمة نفسه ، وهو التكبر ، ولا يحب جلَّ جلاله من يكن مفتخراً بنفسه ، وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه[2] .

وذكر الرازي لطيفة في هذه الآيات : وهي أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل في الأمر ، حيث قال : (أقم الصلاة) ، وهذا كمال المرء في نفسه ، ثم قال : (وأمر بالمعروف) وهذا ما يختص بتكميل الغير .

قال : وفي النهي قدم مايورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال : (ولا تصعر خدك) ثم قال : (ولا تمش في الأرض مرحا) لأن في طرف الإثبات من لايكون كاملاً لايمكن أن يصير مُكَمِّلاً ، فقدم الكمال ، يعني من لايكون مصلياً لايصير آمراً بالمعروف ، فمن لاخير فيه لنفسه فكيف يريده لغيره؟

قال : وفي طرف النفي ، من يكون متكبراً على غيره يكون متبختراً لأنه لايتكبر على الغير إلا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه ، وأما من يكون متبختراً في نفسه قد لايتكبر ، ويتوهم أنه يتواضع للناس ، فقدم نفي التكبر ، ثم نفى التبختر لأنه لو قد نفى التبختر لزم منه نفي التكبر فلا يحتاج إلى النهي

(١) انظر : تفسير الطبري ، ٧٤/٢١.

(٢) انظر : تفسير الرازي ، ١٣١/٢٥.

عنـه[1] .

ويعنـي رحمـه الله تعـالى : أن التبختـر فـي نفـس المـرء ، والتكـبر يكـون فـي سـلوكه الظـاهر أي علـى النـاس ، فلـو لـم يكـن متبخـتراً لمـا كـان متكـبراً ، ولهـذا لما نفى التكـبر أولاً أثبـت لـه الصفتيـن .والله أعلـم

وقـال تعـالى فـي وصـف المنـافقين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[المنـافقون:٥] .

يصـف الله عـز وجـل أولئكـم المنـافقين بـأنهم إذا دعـوا إلـى رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم ليستغفر لهـم اللـه تعـالى ممـا وقعـوا فيـه مـن معصيتـه حركـوا رؤوسـهم وهزوهـا اسـتهزاءً برسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم وباسـتغفاره ، وأعرضـوا عمـا دُعـوا إليـه مستكبرين عـن المصير إلـى رسـول الله صلـى اللـه عليـه وسـلم يستغفر لهـم[2] .

وفـي قولـه : (لـوَّوا) قراءتـان : الأولـى بالتشـديد فـي الـواو ، والأخـرى بـالتخفيف[3] ، والأكثر على القـراءة الأولـى ، وتعنـي أنهـم كـرروا هـزَّ رءوسـهم وتحريكهـا[4] ، وفـي الحديـث الصحيـح عـن زيـد بـن أرقـم[5] قـال : خرجنـا مـع النبي صلى الله عليه وسـلم فـي سـفر أصـاب النـاسَ فيـه شـدةٌ ، فقـال عبدالله بـن أبـي لأصحابـه : لاتنفقـوا علـى مـن عنـد رسـول الله حتـى ينفضـوا مـن حولـه ، وقـال : لئـن رجعنـا إلـى المدينـة ليخرجـن الأعـز منهـا الأذل ، فـأتيت النبـي صلـى اللـه عليـه وسـلم فأخبرتـه ، فأرسـل إلـى عبدالله بـن أُبـي ، فسـأله فـاجتهد يمينَـه مـا فعـل ،

---

(١) انظـر : تفسـير الـرازي ، ١٣١/٢٥.

(٢) انظـر : تفسـير الطـبري ، ١٠٨/٢٨

(٣) قـرأ بـالتخفيف نـافع وحـده ، وقـرأ البـاقون بالتشـديد ، انظـر : السـبعة فـي القـراءآت لابـن مجـاهد ، ص٦٣٦.

(٤) انظـر : تفسـير الطـبري ، ١٠٨/٢٨.

(٥) ابـن زيـد بـن قيـس بـن النعمـان مختلـف فـي كنيتـه ، قيـل : أبوعمـرو وقيـل أبـو عـامر ، استصغر يـوم أحـد ، وأول مشـاهده الخنـدق ، غـزا مـع الرسـول صلـى اللـه عليـه وسـلم سبع عشـرة غـزوة ، لـه حديـث كثير ، شـهد صفيـن مـع علـي رضـي الله عنه ومـات فـي الكوفـة أيـام المختـار سنة سـت وسـتين ، وقيـل ثمـانٍ وسـتين رضـي اللـه عنـه وأرضـاه . انظـر : الإصابـة : ٥٦٠/١

قالوا : كذبَ زيدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في [إذا جاءك المنافقون] فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليستغفر لهم ، فلوّوا رءوسهم[1] ، وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية غير ذلك ، ومفاد تلك الآثار أنها نزلت في المنافقين حين لووا رءوسهم استكباراً أن يستغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَـانِ أَعْـرَضَ وَنَـأَى بِجَانِبِـهِ وَإِذَا مَسّـهُ الشّـرّ فَـذُو دُعَـآءٍ عَرِيـضٍ** ﴾[فصلت:٥١] .

من الصفات الذميمة في الإنسان -الإنسان الكافر بخاصة-[3] أنه ينسى شكر المنعم على نعمه عليه ويذهب بنفسه ويتكبر ويتعظم ، فإذا مسه الضر إذا هو يتذكر كاشف الضر ، فيقبل على دوام دعائه مبتهلاً متضرعاً[4] ، وفي التعبير بقوله (دعاء عريض) دليل على الكثرة والدوام[5] أي يكثر الدعاء ويداوم عليه حتى ينكشف ضره ، ومعنى (أعرض ونئا بجانبه) أي صد بوجهه وتباعد بجانبه[6] .

وخلاصة القول:إن هذه الآيات البينات تشير إلى علامة من علامات الكبر وهي : لي العنق أو الرأس أو الجانب ، وتصعير الخد وإمالته على سبيل الخيلاء والتكبر ، وهي علامة تظهر على سلوك المتكبرين يعبرون بها عن تعظمهم واستعلائهم عن الحق وعلى الخلق فإذا خوطبوا بالحق من قبل أهله لووا رءوسهم وثنوا جنوبهم هزءاً واستخفافاً بهم وبما معهم من الحق ، ومن هذا القبيل الإجابة بحركة الوجه أو اليدين أو غيرهما من الجسم كرفع الحاجبين

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة المنافقون ، قوله : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسمهم . . .)الآية (المنافقون : ٤) ، ٥٣٦/٦

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ، ١٠٩/٢٨-١١٠ ؛ الدر المنثور ، ٣٣٤/٦-٣٣٧.

(٣) انظر : المحرر الوجيز ، ٢٣/٥ ؛ تفسير الرازي ، ١١٩/٢٧ .

(٤) انظر : تفسير الرازي ، ١١٩/٢٧.

(٥) انظر : المحرر الوجيز ، ٣٢/٥.

(٦) انظر : تفسير الطبري ، ١٢٥/١١ ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت- الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .

وغمز العين وشد الحنك، ومط الشفاه وإشارة اليد ورفع الرأس أو خفضه[1].

٩ - التشدق في الكلام :

ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ** قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ **قَالَ الْمُتَكَبِّرُونَ** »[2].

« **الثرثارون** » : هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق[3].

« **المتشدقون** » : هم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل : أراد بالمتشدق : المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم[4].

وقيل : المتشدق هو المتكلم بملء شدقيه تفاصحاً وتعاظماً واستعلاءً على غيره[5].

« **المتفيهقون** » : الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع[6].

---

(١) انظر : الأخلاق الإسلامية وأسسها، ٦٧٤/١.

(٢) أخرجه الترمذي عن جابر رضي الله عنه في كتاب : « البر والصلة » . باب : « ماجاء في معالي الأخلاق » وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه، وروى بعضهم هذ الحديث عن المبارك بن فضالة عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر فيه عن عبدربه بن سعيد، وهذا أصح . انظر : سنن الترمذي، ٣٧٠/٤ .

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ولم يذكر المتفيهقون . انظر : المسند، ٣٦٩/٢ .

وأخرجه عن أبي ثعلبة الخشني بنحو حديث جابر عن الترمذي . انظر المسند، ١٩٣/٤-١٩٤ .

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢٠٩/١.

(٤) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٥٣/١.

(٥) انظر : الترغيب والترهيب للمنذري، ٥٦٢/٣.

(٦) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٨٢/٣.

وقيل : المتشدق والمتفيهق بمعنىً واحد[1] .

وورد في حديث آخر « **إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلّل الباقرة بلسانها** »[2] .

والمقصود بهذا الوعيد هو الذي يتشدق في الكلام ويفخم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفّاً[3] .

والذي يؤخذ مما سبق هو أن التفخم في الكلام من علامات الكبر ودلائل التكبر ، فالمتكبر إذا تكلم فخم كلامه ولف به لسانه يتعاظم بذلك ويستعلي ، كما أنه يتوسع فيه ويكثر منه ويتكلفه ليشار إليه بالفصاحة والبلاغة والبيان فيزيد انتفاشاً وانتفاخاً .

١٠ – القسوة والغلظة :

المتكبر فظ غليظ لا تعرف الرحمة والرأفة طريقاً إلى قلبه ، ولايجد اللين والرفق مسلكاً إلى نفسه ، عابس الوجه مقطب الجبين غليظ المنطق ، سيء السلوك ، وهو كذلك لأنه نظر إلى نفسه فرفعها ونظر إلى الناس حينما رفع نفسه فرآهم دونه فحقّرهم ، وإذا هم بخيلائه لايستحقون الإحسان إليهم بأية صورة من صور الإحسان حتى ولو بكلمة طيبة أو بنظرة باسمة .

وإن قصص المتكبرين في القرآن الكريم،وفيما هو مشاهد من واقع الحياة ماضيها وحاضرها شاهدة على أنهم والرفق والرحمة واللين والإحسان يسيرون في خطوط متوازية لا يمكن أن تلتقي إلا حين يغسل الإيمان تلك النفوس المتعظمة المتعالية ويطهرها من ذلك الرجس والدنس .

لقد ألقى المتكبرون خليل الله إبراهيم عليه السلام في نارٍ موقدة وقتلوا كثيراً من رسل الله عز وجل إليهم ، واضطهدوا أهل الخير والصلاح ، فأين الرحمة من هذا كله؟

أين الرفق والإحسان ، والمتكبرون يسحبون بلالاً رضي الله عنه ، وغيره

---

(١) انظر : الترغيب والترهيب ، ٥٦٢/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، ١٦٥/٢ ، ١٨٧.

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر : ٧٣/٢.

من المؤمنين على رمضاء مكة في هجيرها المشتعل .

وأين الرفق والإحسان وأبوجهل يطعن امرأة ضعيفة مسكينة لاحول لها ولاقوة بحربةٍ في قُبُلها فيقضي عليها؟

وأين الرحمة والإحسان من الطاغية المتكبر فرعون وهو يُقتّل ويُذبّح أطفالاً تأبى كل فطرة سليمة أن يتعرضوا لأقل أنواع الأذى؟

أليس من الغلظة والطغيان والجبروت أن يُسْجَن الدعاة المصلحون في سجون البغي وأهله ويُذاقون فيها مالايوصف من التعذيب والتقتيل؟

إن هذا وغيره كثير ليشهد بأن للمتكبرين قلوباً قد انتزعت الرحمة منها ، ولعل ذلك هو من آثار طبع الله عز وجل على تلك القلوب بتكبرها ، فإذا هي غلف إلا عن الشر والسوء .

ومما يشهد على أن الجفاء والغلظة والقسوة خلق المتكبرين أن الله عز وجل قال في وصف قومٍ من النصارى واليهود : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة:٨٢ ، ٨٣] .

فالنصارى المعنيُّون بهذا من صفاتهم أنهم لايستكبرون ، ولذا فهم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، وقلوبهم رقيقة شفافة إذا سمعوا كلام الله تعالى لايملكون إلا أن تفيض أعينهم من الدمع ، وتجود به فيسارعون إلى الإيمان ، أما اليهود والمشركون فمفهوم الآية أنهم يستكبرون ، ولذلك فإن قلوبهم لاتعرف المودة للمؤمنين ، بل هم أشد الناس عداوة لهم .

وشاهد آخر على غلظة وجفاء المتكبرين وقسوتهم هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الفخر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر ، والسكينة في أهل الغنم ، والإيمان يمانٍ والحكمة يمانية** »(١) ، وفي رواية « **والجفاء**

---

(١) متفق عليه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري في « بدء الخلق » ، باب « خير مال المسلم » ٥٧٦/٤ ، وفي كتاب ، « المناقب » باب : « ٣ » ١٦/٥ .
وأخرجه مسلم في كتاب : « الإيمان » ، باب : « تفاضل أهل الإيمان فيه » ٧٢/١ ، ٧٣ .

وغلظ القلب في الفدّادين عند أصول أذناب البقر » وفي رواية « أذناب الإبل من حيث يطلع قرن الشيطان - في ربيعة ومضر »[1] .

وفي رواية : « **غلظ القلوب والجفاء في المشرق ، والإيمان في أهل الحجاز** »[2] .

« **الفدّادون** » : بتشديد الدال عند الأكثر ، جمع فدّاد بالتشديد ، وهم الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم ، ويقال : فدَّ الرجل يَفِد فَداً إذا اشتد صوته ، وقيل : هم المكثرون من الإبل ، وقيل : هم الجمالون والبقارون والحمارون والرعيان .

وقيل : « الفدادون » ، بتخفيف الدال والمراد بها البقر التي يحرث بها وأهلها أهل جفاء وغلظة[3] .

وفي الحديث برواياته المختلفة مدحٌ لأهل اليمن وأهل الحجاز وذم لأهل المشرق .

قيل : وفي ذم أهل المشرق إشارة إلى شدة كفر المجوس ، فإن مملكة الفرس ومن تبعهم من العرب كانت من جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة ، وكانوا في غاية القسوة والتكبر والتجبر .

وذُمَّ الفدّادون من ربيعة ومضر لاشتغالهم بمعالجة ماهم فيه عن أمور دينهم وذلك يفضي إلى قساوة القلوب[4] .

وقيل : وخصَّ أهل الغنم بالسكينة الدالة على السكون والوقار والتواضع لأنهم غالباً دون أهل الإبل في التوسع والكثرة ، وهما من أسباب الفخر

---

(١) متفق عليه ، عن أبي مسعود ؛ أخرجه البخاري في كتاب : « المناقب » ،باب « ٣ » ، ١٥/٥ ، وفي كتاب المغازي ، باب « قدوم الأشعريين » ٣٠١/٦ ، ٣٠٢ .
وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب :تفاضل أهل الإيمان فيه ، ٧١/١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب :تفاضل أهل الإيمان فيه ٧٣/١ .

(٣) انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤١٩/٣ .

(٤) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٤٣٣/٦.

والخيلاء[1] .

قلت : فالحديث شاهد على أن الغلظة والشدة والقسوة من أخلاق المتكبرين ، فبهذا وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم بالفخر والخيلاء ، كما وصف الآخرين باللين والرقة ، فقلوبهم ذات خشية واستكانة سريعة الاستجابة والتأثر بالموعظة والتذكير سالمة من الشدة والقسوة التي وصف بها أولئك[2] .

فقلوب المتكبرين إذاً غليظة لاتفهم ولاتعقل ولاتلين لموعظة ، ولاتخشع لذكرى .

وشاهد آخر على غلظ وجفاء المتكبرين هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **أَلاَ أُخْبِرُكُم بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ متَضَعَّف لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرَّهُ ، أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلّ جَوَّاظ مُسْتَكْبِرٍ** » وفي رواية : « **كُلُّ جَوَّاظ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ** »[3] .

وفي حديث آخر : « **ألا أخبركم بشر عباد الله؟ الفظ المستكبر ، ألاأخبركم بخير عباد الله؟ الضعيف المستضعف ، ذو الطِّمْرين لايُؤْبه له ،**

---

(١) انظر : فتح الباري شرح البخاري ٦/٤٣٤ .

(٢) انظر شرح النووي على مسلم ، ٢/٣٤.

(٣) متفق عليه ، عن حارثة بن وهب رضي الله عنه ، أخرجه البخاري في كتاب « التفسير » تفسير سورة القلم ، باب قوله : « عتل بعد ذلك زنيم » ، القلم/١٣ ، ٦/٥٤٤ ؛ وفي كتاب : « الأدب » ، باب : « الكبر » ٨/٣٤٤ ، وأخرجه مسلم في كتاب « الجنة » باب « النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء » ٤/٢١٩٠ .

لو أقسم على الله لأبرَّ الله قسمه»[1] .

فانظر كيف جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه الأوصاف لأهل النار ، فهم : كل عُتل ، جوَّاظ ، زَنيم ، فَظٌّ ، مستكبرٍ ، أومتكَبِّرٍ .

فالعُتُلُّ : بضم العين والتاء ، هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل[2] ، وقيل : الجافي عن الموعظة ، وقيل : الفظ الغليظ من كل شيء ، وقيل : الفاحش والآثم ، وقيل : الغليظ العنيف ، وقيل غير ذلك،وكلها معانٍ متقاربة[3] .

والجوَّاظ : بفتح الجيم وتشديد الواو ، وبالظاء المعجمة ، هو الجموع المنوع ، وقيل : كثير اللحم المختال في مشيته . وقيل : القصير البطين ، وقيل : الفاخر بالخاء[4] .

وقيل : الفظ الغليظ[5] .

والزنيْمُ : هو الدَّعِيُّ في النسب الملصق بالقوم وليس منهم[6] .

والفظ : هو سيء الخلق ، أو الشديد الخشن الخلق[7] .

وأما المتكبر والمستكبر : فهو صاحب الكبر الذي هو بطر الحق وغمط الناس[8] .

وعلى ضوء ماسبق فإن في هذه النصوص النبوية إشارة إلى ماذكرت من كون القسوة والغلظة والجفاء من علامات الكبر في سلوك المتكبرين ، فالجمع بين هذه المعاني يدل على ذلك والله تعالى أعلم .

وتزداد الدلالة وضوحاً حينما نتأمل ما وصف به رسول الله صلى الله

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٧/٥ ، قال المنذري : ورواته رواة الصحيح إلا محمد بن جابر : انظر : الترغيب والترهيب ، ٥٦٤/٢ .

(٢) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨٨/١٧ .

(٣) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٨٥٧/٨.

(٤) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧

(٥) انظر : فتح الباري شرح البخاري ، ٨٥٧/٨.

(٦) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ٤٥٩/٣.

(٨) انظر : شرح النووي على مسلم ١٨٨/١٧ .

عليه وسلم -بالمقابل- أهل الجنة من صفات تدل على تواضعهم ورِقة قلوبهم ولينها : كل ضعيف متضعف أو مستضعف ، فالضعيف مَن نفسه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا ، والمتضعف من يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لخموله وضعف حاله في الدنيا[1] .

فهذا حال المتواضعين وضده حال المتكبرين .والله أعلم

١١ - الكذب :

في الحديث الصحيح أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله ، فقال : « **كُلْ بِيَمِينِكَ** » ، قال : لاأستطيع ، قال : « **لاَ اسْتَطَعْتَ ، مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ** » ما منعه إلا الكبر ، قال : فما رفعها إلى فيه .

فهذا رجل فيه كبر يأكل بشماله فيأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل بيمينه فمنعه الكبر أن يطيع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كاذباً : لاأستطيع ، أي : لاأستطيع أن آكل بيميني ، يتظاهر بعلة تمنعه من الأكل بيمينه ، وهو كاذب ، مامنعه إلا الكبر ، فكان الكبر دافعاً له للكذب ، فجوزي على ذلك بأن شُلّت يمينه ، فإذا هو فعلاً لايستطيع رفعها بعد ذلك إلى فيه .

فالمتكبر يكذب لتغطية كبره تارة ، ويكذب لإبرازه تارات ، فيدعي لنفسه ماليس عنده كعلم أو مال أو نسب شريف أو قوة وشجاعة أو ظرافة أو سوى ذلك مما يهدف من ورائه نيل المرتبة العليا والمنزلة الرفيعة بين الناس .

وهذا كذب يكذبه المتكبر فيما بينه وبين الناس يرجوا أن ينال الرفعة بينهم ، وليس بنائل لأن الله يذل المتكبر ويضعه ، وأعظم من ذلك كذب المتكبر على ربه تبارك وتعالى وتقوله عليه بغير علم ، كما قال قارون : ﴿ **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِيَ** ﴾[القصص:٧٨] ، يقول : إنما أعطاني الله هذا المال لعلمه أني أستحقه ولمحبته لي[3] ، وهذا مَحْضُ افتِراء وكذب ، وتقوُّلٌ

---

(١) انظر : شرح النووي على مسلم ، ١٨٧/١٧ ؛ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ٨٥٦/٨ .

(٢) أخرجه مسلم [illegible]

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ، ٤١٠/٣/٣

على الله تعالى بغير علم ، ولهذا عوقب بما عوقب به من الذلة والهوان .

ونحو هذا ماقاله صاحب الجنتين : ﴿ **وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** ﴾[الكهف:٣٦] .

ونحوه قول اليهود والنصارى : ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾[المائدة:١٨] ، وقولهم ﴿ **لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى** ﴾[البقرة:١١١] ، يقول اليهود والنصارى هذا وهم الذين وصفوا الله تعالى بما لايليق به وبجلاله سبحانه وتعالى ، وكذبوا رسله وقتلوهم وحرفوا كتبه وبدلوها ، فأي افتراءٍ للكذب أشنع من هذا؟

ونحوه كذلك ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾[الأنعام:٩٣] .

قيل : نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب ، كان يسجع ويتكهن ويدعي النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه[١] .

وقيل : في عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، كان قد أسلم وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأملى عليه يوماً قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ** ﴾[المؤمنون:١٢] ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ** ﴾[المؤمنون:١٣] ، عجب عبدالله من تفصيل خلق الإنسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **هكذا أنزلت عليَّ** » ، فشك عبدالله حينئذ ، وقال : لئن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، وذلك قوله : ﴿ **وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنَزلَ اللَّهُ** ﴾ وارتد عن الإسلام ، ثم أسلم يوم الفتح[٢] .

---

(١) ذكره الطبري عن قتادة ، انظر تفسيره ٢٧٣/٧ ، ٢٧٤.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه ٤٥/٣ ، عن شرحبيل بن سعد ، وانظر : تفسير الطبري ، ٢٧٣/٧ ، ذكره عن السدي وهو في أسباب النزول ص٢٥٤.

فهذا محض افتراء وكذب يتقوله المستكبرون، يريدون الرفعة والله مذلهم: ﴿ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾.

١٢ - غمط الناس:

أي الاستهانة والاستخفاف بهم والاستحقار والاستصغار لهم والتعالي والترفع عليهم، وصور ذلك كثيرة من الهزء والسخرية والغمز واللمز والتعيير والتنقيص والغيبة والنبز وفضح العيوب وكشف النقائص، والترفع عن مجالستهم ومخالطتهم ومزاوجتهم -وبخاصة الفقراء والمستضعفين منهم- وعدم الإحسان إليهم أو الإعتراف لهم بحق أو واجب[1].

فالمتكبر يفعل كل ذلك إرضاءً لاستكباره واستعلائه بنفسه، فإنه يرى نفسه كبيراً عظيماً، ويرى غيره أصغر منه وأقل شأناً، فهو يقابلهم بهذا السيء من الأخلاق والمعاملة استخفافاً بهم وتعظماً عليهم.

وشواهد هذا التعظم على الناس والاستحقار لهم فيما قصه القرآن الكريم من خبر المستكبرين كثيرة قد سبق الإشارة إليها غير ذي مرة مما أغنى عن إعادتها هنا.

والمقصود أن المتكبر لا يرضى أن يتساوى مع غيره في شيء، بل هو يطمح إلى أن يكون الأرفع والأعلى، ولذا فإنه يتنقص الآخرين ويعيبهم لتتحقق له غايته الخبيثة ومقصده الدنيء.

ولقد نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن والتجسس والغيبة فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٦٧٤.

﴿وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١١،١٣] .

فتأمل قوله تعالى : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ، بعد نهي المؤمنين عن السخرية بإخوانهم ، وقوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ، بعد نهي المؤمنات عن السخرية بأخواتهن .

وستجد أن السر في ذلك هو أن الذي يسخر من غيره إنما يدفعه إلى ذلك شعوره بأنه خير منه -وهذا هو الكبر- ولهذا عقب الله تعالى على ذلك بقوله : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ، مِّنْهُنَّ﴾ ، ليبين للساخرين خطأهم في اعتقادهم أنهم خير من المسخور منهم ، فعسى أولئك لهم عند ربهم الدرجات العلى ، وأولئكم الساخرون لا قيمة لهم ، وذلك حينما يوزن الجميع بميزان التقوى الذي لا يزن الله تعالى بميزان سواه .

يؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد النهي عن السخرية ، وما ذكر بعد من سيء الأخلاق : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣] ، فتأمل هذه الآية الكريمة وستجد أنها تقول : ياأيها الساخرين المنابزين المتجسسين الظآنين ظن السوء المغتابين ، تذكروا أصلكم لتعلموا أن لا أحد منكم يمتاز عن الآخر ، فالجميع من آدم خلقوا وخُلق آدم من تراب فأصل الجميع تراب ، فكيف وبأي شيء يمتاز ابن التراب على أخيه؟

ثم زد في تأملك للآية الكريمة وستجدها تشير إلى أن التمايز الذي يتميز به أولئك المتخلقون بهذه الأخلاق إنما هو في أمور دنيوية يظنها الجاهلون قيماً تستحق أن تكون ميزاناً للتفاضل والتسامي كالمال والنسب والقوة.... ؛ ولهذا قال الله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، أي لاتزنوا الناس وأنفسكم بسوى ميزان التقوى ، فإنكم إنما تنالون العزة والسمو به ، فمن كان تقياً فهو العزيز الرفيع الكريم عند ربه ، ومن كان فاجراً عصياً فهو الذليل المهين ، ولاشك أن التقوى تمنع صاحبها من التخلق بهذه السيئات .

وحتى لايدعي التقوى ويزعمها من ليس أهلها ، ختم الله تعالى هذه الآية بقوله (إن الله عليم خبير) ، أي هو عليم بعباده لايخفى عليه منهم شيء، يعلم من يقوم منهم بتقواه ظاهراً وباطنا ، ومن لايقوم بذلك لاظاهراً ولاباطنا ،

فيجازي كـلاً بمـا يسـتحق[1] .

واعلم رحمنا الله جميعاً أن ما ذكرته هاهنا إنما هو إشارة لما قصدت الاستدلال عليه من كون تحقير الناس علامة من علامات الكبر ، وإلا فهذه الآيات البينات فيها من الحِكم والأحكام واللطائف والأسرار ما لايتسع المقام لذكره ، وهو جدير بأن لايجهله كل ذي لب وبصيره ، فتتبعه من مظانة من كتب التفسير وغيرها ، ولاتحرم نفسك من دقائق أسراره ، وجليل حكمه وفوائده .

وخلاصة القول في هذ الفصل ، أن هذه العلامات التي ذكرت للكبر تعد هي الأبرز والأظهر في سلوكيات المتكبرين كما بدا لي والله أعلم .

وإن كان للكبر علامات أخرى غيرها إلا انها داخلة تحتها ، ويجمع هذه وتلك القول الموجز الجامع لمن أوتي جوامع الكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **الكبر بطر الحق وغمط الناس** » فكل خلق ووصف وأثر سيء هو من آثار هاتين الصفتين ، بطر الحق وغمط الناس ، لكن ينبغي أن لا يوصم إنسان بالكبر لمجرد ظهور بعض علاماته عليه ، فهناك بعض العلامات وإن كانت دالة على الكبر إلا أنها قد لا تكون كذلك في شخص ما مثل الإسبال مثلا ، فليس لمجرد أن شاهدت إنساناً مسبلة ثيابه أتهمه بالكبر ، إذ قد يكون له عذره كما كان لأبي بكر الصديق عذره فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنك لست ممن يصنعه خيلاء** » عندما قال أبو بكر رضي الله عنه : يارسول الله : إن أحد شِقّي إزاري يسترخي إلا أن أتعهد ذلك منه بعد سماعه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **لاينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء** » ، إنما هناك علامات لا تظهر إلا على المتكبر مثل بطر الحق واستحقار الخلق ، فلا يفعل هذا إلا متكبر يمنعه كبره من أن يذعن للحق أو يلين لأهله لأنه يرى نفسه أعظم من ذلك .

---

(١) انظر : تفسير السعدي ، ص٧٤٥.